كلاكيت
تانى مرة

الناشر

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

حسين الشحات

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال – المجاورة الأولى
– الحي الأول – مدينة الشيخ زايد –
الجيزة – مصر

تليفون: ٠٠٢٠٢-٣٨٥١١٩٦٩
٠٠٢-٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥
E-mail:alnokhoba@gmail.com

الطبعة الثانية
1438 هـ - 2016 م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2017 - 1541
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 30 - 5

محمد عطية

روايـــــة

كلاكيت تانى مرة

٢٠١٧

الإهداء...

إلى روح والدتى الغالية التى كنت أتمنى أن تكون إلى جوارى فى تلك اللحظة من حياتي.

شكر خاص للأساتذة الآتى ذكرهم لإسهامهم بالملاحظة والتحليل فى خروج هذا العمل للنور:

هبة فرج همام، أحمد حسنى أبو قايد، محمد صلاح عبد الهادي، أحمد محمد مظهر، محمد ممدوح طه.

القاهرة ٢٠١٥

- أنصحك بأن تسمي ابنك (اللّه).

لم يكن الأمر بالسهل على الحضور، كيف يستوعبون ما يطلبه الحاج منصور من أستاذ عزت؟ فقد اقترح الأول على الثاني تسمية ابنه الذي ظل طيلة سبعة و عشرون عاماً يرجوه من الأقدار ب (اللّه)، فلما حملت زوجته الجديدة به، وجد نفسه أمام هذا الاقتراح العجيب.

ديروط ٢٠١٦

تلعثم الشيخ حمزة و هو ينهي خطبته بالدعاء و التضرع لله كالمعتاد، كانت خطبة و لا أقسى على كل من تسول له نفسه الذهاب قُدُماً في معصية الله ، غنية بالوعيد لكل العصاة ، زاد من تأثيرها ارتفاع صوت الشيخ بشكل ملحوظ ، ربما كان متعمداً لإيصال رسالة ما للمستمعين .

بعد بضع دقائق من بداية الخطبة وقعت عينا حمزة على رجل مسن يجلس في مؤخرة المسجد الصغير في مدينة ديروط بمحافظة أسيوط ، كان مسنداً ظهره للحائط رافعاً إحدى ساقيه ليتمكن من الاستناد إليها تاركا الأخرى لتنبسط أمامه .

ما لفت نظر الخطيب هو تأثر الحضور عن بكرة أبيهم ، فيما احتفظ هذا الرجل بابتسامته حتى نهاية الخطبة ، فحدثت نفس حمزة إياه بأن يتكلم مع الرجل بمجرد أن يفرغ من خطبته ، فحتما لدى الرجل ما يقوله ، و صدق بالفعل حدس حمزة .

الرجل المسن يدعى عاصم ، المتر عاصم ، محام من القاهرة جاء ليترافع في إحدى القضايا ، فقام القاضي بتأجيلها لجلسة الغد ، ليضطر للمبيت في اللوكاندة المتواضعة الموجود بجوار المسجد .

عاصم أخو الحاج منصور حضر صلاة العصر و قرر البقاء بالمسجد حتى يحل ميعاد صلاة المغرب فينصرف ، لكنه فوجئ بالشيخ يعتلي

المنبر لإلقاء درسا دينيا فاستعد للاستماع ، حتى نزل حمزة لمحاورته فقدم له نفسه تحت اسم مستعار ، بل و صارحه بذلك .

رأى عاصم الشيخ حمزة ذو الملامح شديدة البراءة مقطبا حاجبيه، كون تصورا بأن الشاب نقي السريرة و لديه رغبة جامحة لأن يفعل شيئا، فقرر أن يساعده و لكن بطريقته الخاصة .

القاهرة ٢٠١٦

وقفت أمل منتصبة الظهر تداعب أرنبة أنفها بطرفي سبابتها وإبهامها ، تراقب بدقة بالغة طاولة الطعام المعد لضيوف الحدث الاستثنائي ذي الموعد السنوي ، تفحصت طريقة تقديم الحلوى والمشهيات على وجه الخصوص ، فهي تظن أنهما عنوان فخامة أي مأدبة بغض النظر عن المحتوى من المأكولات الأخرى ، رمقت خادماتها بنظرة يعرفنها جيداً دون أن تتفوه بكلمة ، كُنّ يعرفن تماماً مدى حرص سيدتهن على أن يمر ذلك اليوم ليس فقط على ما يرام ، بل في أبهى صورة ممكنة ، لذلك كان عليهن أن يتحرين الدقة في تنفيذ توجيهات (ميسز) أمل – كما كانت تحب أن تُنَادى من قِبل العاملين بالفيللا .

كانت قد حرصت قبل ذلك إبَّان إعداد الطعام أن تتذوق بنفسها بعض الأصناف التي كانت محل نقد في حفل العام الماضي ، أمل لا تنسى ملاحظة أستاذ عزت على سلاطة البابا غنوج بأنها لاذعة نسبيا ، كذلك كانت تريد أن تتجنب شراهة أستاذ زكريا و زوجته رقية اللذان اغتالا حلوى الميلفاي ، فلم يتركا لمن سواهما فرصة الاستمتاع بطعمها المميز ، فأمرت بمضاعفة الكمية علَّها تتسع لإطعام الجميع .

أخذت تلقي بنظراتها صوب كل مكان في البهو ، تراقب وتراجع في تؤدة ، تفحصت الأرض ، الجدران ، السجاد ، حتى السقف خصته ببعض نظراتها ، لم تنس قبل أيام من الحفل أن تؤكد على جميع أفراد

الأسرة ضرورة أن يرفلوا في ثياب جديدة لم يسبق لهم ارتدائها ، فهو طقس أصيل تحرص سيدة الدار دوما على ممارسته .

لم تنس كذلك أن تنبه ابنتها رشا لتحذير ولدها من العبث بأي شيء، فهمها الولد ابن الثلاثة أعوام و لم يعقب ، حيث أنه كان يخشى جدته، بينما كان يجد راحة كبيرة في وجود جده الذي أعطاه الضوء الأخضر ليرتع أينما و كيفما يحلو له ، بل كان يوبخ أي شخص تسول له نفسه أن يعترض أي رغبة للأمير الصغير ، نفت رشا عن ابنها تهمة الشقاوة ، بينما راحت خالته سالي تحتضنه في حنان حتى لا يغضب .

رفعت عيناها الجميلتين تلقاء ساعة الحائط الأنيقة المعلقة بمحاذاة النافذة لتخبرها عقاربها بأن موعد بداية الحفل لم يتبق عليه سوى أكثر من ساعة بقليل ، و بالتبعية يزداد اضطراب أمل ، فهي ليست فقط بانتظار تقييم الحضور لمأدبتها الشهية ، و إنما هي كذلك على موعد مع غريمتها اللدود مدام زينب التي طالما أرقت نومها واحتلت مساحة ليست بالقليلة من تفكيرها .

هرعت أمل لتطالع مرآتها التي لم تلبث أن طالعتها منذ عشر دقائق، كان هذا هو معدل ظهورها أمام المرآة بعد أن انتهت من ارتداء ملابس استقبال الضيوف و كذلك القيام بوضع بعض المساحيق و الكريمات بغية إخفاء فعل الزمان بملامحها بحكم أنها تقف على عتبة الخمسين من العمر ، كانت تضع أصابعها على غطاء رأسها ذو اللون القرمزي و الذي بدوره كان يعلو طبقة أخرى من غطاء آخر يقترب

لونه من الأبيض، تحرك أصابعها بعناية شديدة خشية إفساد ما كانت قد أُرهقت حقا في إخراجه على أفضل صورة ، تركت يديها كذلك تنساب بخفة على رقبتها ثم كتفيها فجانبيها لتتأكد من اعتدال وضعية رداءها على جسدها الممشوق ، رداءً أزرق اللون كانت قد اختارته بعناية لأسباب عدة ، فهي ترى في الأزرق عذوبة و وقع حالم على عيني من يراه ، لا مانع أيضا من استخدامه كوسيلة لدرء الحسد الذي كانت تخشاه كثيراً .

تأملت صورة عينيها الصارمتين في المرآة ، و اللتان كانتا تحملان صبغة فرعونية ، حيث كانتا مسحوبتين في اتجاه الخارج ، مما كان يضفي لملامحها شموخا إضافيا مع شفتيها الصغيرتين اللتان تشكلان معا ما يشبه الدائرة ، ما إن اطمأنت نسبيا لهيئتها حتى لفت نظرها فجأة صورة زوجها محمود في المرآة و هو يرتدي ملابسه قائما بحركات أشبه بالبهلوان كعادة الرجال ، تتدلى رابطة عنقه التي لم يقم بإحكام ربطها بعد ، يقوم بوضع بقايا قميصه داخل بنطاله بسرعة ، و كأنه يريد ألا يظهر ما يخفيه قميصه ، بينما انشغلت شفتاه بالسيطرة على النصف المتبقي من سيجارته حتى لا تسقط فتتسخ ملابسه ، لم يرق منظره كالعادة لأمل التي اكتفت بهز رأسها يميناً و يساراً مع ضم شدقيها للتدليل على استنكارها لفعله ، حدجته بنظرة شزراء لاحظها محمود فتظاهر بانشغاله بأمره حتى يتجنب أي صدام محتمل في يوم كهذا .

تصلَّبت حدقتا أمل صوب صورتيهما في المرآة ، تذكرت جيدا ما حدث في حفل العام الماضي من مباراة حامية الوطيس مع زينب ، مباراة لم تكن مباشرة و إنما كانت صراع بالنظرات ، كذلك تعليقات كلتيهما على المواضيع محل النقاش كانت بمثابة استعراض عضلات أنثوية لمدى نجاح كل منهما في الحياة ، تفوقت زينب كدأبها في مثل هذه الصراعات على أمل ، تفوق غير كاسح و لكنه كان كفيلا بإيقاظ ما تحاول أمل أن تتناساه من الغيرة و الحقد على زينب .

ارتعشت أمل ارتعاشة خفيفة أخرجتها من متابعة شريط ذكرياتها عقب إحساسها بيد محمود تحتضنها برفق من الخلف ملصقا شفتيه بأذنها اليمنى قائلا في حنان مفتعل :

- لن أبلغك كم أنتِ جميلة ، بل سأهنئ الجمال لأنكِ تتصفين به ..

رمقته بنظرة مغلفة بابتسامة متوسطة الاصطناع و ربتت براحتها على خده قائلة بصوت أقرب للهمس :

- ربما كنت جميلة كما تغازلني الآن ، و لكني قطعا لا أفوقك جمالا خاصة بعد أن اختفت بوادر الكرش الذي بدأ ينمو من خاصرتك أخيراً ، ترى .. أين ذهب ذلك الشقي ؟

ابتلع ريقه في خفة بعد أن أحنى رأسه قليلا لتفادي التقاء عيونهما ، ثم دمدم متسائلا :

- ألست أبدو أكثر شبابا ؟؟

- بلى ، و الفضل كل الفضل لحزام شد البطن الذي ابتعته منذ

أسبوعين ، كنت أعلم أنك ستدخره لترتديه اليوم .

بذل مجهودا مضن للسيطرة على ملامح وجهه و امتصاص وقع المفاجأة قبل أن يردف :

- لشد ما تمنيت أن أكون مكان هذه المرآة لأحوز دون سواي على نظراتك التي ترسلينها صوبها .

احتفظت بابتسامتها دون زيادة أو نقصان ، ثم أدارت رأسها صوب المرآة تارة أخرى قبل أن تودعها بعدما استدارت بجسدها نصف دورة لتكون مواجهة لزوجها ، قالت و هي تداعب رابطة عنقه لتعدل من وضعيتها :

- اذهب يا زوجي العزيز و أتمم استعداداتك ، فالمدعوون قد اقترب موعد قدومهم .

رفع حاجبيه مع ضم شفتيه ثم حرك رأسه من أعلى لأسفل مرتين في إشارة للإذعان و انصرف غير معقب .

الثابت أنه حين انصرف لم يكن يعلم إلى أين يذهب ، كان يسير على غير هدى ، و لكنه أسرع في تنفيذ الأمر لتجنب المزيد من النظرات الحادة التي ترمقه بها أمل ، و التي كان يعتقد أنها تخترق جلده لتغوص في قلبه حتى الوصول لأعماق أفكاره ، ترجَّل عبر الممشى المؤدي للبهو مشدوها محدثا نفسه :

- ما أجمل و ما أقبح أن يتزوج المرء من امرأة حاذقة الذكاء... اللعنة.

اجتاز الممشى فوصل البهو ليجد خادمتين تحملقان فيه و قد بدا عليهما أنهما كتمتا ضحكتيهما بجهد جهيد ، اعتقد لبرهة أنه قد نسي ارتداء البنطال ، فنظر لأسفل صوب المكان الذي خصته كلتاهما بالنظر إليه ليجد أنه كان يمشي كل هذا و قد ارتدى الحذاء فوق الجورب في إحدى قدميه دون الأخرى ، مما فسر له صوت الضحكة الخافتة التي ودعته زوجته بها بينما كان مغادرا لغرفة نومه ، انتبهت الخادمتان لتجاوزهما الحد فافتعلتا أنهما تقومان بتنظيف أرضية البهو ، رغم أنها كانت على حال من النظافة تصلح معه أن تستخدم كمرآة ، دلف محمود إلى الشرفة و قد أخرج سيجارة أخرى و استعد لإشعالها ، أخذ ينبش جيبه باحثا عن القداحة ، كان للتو قد أطفأ سيجارته في غرفة النوم ، لم يكن بالمدخن الشره ، لكنه كان ينتظر من دخان سيجارته الجديدة أن يكون مطية لخروج أنفاسه المحتقنة بشيء من الهدوء ، ليستعيد زمام سيطرته على نفسه ، فالمعركة لم تبدأ بعد ، لا يزال ينتظره الكثير فور الانتهاء من الحفل كعادة أمل معه سنويا .

أشعل السيجارة و تنفس دخانها بعمق شديد ، مط شفته السفلى وضم العليا ليهيئ المجال للدخان للخروج لأعلى كما يشبه المدخنة ، استبدت به ذكريات العام المنصرم ، خاصة و قد حدث ما يشبه ما حدث معه الآن من ارتداء إحدى نعليه ، تذكر عندما كانت زينب أول الحضور ، ما أن رآها حتى صافحها بشدة ثم جلس يتحدث إليها ، حتى إذا بدأت الكلام بطريقتها و رقتها الساحرتين ، كان كمن غاب عن

الوعي رغم حرصه الشديد على مراعاة أن أمل تراقبه ، بل و تحصي عليه أنفاسه ، و لكنه ما إن شاهدها حتى ألقى عليها نظرة طويلة تفيض بالشوق ، تلك الحالة التي تُوِّجَت بقيام محمود بإشعال السيجارة بعد أن عكس من وضعها بفمه دون أن يدري ، بل و دخن منها ثلاثة أنفاس كاملة قبل أن يدرك أن ما يحترق ليس التبغ ، و إنما هو الفلين المكون للمبسم ، سعل بشدة و قد نبهته ابنته للوضع الخاطئ للسيجارة .

على الرغم من ابتسامة محمود الزائفة و هو يحاول إخفاء وقع الدخان سيء الطعم و الرائحة على رئتيه ، و قوله بأنه دائما ما يقع في هذا الخطأ ، و بالطبع أيدته أمل في إدعاءه مع علمها التام بأنه مُلَفِق كاذب ، لكنها لم تُرِدْ أن تبدأ الجولة بينها و بين زينب بأن تكسب الأخيرة مجموعة نقاط تضعها في المقدمة مبكرا ، و مع ذلك ابتسمت زينب ابتسامة أججت من شعور أمل بالحنق على محمود ، محمود الشخص الذي لا ينقصه التفكير و الدقة في مجمل أفعاله يفتقر بشدة لتحكمه بنفسه عند رؤيته لزينب فيصير كطفل صغير يخطئ أخطاءً ساذجة تثير سخرية و ضحكات الآخرين .

يذكر محمود جيدا أن هذا الموقف كان قد احتل مساحة زمنية لا بأس بها من أحاديثه الثنائية مع زوجته ، أسابيع تمتد لشهور و هي تذكره بفعلته النكراء مرة بصيغة الدعابة - السمجة بالطبع - ومرة بصيغة التأنيب و مرة على سبيل الاستنكار ، و هكذا دواليك ..

قُطع حبل أفكاره على حين غرة بعد أن سمع صوت أمل تناديه مدللة إياه :

- حودة .. حودة ..

نظر حودة في دهشة ، لم تكن أمل لتدلل محمود يوما ، بينما تسمرت أعين ابنتيه لنفس السبب .

التقت عينا رشا بعيني سالي ليتبادلا السؤال دون إحداث صوت :

- رباه ماذا حدث لأمنا ، لا شك أننا بصدد أمر جلل .

كان هذا لسان حالهما قبل أن يجيب محمود زوجته :

- نعم يا حبيبتي .

- هل اتصلت بالضيوف لتطمئن على أنهن في طريقهن لنا الآن ؟؟

- نعم يا حبيبتي، هاتفتهم قبل قليل، و تأكدت أنهم في طريقهم لنا الآن.

المدعوون من الرجال و النساء ، و لكن استعمال أمل لنون النسوة كان لإيصال رسالة لمحمود ، الذي ما انفك أن أحسن قراءتها فرد عليها بصيغة جمع المذكر السالم حتى ينفي عن نفسه شبهة انتظاره لزينب دون سائر المدعوين .

زحام شديد كعادة ليالي الخميس في صيف القاهرة ، بينما كان أستاذ زكريا و زوجته السيدة رقية يصطحبان ابنتهما الوحيدة أميرة، كانت السيارة لا تتحرك قدر ما تتوقف ، أطلق زكريا دعابة سمجة كعادته بينما كان ينظر لرقية من فوق نظارته السميكة ليقول :

- ما كل هذا الزحام ؟ هل دعا محمود كل هؤلاء البشر لحضور حفل عيد زواجه ؟

كعادته أيضا كان أول من يضحك على دعابته ، و لم تلبث زوجته و من وراءها ابنته أن جاملتاه بضحكة قصيرة لم تسمعها أذناه لانشغالهما بسماع ضحكته هو ذاته المدوية .

زكريا من أوائل من اجتازوا البحر الأحمر للعمل في التدريس بالخليج، بعدما تحولت مصر في حقبة الثمانينات و لأول مرة في تاريخها من دولة جاذبة للسكان إلى طاردة و بشدة ، و بخاصة لبلاد أصحاب الحضارات النفطية ، عاد في أواخر الثمانينات بعد تحصيل مبلغا لا بأس به ، حاول استثماره بشتى الطرق ، من سوء الطالع بالنسبة له أن ظهر في الأفق ما كان يسمى بشركات توظيف الأموال ، التي استطاعت في زمن قياسي أن تستولي على أموال الآلاف ، كان من بينهم زكريا، فذهب (شقى عمره) كما كان يروق له أن يسميه أدراج الرياح .

كان لهذه الحادثة وقعها السيئ على نفس زكريا ، أحس بأنه قد أضاع أفضل سنوات عمره في صحراء جرداء بغرض تحقيق و لو ثروة محدودة تكون عونا له و لأسرته ما بقي لهم من حياة ، أصبح يرى نفسه شخصا تعس ، تملك الحقد منه على كل من معه مال و لم يضع .

غيَّر من مبادئه بالكلية ، فبعد أن كان أحد حملة لواء الحرب على ظاهرة الدروس الخصوصية ، صار أحد أباطرة المهنة المستجدة في منطقة العباسية حيث يقطن منذ عقدين أو أكثر قليلا .

رقية زوجته كانت نموذج للمرأة المصرية ، لم تترك زكريا يواجه صدماته منفردا ، بل كانت خير عون له ، لم تتأثر مثله من اختزال أحلامها برفقته من أعلى عليين إلى ما دون ذلك بمراحل ، و على عادة البدينات تتمتع بخفة دم شديدة ، لكنها لا تفرط في استعمالها في مثل تلك المناسبات ، لعلمها بأن الحاضرات من النساء كن يتحرين المبالغة في إظهار تصرفاتهن بشكل رسمي .

كانت كذلك مولعة بأن تجد ابنتهما الوحيدة عروسا على وجه السرعة ، أميرة ابنة العشرون عاما إلا بضعة أشهر كانت تصغي وبعمق لنصائح والدتها لها بضرورة زواجها المبكر ، فهي بلا أخ أو أخت، وأبواها يريدان الاطمئنان عليها بأسرع ما يمكن ، يعتبران مثل هذه المناسبات التي يُدعوان إليها بمثابة فرصة مواتية لعرض بضاعتهما الجيدة، ذات العينين السوداوين اللتان تفيضان بالحنان ، و الشعر المموج متوسط الطول ، لها ابتسامة ساحرة ، و أذنان تعملان بكثافة أكثر بكثير مما يقوم به لسانها ، و هو عين ما يعشقه الرجال .

أسندت أميرة رأسها الصغير إلى زجاج نافذة السيارة خلف مقعد أبيها و قد حدثتها نفسها بضرورة مخالفة تعليمات الأستاذ زكريا و الأم رقية هذه المرة ، فقد أحست العام المنصرم بأن وليد ابن الحاج منصور - أحد شباب العائلة المدعوون لحفل اليوم - كان لا يشعر بها البتة ،

بعدما أدارت معه حوارا مطولا لم تتلمس فيه أي اهتمام منه يوازي اهتمامها به ، بل كانت تشعر و كأنه يعاملها كطفلة صغيرة ، حيث كان يكبرها بثمان سنوات ، أحست وقتها بالصغار ، يبدو أن وليد يفكر بأخرى تفكيرا قد جعله لا يرى سواها ، إنه لا محالة على عهده معها ، نعم إنه مولع بمن سلبته ليس فقط قلبه ، بل عقله أيضا ، فصار هائما فاقدا للتركيز ، يلتقط من بين كل عشر كلمات لأميرة كلمة أو كلمتين على الأكثر ، بينما تُصَم أذناه عن بقية الحديث لانشغاله بحديث آخر لا يسمعه غيره ، نعم حديث يُنقل عبر دائرة شعورية مغلقة بينه و بين خليلته المجهولة ، مؤكد إنه كذلك ...

انتزعتها حركة السيارة المفاجئة من خيالاتها ، حيث استغل والدها تحرك السيارات التي أمامه و خلو مكان يستطيع أن يحشر فيه نفسه إلى الأمام عشرون مترا فحرك سياراته مسرعا ، وقعت عيناه بعد أن أوقف السيارة ثانية على سيارة حديثة ألمانية الصنع ، تأملها لبرهة ، تعلق بكفيه في أعلى عجلة القيادة مخاطبا رقية دون أن ينظر إليها :

- أترين يا أم أميرة هذه السيارة ذات اللون السماوي ؟

أجابته رقية بعد أن بحثت في السيارات محل النظر المشترك فأشارت لإحداها متسائلة :

- أهذه؟

أومأ برأسه إيجاباً معقبا :

- هل تعلمين كم يصل ثمنها ؟

لم تكن رقية إلا ربة منزل لها اهتماماتها الخاصة بتدبير شئون

البيت، خبراتها خارج حدود منزلها محدودة للغاية ، مما دفعها لتحريك أصابع كفها اليمنى من الوضع الرأسي للأفقي مع رفع حاجبيها قليلا للتدليل على عدم معرفتها للإجابة ، فما كان من زكريا إلا أن أجاب بصوت تصاحبه ضحكة ساخرة :

- قرابة الثمانمائة ألف جنيه .

زادت المفاجأة من ارتفاع حاجبي رقية هذه المرة بقوة ، حتى قاربا أن يلامسا غطاء رأسها ، بينما سقط فكها السفلي من فرط الاندهاش، لم ينتظر زكريا أي تعقيب منها ، بل أردف يقول ، بعد أن تنهد تنهيدة من أعماق أعماق رئتيه :

- كان بوسعنا أن نمتلك مثلها إن لم تكن أفضل ، لولا أن ...

صمت فجأة بعد أن شعر بغصة في حلقه ، حافظ على بقاء مرفقيه و كفيه على عجلة القيادة و لكنه غير من وضعية جذعه إلى الخلف ملصقا ظهره بالكرسي و ساندا رأسه لأعلى بانتظار أي حركة أخرى للسيارات تمكنه من التحرك و لو لبضعة أمتار .

تجمعت لدى سالي كل أسباب الشعور بالوحدة و الانعزال ، فهي الابنة الصغرى لمحمود و أمل ، تصغر أختها الكبرى رشا بما دون العامين فقط ، و لكن شتان بين شقيتين لا يوجد بينهما حتى ما يشبه الصداقة ، كانا ليقضيان ساعات كاملة سويا دون تبادل أي حديث .

لم تعان سالي من فقدانها لأخ أو أخت فحسب ، إنما كذلك تتجسد معاناتها في فقدان لغة الحوار بينها و بين والدتها التي تعد النسخة الكبرى من رشا ، نقاط التماس الفكري بين سالي و أمل محدودة للغاية ، كانت طيبة سالي و رومانسيتها محل نقد دائم من والدتها التي ترغب في أن تكون ابنتها إنسانة عملية ، خشية أن تفيق يوما على حقيقة الحياة التي نعيشها ، دفعها خوفها عليها مرارا لتوبيخها على الكثير من المواقف التي لم تبل فيها بلاء حسنا – من وجهة نظر أمل – بأن تكون أكثر شراسة في مواجهة الأحداث .

ليت أمل تدرك أن هذه الطريقة في تربية الأبناء تُورِث عادة نوعين لا ثالث لهما : الأول نوع عدواني هجومي سيء النية تجاه الآخرين ، ربما امتد به الأمر ليصاب بالبارانويا ، و النوع الآخر يكون شخص مضطرب الإرادة ضعيف الشخصية مشوش ، لا يمتلك القدرة في كثير من الأحيان على اتخاذ القرار المناسب ، كان النوع الأخير من نصيب سالي ، فيما استطابت رشا النوع الأول ، تفوقت فيه بشكل ملحوظ ، حتى أنها و بشهادة الجميع تجاوزت الأستاذة أمل معلمتها ومثلها الأعلى .

لم تتوقف مشاكل سالي عند هذا الحد ، بل إن اختيار والديها لشريك حياتها و هو ابن خالها الذي كان بمثابة الذراع اليمنى لمحمود في أعماله

كان قد أغلق الباب أمام طموحات النصف الثاني من العمر .. نعم هو كذلك ، عزلة سالي و إحساسها المفرط بالوحدة و الغربة حتى في بيتها جعلاها تشعر بأن حظها في حياة سعيدة ربما كان مدخرا للنصف الآخر من حياتها ، حيث تجد في الزواج السعيد ما يعوض الطفولة و الشباب الكئيبين ، أقنعت نفسها بذلك ، و انتظرت تبدل الأحوال .

دفعها حبها الشديد و تعلقها بأبيها للموافقة دون تفكير على الزواج من حسام ، لم يبذل محمود جهدا يذكر في إقناعها بالارتباط به ، حيث جلس يتحدث إليها لاثنتي عشرة دقيقة فقط ختمها بأنه يرى في زواجها مُسوِّغا للخلاص من تسلط والدتها عليها ، و العيش كإنسانة حرة سعيدة مع إنسان ناجح في حياته .

في واقع الحال لم يكن حبها لوالدها فقط هو الدافع لقبولها بأمر الزواج ، إنما فقدان الطموح لتكوين أسرة مبنية على حب مسبق بين الطرفين كان قد جعلها تنظر لأي زيجة سوى ذلك على أنها سيان ، ففشلها في قصة حبها السرية جعل منها شيئا عديم الوزن ، تعبث به الرياح و تحركه كيف شاءت .

حسام الذي يغيب عن حفل اليوم لسفره إلى الصين لإنهاء إحدى صفقات حماه ، كان شخصا عمليا للغاية ، كان يعيش لأجل شخصين فقط ، أولهما حسام الحالي و كيف يستفيد و يتمتع بحياته ، والآخر هو حسام المستقبل و كيف يؤمِّن لنفسه حياة كريمة مستقبلا ، كان لا يتسم بالبذل و لا بالعطاء ، أهم ما يميز علاقته بزوجته جهله بشئونها و بروده حيالها ، تشعر في كثير من الأحيان بأنه لا يشاطرها أحلامها،

بل حتى لا يقحمها في أحلامه ، كان لعمله أولوية قصوى لديه ، حتى أنه انشغل عن البحث مع سالي عن سبب تأخر إنجابهما رغم استمرار زواجهما زهاء ثلاثون شهرا .

يكفي أي أحد خبير أن ينظر لعيني سالي الحزينتين ليعرف أنها كزوجة لا تشعر بالإشباع ، فلكي تتمتع الأنثى بوجبة دسمة على مائدة الجسد لا بد من توفر الرغبة لدى الطرفين مغلفة بإطار من الرومانسية، و كل ذلك شريطة توفر عنصر الوقت ، و هي تلك العناصر الغائبة عن حسام بالكلية ، فاستحالت حياة سالي بالتبعية إلى شيء أجوف دفعها للانكباب على نفسها .

فيما كانت رشا المتعالية تنتظر يوم الاحتفال بزواج أبويها كفرصة سانحة لتبدو مزدانة كأمها ، متباهية على الحضور بأناقتها و حُليِّها، كانت تبدو في استقبالها للضيوف تياهة فخورة ، كذلك لا مانع من استعراض سيطرتها على مقاليد الحكم في بيت الزوجية بعدما أحكمت الإمساك بلجام زوجها خالد الذي أصبح طوع أمرها .

وقفت سالي كعادتها خلف رشا بنصف خطوة ، بينما كانت رشا تنتقي من صندوق مجوهراتها بعض المشغولات الذهبية لانتقاء أيها أكثر ملائمة مع ما ترتديه من زي ، راحت تجرب واحدة تلو الأخرى، ناظرة صوب المرآة، سألت سالي عن رأيها في القرط المدلى من أذنيها :

– أعتقد أن ذلك يبدو منسجما نوع ما مع هيئتي العامة ؟

أجابت سالي :

– نعم ، هو كذلك .

فتقول رشا :

- و لكني أشعر بأن هناك شيئا ليس في مكانه الصحيح .

ردت سالي : ربما .

لم تعرها رشا انتباها و هي تقول :

- لنجرب قرطا آخر إذن ، أين هو؟ .. أين هو؟ .. اممممممممم.. آه .. ها هو ذا .

رفعت خصلات شعرها المدلّاة على أذنها و قامت بخلع القرط الأول و استبداله بالأخير ، و سالي تراقب في حذر ، منتظرة السؤال القادم من رشا لتبادر بالإجابة عليه ، رغم يقينها بأنه أمر روتيني فحسب، فرأيها لن يغير من الأمر في شيء ، ابتسمت رشا بعد إنهاء ارتداء القرط ابتسامة دلت على الرضا ، و حولت عينيها بنظرة حاسمة نحو سالي قائلة :

- سأرتدي هذا .... و لن أجرب سواه .

ردت سالي :

- ربما كان هناك ما هو أفضل منه يا رشا ، لا مانع من المحاولة .

عقبت رشا :

- أكره تردد النساء ، لن أجرب سواه .

لم تعط الفرصة لسالي للتعقيب حيث أردفت مسرعة :

- ما رأيك الآن و قد انتهيت من ضبط هندامي و زينتي ؟

- تبدين متأنقة بصورة ملفتة .

تسأل رشا :

- ألا توجد لكِ أية ملاحظات ؟

- أحاول جاهدة البحث عن ملاحظة ، و لكنك متألقة كعادتك يا رشا .

- أشكرك يا سالي ، كما أحسدك أيضا .

اتسعت حدقتا سالي مستقبلة تعليق رشا ، ثم ابتسمت ابتسامة تحمل من البراءة القدر غير اليسير ، قالت بلهجة طفولية :

- على أي شيء تحسدينني يا عزيزتي ؟

أجابتها رشا :

- هلا علمتِ أن أكثر ما يؤرق المرأة فيما يتعلق بمسألة جمالها هو شعرها ؟

- لعل الأمر كذلك ، لكني لم أفكر به مسبقا .

ترد رشا و قد غُلِّف صوتها بشيء من الحسرة :

- و كيف يشغل بالك مثل هذه الأمور ، و قد وُهبتِ شعرا و لا أجمل ، هل تذكرين عندما كنا نذهب سويا للمدرسة ؟ كنت في كثير من الأحيان تستيقظين متأخرة عن ميعاد استيقاظي بنحو ثُلُث الساعة ، حيث لم تكوني بحاجة لتصفيف شعرك ، فقط تضعين رابطة الشعر لكبح جماح شعرك المرسل بغزارة و بنعومة فائقة .

تابعت و هي تداعب شعر سالي بأصابعها :

- لا تقلقي يا طفلتنا الكبيرة ، فمن غير المعقول أن تحسد المرأة أختها ، أليس كذلك ؟

- نعم نعم ... بكل تأكيد ، أشكرك على أية حال ، فكم كنت بحاجة

لما يرفع من روحي المعنوية قبل قدوم الضيوف الوشيك .

قالتها سالي ثم غاصت في ذكرى حدث تكرر مرارا ، له دلالته على معاناتها ، احتلت مكان رشا أمام المرآة بعد انصراف الأخيرة ، تبادلت مع نفسها النظرات ، كم كانت ترغب من قبل في أن تقوم بقص شعرها حتى يلامس بالكاد شحمتي أذنيها ، كانت تعتقد بأنها سوف تصبح أجمل لا محالة ، خاصة و أنها كانت تمتلك رقبة طويلة ، و وجها صغيرا يصح أن يوضع بين قوسين من خصلات الشعر المدلَّاة على الجانبين، ليبرزا كم هو وجه صبوح ، اصطدمت كما هو الحال دوما برغبات الآخرين، الذين لا يتوانون عن التدخل حتى في أدق خصوصياتها ، فتارة تنهاها أمها عن العبث بشعرها ، لتتلقفها أختها بعد ذلك بعامين لتوبخها على مجرد التفكير في أمر كذلك ، ثم تقفل الدائرة برفض تام من حسام لفكرة المساس بشعر سالي على أي نحو كان .

لكي الله يا سالي .. حدثت نفسها مواسية إياها قبل أن تذهب في أعقاب رشا لتلحق بها و بوالدتها ، لتكون على أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامرهما فور صدورها .

استقل أستاذ عزت سيارته متجها للحفل الموعود، كان الحظ حليفه في بادئ الأمر ، فعلى غير المتوقع هناك سيولة مرورية في منطقة الظاهر، سرعان ما عادت الأمور أدراجها بعد بضع دقائق من القيادة السلسة، ما إن وصل مدخل مدينة نصر حتى وقفت سيارته برفقة زميلاتها من السيارات الساكنة منتظرة الفرج عسى أن تتحرك ولو قليلا .

كان عزت مدير مدرسة تربطه صلة قرابة بأمل ، و كذلك صديقا حميما لأستاذ زكريا باعتبارهما أبناء مهنة واحدة ، يعتبرا سويا أنهما السبب المباشر لتعرف محمود ابن عم زكريا على أمل ابنة عمة عزت ، و من ثم زواجهما .

على الرغم من عدم بلوغه سن التقاعد بعد قام بتسوية معاشه قبل ثلاثة أعوام لسبب غير مفهوم ، البعض يرجح أن حالة الإحباط العام التي أصيب بها كانت هي السبب وراء ذلك ، حيث كان برما بكل شيء، بينما يرى الخبثاء أن اضطراب العقيدة لديه و اتجاهه إلى الإلحاد رأسا ربما كان هو المسوغ لفعلته ، فقد أصبح لا يستطيع أن يتمالك نفسه من السخرية من بعض الأمور التي تثير حفيظة مجتمع يدين غالبيته بالدين الإسلامي، كيف يروق لهم وجود شخص بينهم تنطلق حنجرته أحيانا بما لا يليق مع مقدساتٍ لديهم؟ كيف يشكك في وجود واجب الوجود، الذات العليا سبحانه و تعالى، كيف يُذكر اسم الرسول محمد أمامه ولا ينطلق لسانه خاشعا بالصلاة و السلام عليه؟

كان الأحرى بعزت أن يحاول تفادي الصدام مع المجتمع ، لكن تمكن عقيدة اللاعقيدة منه كانت تدفعه دون أن يدري أن ينتقد على الملأ كل

ما يراه متنافيا مع العقل و المنطق .

ارتكن بمرفقه الأيسر على باب السيارة المجاور له ليأخذ قسطا من الراحة ، يعلم أن الوقوف في تلك الإشارة سيدوم طويلا ، شعر هذه المرة أن لحفل هذا العام طعما مختلفا ، طعم ذو غصة في حلقه ، خاصة بعد ما حدث بينه و بين الحاج منصور على هامش حفل العام الماضي ، فقد سدد إليه منصور ضربة قاضية في مزاعمه حول مسألة الدين لم ينسها حتى الآن ، بل كان يُخيَّلُ إليه أن ما حدث ليلتها أصبح مادة خصبة للسمر بين كل من استمع الحديث بعد ذلك .

بعد تخرجه و عمله بالتدريس دأب على مجالسة المعلمين الأكبر منه سنا ، و الذين كانوا يدعونه ليشاطرهم الحديث على مقهى شهير بمنطقة غمرة ، من بين الندماء دائمي التردد على المقهى اثنان من فلول الفكر الإلحادي الذي انتشر بشكل موسع في خمسينيات و ستينيات القرن العشرين في المنطقة العربية ، بعد أن اختلط لدى البعض الفكر الشيوعي بأفكار ماركس الرافضة لفرضية وجود إله ، وبطبيعة الحال كان الصراع على أشده بينهما و بين ثلاثة آخرون من ممثلي التيارات الإسلامية التي ذاع صيتها في أوائل الثمانينات .

كما هو الحال دائما لأصحاب القضايا الفكري، حاول كلا المعسكرين استقطاب عزت الشاب الجديد ذو الملامح الهادئة، جسده الضئيل وشاربه الكث يضفيان عليه انطباعا بأنه ممن يفكرون أكثر مما يأكلون.

وجد عزت في بادئ الأمر أن مثل هذه المقابلات مع من يكبرونه سنا

و لديهم حصيلة لا بأس بها من الثقافة و المطالعة تمثل أمرا إيجابيا للغاية ، فكان يستمع أضعاف ما يتكلم ، ساعدته تربيته الدينية على مقاومة أفكار المعسكر الروسي في الجلسة عدة سنوات ، حيث كان مواظبا على أداء الصلوات و فرائض الإسلام كلها ، بل إنه ذهب في شبابه لحج بيت الله الحرام برفقة زوجته بغية أن يكرمهما الله بالذرية الصالحة بعد أن تقطعت بهم الأسباب ، ميسور الحال بعد أن ورث عن أبيه أرضا عالية القيمة ، ساعدته على الزواج المبكر ، و كذا ادخار مبلغ لا بأس به أبدا ، ناهيك عن استثماراته الناجحة بالمضاربة في البورصة.

كان يجلس مشدوها جراء ما يسمعه من حجج و براهين من أطراف أحاديث الجلوس ، يتكلمون في كرة القدم و الفن و السياسة و كل المجالات تقريبا ، لكن الكلام في الدين كان له مذاق خاص ، بعد انضمامه لمجموعة المقهى بجلستين كان هناك نقاشا حامي الوطيس حول ماهية نصر أكتوبر ، أكان نصرا دينيا أم عملا دنيويا أجاد فيه المصريون فكتب لهم النصر ؟

دافع المعسكر الإسلامي بشدة عن فكرة أن النصر لم يأت إلا تحت مظلة الهتاف الخالد : الله أكبر .. الله أكبر .. فامتدت أيدي السماء إليهم بالمساعدة ، و لولا ذلك لما انتصروا على ترسانة سلاح قد تبدو إسرائيلية و لكنها في حقيقة الأمر أمريكية تدافع عن كبرياء قوة عظمى لها سمعتها في سوق السلاح ، لن ترض بحال أن يُكتب في سطور التاريخ عن فشل سلاحهم في أي معركة كانت ، كيف بالله عليكم أن يكون النصر على كل هذا بغير مدد السماء ؟

بينما كانت لدى المعسكر الآخر أدلة دامغة على عدم صحة إدعاء الإسلاميين ، فقال أستاذ وحيد – الذي أصبح فيما بعد مثلا أعلى و قدوة تُحتذى لأستاذ عزت – مستنكرا :

– يا للعجب ، يكتب ربكم النجاح لمسلمي مصر ، بينما لم ينجح مسلمو سوريا في تحقيق أي تقدم في حرب السادس من تشرين الأول ، ربما كان لمصر معزة خاصة لدى الرب .

على هذا المنوال عايش عزت رفقاءه الجدد نَيِّف و أربعون شهرا ، يستمع جيدا ، يحاول أن يحلل ما يسمع ، شاهد بعينيه انتصارات و انكسارات كل معسكر أمام الآخر بالتبادل ، لم يكن بعد قد كون تصورا نهائيا حول إشكالية العقيدة ، إلى أن أمده أستاذه وحيد يوما بحفنة من الكتب لكبار الكتاب الملحدين الذين بذلوا قصارى جهدهم في تفنيد الأديان بوجه عام ، أمثال كريستوفر هيتشنز و ميخائيل باكونين وغيرهما ، على أن عزت لم تستهوه قراءة تلك الكتب أو غيرها في تلك الحقبة من حياته ، فقد كان شغله الشاغل إيجاد حل لمسألة تأخر الإنجاب ، و سعيه المحموم على أبواب كل طبيب يسمع به من أحدهم ، عله يجد عنده ضالته ، إلى أن حدث له ما غير من مجرى حياته تماما ، كان حدثا جللا ، وفاة زوجته و معشوقته ، و هو ما كان له وقعا بغيضا على حياته ، فذابت نفسه ورائها وجدا و انفعالا ، وفاة مفاجئة لم تنم قبلها على أسرَّة المرضى .

كدأبه كل عام قبل بدأ الحفل السعيد ، أعمل محمود جميع خلايا مركز الذاكرة في مخه لتنشيطها بهدف استحضار ذكرى حبه الأول و الحقيقي ، و ربما كان الأخير .

قبل أن يتلوث بفعل الزمن، كان محمود على فطرته البريئة التي لازمته حتى اصطدم بواقع رفض والد زينب زواجه منها ، محمود ليس بالفضولي إلا فيما يتعلق بهذا الأمر، لم يقتنع يوما بالحجة التي ساقها ابن خالة والدته الحاج عرفة لرفض محمود، هل بالفعل كان قد أعطى كلمة شرف للحاج علام والد فهمي زوج زينب الذي صار فيما بعد طليقها؟ وما كان يثير فضوله أكثر هو محاولة معرفة السبب الحقيقي أو ربما كانوا عدة أسباب مجتمعة وراء انفصاله عن زينب، هل يعقل بأن يحوز المرء على كنز مثل زينب و يتخلى عنه تحت أي ظرف؟

سمع محمود صوت أمل يعلو قائلا : آلو .. آلو .. ليصمت صوتها لبرهة قبل أن تعقب : السلام عليكم يا حاجة أنيسة ، تنصت محمود لبداية المكالمة حتى تأكد من أن زوجته تخاطب الحاجة أنيسة زوجة الحاج منصور ، طقس سنوي تمارسه أمل قبل بدء أي حفل خاصة بعد العام ٢٠٠٩ ، حيث أنه منذ ذاك الحين توقفت أنيسة عن مرافقة أسرتها في المجيء لعيد زواج أمل ، فكان على أمل أن تُلح عليها يائسة من قدرتها على إقناعها بالمجيء ، يعلم محمود أن هذه المكالمة تمتد غالبا لدقائق قد تصل إلى العشرين ، و هي فرصة كافية ليختلي بنفسه بعيدا عن أعين جهاز المخابرات المتمرس الموجود بالبيت بقيادة زوجته و عضوية ابنته الكبرى ، استند بكامل جسده بواسطة كلتا ذراعيه على

سور الشرفة النصف دائرية و المطلة على الحديقة و بوابة الفيللا ، صمت للحظات موجها بصره صوب البوابة قبل أن تمر عينيه على الممشى بين جانبي الحديقة ، كان ممشى مكونا من بلاطات إسمنتية سميكة على شكل دوائر متباينة الأقطار ، تسكن الصغيرة منها بين أخواتها متوسطات المساحة ، و التي تفصل بدورها بين الدوائر الكبرى، بين تلك البلاطات كانت هناك فراغات تتخللها أعشاب نامية ، و كأنها قد وجدت مساحة للعيش فلم تتخل عن استغلالها كما ينبغي ، لأشجار الليمون نصيب الأسد من المساحة الخضراء بالحديقة ، فقد كان من تدبير أمل أن تملأ الحديقة بأكثر أنواع الزهور محبة إلى قلبها.

لم يقتنع محمود بضرورة إضاءة أعمدة الإنارة القصيرة ذات ضوء الصوديوم هذا اليوم بالذات ، كانت تصطف في صفين على جانبي الممشى ، قطعا سيقهر نور زينب بمجرد اقترابها أنوار تلك المصابيح الزائفة .

عاد للخلف خطوتين ليلقي بجسده على كرسي هزاز من البامبو ، ما كان يرغب في اهتزاز جسمه و لكنه لم يجد غيره في الشرفة ، قرب من أجفانه لنصف مسافة تلامسهما ، و ضاقت حدقتا عينيه كأنما يتابع في الظلام فيلما سينيمائيا ، كان بطلا الفيلم هو و زينب ، حيث ذهب محمود بصحبة والده لخطبة زينب من الحاج عرفة ، رفعته أمه لعنان السماء قبل مغادرته المنزل ، أخبرته بأن مسألة المقابلة هذه لا تتعدى كونها أمرا روتينيا ، فأنَّى لأبويها أن يجدا لابنتهما زوجا مثلك يا محمود ؟

لم ينس أبدا تفاصيل التفاصيل في تلك الليلة المشئومة و التي تُوِّجت بعودته أدراجه يجر خفي حنين ، اختطفته بغتة ابتسامة عريضة كادت ترتقي لمرتبة الضحك بعد أن تذكر ثورة زوجته العارمة العام الماضي بعد انقضاء الحفل ، صبت جم غضبها على زينب لمجرد قيامها بوضع إحدى ساقيها فوق الأخرى بينما هم جلوس بالبهو انتظارا لحضور باقي الضيوف ، لم تكن ثورتها بسبب أن زينب تصغرها بأربعة أعوام ، فالنساء لا يعترفن من الأساس بفارق السن بينهن ، فمن

المعروف أن عمر المرأة يتوقف غالبا عند سن الخامسة و الثلاثون ، إنما كان لأمل قراءة أخرى للموقف ، حيث رأت أن وضعية ساقي زينب ترسل رسالة لأمل بأنني لا أزال أكثر رشاقة منك ، فأنا لا أبذل مجهودا لأضع قدما فوق أخرى كالبدينات من أمثالك ممن تعانين من الثبات على تلك الوضعية .

لم تكن أمل بدينة ، كذلك لم يكن الفارق بينها و بين زينب بالفارق الملحوظ فأمل ليست دون زينب جمالا ، و لكنها تبقى دوما غيرة النساء، المحرك الأول للشرور في هذا العالم .

جلس عادل بجوار ابنه أدهم الذي كان يتولى القيادة بعد إلحاح والده عليه ، لم يكن أدهم يريد أن يصعد كوبري أكتوبر و لكنه استسلم بعدما أخبره أباه بأن هناك شيئان لا يوجد ما هو أسوأ منهما في الحياة: إلحاح النساء بعد فترة من العلاقة السرية مع الرجل لضرورة تحويل الأمر لزواج شرعي ، و شارع صلاح سالم في مساء يوم الخميس .

ضحك أدهم ضحكة تنم عن كمية المخدرات التي يتناولها يوميا ، أدهم نموذج لمن شابه أباه ، كانا مولعين بالجنس الآخر ، و لكن تفوق أدهم على والده كانت له أسبابه حيث وفرة النقود معه بعدما ابتز أباه بعلمه بخبر زواجه بأخرى دون أمه ، و كذلك عامل السن الذي سيأخذ صف الشاب ذو الأربعة و العشرين ربيعا ، كان لأدهم اهتمامات عدة، فهو يهتم بالبنات و النساء و الحريم و الإناث ، حتى أن زملاءه في الجامعة كانوا يتندرون عليه قائلين إن أدهم لو وقفت على بشرته نملة و تأكد أنها أنثى لتركها تلدغه كما يحلو لها .

توقفت السيارة بعد أن هبطا كوبري أكتوبر ببضع مئات من الأمتار بسبب الزحام غير الطبيعي ، انشغل أدهم بمتابعة فتاة تجلس في ضجر ممسكة بتارة القيادة ، و لسان حالها يسدد اللعنات لمن تسبب في أن تسير سيارتها بسرعة السلحفاة ، لا شك أنها في عصبيتها هذه بحاجة لمن يواسيها ، لم يتحرج أدهم من مداومة النظر صوب الفتاة لوجود والده بجواره ، فالأخير كان منشغلا هو الآخر بمتابعة الحسناوات اللاتي يسرن على أقدامهن ، تنبه أدهم لفعل أبيه ، فلدغه من أذنه قائلا :

- لا ينبغي للآباء أن يتحرشوا بأعينهم بالحسناوات في وجود الأبناء .

ألقى عادل ببقايا سيجارته من نافذة السيارة ثم أفرغ محتوى رئتيه من الدخان في وجه أدهم قبل أن يقول :

- و ماذا يفعل الآباء إذا كانوا يمتلكون جاذبية تفوق ما يتمتع به الأبناء ؟

أنهى جملته بصفعة من يسراه على جانب رقبة أدهم ، الذي استقبلها باسما مرددا في سخرية :

- أية جاذبية تعني يا والدي الحبيب ؟ هل خلت نفسك بعد أن ارتديت سترة شبابية تعلو تي شيرت ذو ياقة على شكل سبعة صرت شابا أيها الكهل ؟

فيكمل له عادل :

- نسيت أيها الملعون السلسلة المدلَّاة من عنقي و التي تغطي بعضا من الشعر الغزير الذي يغطي صدري ، هلا كشفت عن صدرك لتريني بعض شعيراته أيها الأملس ؟ إنك لم تر عادل الزمان الأول أيها الأحمق.

لم تغادر الابتسامة وجه أدهم و هو يستقبل تعليقات والده ، حتى دمدم يقول في صوت أشبه بالهمس :

- كم نعاني معشر الشباب من الكهول أصحاب الحبة الزرقاء ؟

سأله عادل :

- ماذا تقول ؟

- لا شيء .

- أفصح يا فتى .

- لا شيء ، فقط أعجب لأمرك يا والدي ، فلديك قطعتان من اللحم المقدد ، و ما تفتأ تبحث عن الثالثة .

- أي قطعتين تعني ؟

- زوجتاك ، أنسيتهما ؟

- ليس بعد ، فهم أثقل على قلبي من أن أنساهما بسهولة .

يقول أدهم متهكما :

- خلتك نسيتهما يا أبي بعد أن تسببا في تساقط شعرك .

كان يقولها بينما كان يخلل شعره بأصابعه ليكيد أباه ، على الرغم من كونه أجعد إلا أنه كثيف ، و بدلا من أن يرد عليه عادل بالقول ، قرر أن يرد بالطريقة التي اعتاداها في تعاملهما ، فصفعه ليلتزم الصمت باقي الطريق .

لمستوى الحوار بين عادل و ولده دلالته على مدى انهيار القيم في تلك الأسرة ، فعادل نموذج لرجل استغل فترة الانفتاح كما ينبغي ، للخمر مكانة مرموقة ضمن اهتماماته ، لم تكن زوجته السرية هذه أول مغامراته ، و لعلها لن تكون آخرها ، فهي الرابعة بين زوجاته في الترتيب الزمني ، تخلص من اثنتين منهما بالطلاق قبل أن يفتضح أمره لابنه في الزيجة الأخيرة .

أما أدهم فكان سعيدا نسبيا بغياب أمه عن حفل هذا العام ، لتجنب ما أحدثته بفخذه من لدغات لتنبيهه لعدم تجاوز الأدب تجاه النساء في تلك الجلسة العائلية في حفل العام المنقضي .

لا تلق الحفلات من هذه النوعية حفاوة من عادل ، و لكنه كان يحاول التودد إلى محمود ، الرجل ذو العلاقات الناجحة مع أهل السلطة أيام الحزب الوطني و فترة حكم الأخوان المسلمين و كذلك عقب ٣٠ يونيو، كان محمود متلونا ماهرا ، و هو ما كان ينقص عادل ليعاود الوقوف على قدميه من جديد بعد حالة الركود الكبير الذي أصابت السوق إثر الأزمات الاقتصادية المتتالية التي نالت من البلد آخر ستة أعوام ، لا مانع إذن من الظهور في كادر الاحتفالية ، و إن كانت تخلو من الخمر والنساء ، لكن الأمر يستحق التضحية الجسيمة من عادل للوصول إلى مبتغاه ، و هو الأمر الذي سيشرك زوجته فيما بعد فيه ، للاستعانة بخبراتها في تحقيق الهدف المنشود .

من الصعب أن تجد أمل أكثر رقة و عذوبة في الحديث يوما مع أحد كما تكون عندما تتحدث إلى الحاجة أنيسة ، بل إنها كانت لا يروق لها أحدا من عائلة محمود بالكلية سوى زوجة الحاج منصور .

أنيسة امرأة محبة للجميع، ليس بوسع أحد تعامل معها ولو لمرة أن يُكِن لها سوى كل الود و الاحترام، غير ثرثارة، لا يجد الحسد لقلبها سبيلا، تعرفت إليها أمل بعد زواجها بمحمود مباشرة بعد أن اصطحبها زوجها منصور كي يزورا العروسين الجديدين ليهنئانهما، توطدت علاقتهما مع الوقت حتى سارت أنيسة مستودع أسرار أمل ، بل إنها شهدت يوما حدثا تاريخيا لا يتكرر كثيرا، و هو انهيار أمل بالبكاء أمامها.

ذهبت أمل ذات صباح لتباغت الحاجة أنيسة في منزلها ، طرقت الباب بمعدل و قوة دلَّا مسبقا على انفعالها الشديد ، كان ذلك بعد أحد عشرة شهرا من زواجها ، فتحت أنيسة الباب فارتمت أمل في أحضانها تجود عيناها بفيض من الدموع المختزنة لسنوات في مقلتيها ، لم تكن أمل بالمرأة كثيرة البكاء ، على خلاف سائر بنات جنسها ، فإذا كان يعاب على الرجال بكاءهم أمام غيرهم ، فإن من شيم النساء الإفراط في البكاء ، لكن أمل ليست ككل النساء .

تربيتها في بيت واحد بصحبة زوجة أبيها كان هو المكون الأساسي لشخصيتها ، لم تكن تلك المرأة التي أعقبت أم أمل في حياة أبيها بعد وفاة الأخيرة بالمرأة شديدة التسلط كما هو متعارف عليه عادة ، و لكنها الغيرة المتبادلة بين زوج من النساء تتنافسان فيما بينهما على

رجل واحد تظن كلتاهما أنها تمتلكه دون الأخرى ، حتى و إن اختلفت طبيعة العلاقة ، فشتان بين إحساس الزوجة تجاه زوجها وشعور الابنة نحو أبيها ، إنما كان لطبيعة أمل الصدامية مردودا قويا على تهويلها لأي فعل يصدر من زوجة أبيها .

لعل ذلك ما دفع أمل للموافقة مسرعةً دون تروّي على الزواج من محمود بمجرد أن تقدم لخطبتها ، أعدت العدة لاستقبال حياة جديدة تكون هي فقط فيها الآمرة الناهية ، تحقق لها ما أرادت ، فلقد أحكمت السيطرة التامة على محمود الذي تخلى طوعا أو كرها على مقاليد حكم البيت إن لم يكن حياته كلها لأمل ، لكنها سرعان ما أدركت أن سعادتها لا و لن تكتمل إلا بأن تحوز على سلسلة مفاتيح قلب زوجها، فتدخله و تحكم إغلاقه دونها ، كان إدراكها لوجود إحداهن في قلب محمود له وقع الصاعقة على قلبها .

قبل انقضاء عام على زواجهما ، و في ليلة ليلاء ساعدتها حرارة الجو في التخفيف كل التخفيف من ملابسها ، الأمر الذي أثار حواس محمود فتهيأ متجها إليها ، كانت ليلة غريبة من مطلعها حتى نهايتها، فمحمود كان يجلس شاردا كعادته ناظرا للتلفاز ، شروده هذه الليلة كان مبالغا فيه ، بدا و كأن أمرا ما يشغل تفكيره ، حتى أنه بالرغم من تركيزه في الشاشة لم يتحفظ على سرعة انتقال أمل بين القنوات المختلفة ، لكنها و بخبث أنثوي قررت تغيير مسار الليلة من ليلة عادية إلى ليلة سعيدة .

قامت بدعوى الحر الشديد لتبديل ملابسها بأخرى ، ارتدت أبهى

ما لديها من القمصان المعدة للنوم و التي تكشف أضعاف ما تستر ، رآها محمود فراح يحملق فيها ، لم يبادر بعد بأخذ زمام المبادرة ، فما كان منها إلا أن راحت تتلوى و تتمايل بجسدها المشوق على الأريكة التي كانت قد ألقت بجسدها عليها قبل دقائق ، كانت تتلفظ بكلمات تبرر من خلالها حركاتها المثيرة ، و كأنها ترنو لأن تنفي عن نفسها شبهة أنها شَبِقة : يا للحر الشديد ، كدت أن أكون مسلوقة ، تهمهم بكلماتها دون النظر لمحمود المسكين الذي كانت على يقين من أنه يراقبها و يرصد أفعالها المثيرة ، اندفع محمود بغتة نحوها حاملا إياها بين ذراعيه ، و هو الأمر الذي لم يتكرر منذ ليلة زفافهما ، ألقى بها على سريرهما ، انطلقت ضحكة خليعة مدوية من أمل بمجرد ما حملها محمود ، ضحكة من اعتلت منصة التتويج بعد انتصارها ، انتصرت أمل لأنوثتها ، تساءلت دون إصدار صوت بمجرد إلقاء محمود إياها ع : لماذا يشكو الناس حر الصيف ؟ آه لو يدركون ما له من فوائد .

كان محمود ليلتها شِبِقا نهما لأبعد الحدود ، لم يقدم نفسه لأمل من قبل على هذه الشاكلة ، حتى أن أمل كانت تراقبه بين الفينة و الفينة فتجده مغمض العينين ، بدا و كأنه قد بلغ من الاستمتاع حدا جعله لا يريد أن يفوق من حلمه الوردي فأطبق عينيه حفاظا على استمرارية الحلم الذي لا يرغب أن تكتب له النهاية أبدا ، كادت أنفاسه التي تخرج من صدره ملتهبة أن تحرق جلدها ، ما إن وصلا لأوج السعادة و قبل قليل من بلوغ النشوة المنشودة ، زاد محمود من ضغط جفنيه واحدا فوق الآخر ملقيا برأسه على صدر أمل مرددا بصوت مبوح لم يخرج من

لسانه ، إنما صعد مباشرة من سويداء قلبه ليخترق أذني أمل :

– كم أنت رائعة يا زينب .. أحبك .. أحبك .

كان بين اسم زينب و لفظتي أحبك تنهيدتان عميقتان ، سمحتا لأمل بأن تستوعب جيدا ما تسمعه لأول مرة ، كلام بطئ تخترقه تنهيدتان ، لا بد و أن الأمر ليس بالحلم ، نعم إنه حقيقة لا محالة .

استحالت عينا أمل بمجرد وقع اسم زينب على أذنيها من عينين مغلقتين هائمتين في عالم آخر موازي لعالمها الحسي، إلى عينين مفتوحتين عن آخرهما ، صمتت لبضع ثوان في محاولة لاستيعاب الموقف، ما لبثت أن دفعت محمود براحة كفها الأيمن في ذقنه دفعة قوية أشبه باللكمة جعلته يتنبه من غفلته لينظر إليها في دهشة متسائلا:

– ماذا دهاك يا حبيبتي ؟ هل آلمتك دون أن أدري ؟

– لا يصح للرجل أن يضاجع زوجته إلا إذا كان يعرف على الأقل اسمها .

حرك وجهه يسارا بزاوية حادة و قطب حاجبيه ليتساءل من جديد:

– لا أفهم ما تعنين ، هلّا أَبَنْتِ أكثر من ذلك ؟

احتفظت بنظرة الامتعاض الملازمة لعينيها و أجابت بسخرية :

– لو كلفت نفسك عناء البحث في حقيبة يدي عن هويتي و اطّلعت عليها ، لعملت أن اسمي أمل و ليس زينب .

بمجرد أن انتهت من النطق بحرف الباء ، آخر الحروف في اسم زينب حتى انتبه محمود لفعلته الشنعاء ، أحنى رأسه لآخر جهدها في الانحناء ، ضاما شفتيه لبعضهما بقوة ، مغمضا عينيه هربا من

مواجهة عيناها ، كادت أسنانه أن تتحطم من فرط ضغط صفيها الأعلى و الأسفل على بعضهما البعض ، أزاحته بكلتا ذراعيها بعيدا لتتمكن من مغادرة السرير رأسا إلى الحمام ، استسلمت للمياه الغزيرة التي أمطرها بها الدش و هي تستند بكفيها على السيراميك المغطي لحائط الحمام ، قضت وقتا قياسيا تحت المياه ، لا تدري إذا خرجت ماذا تفعل مع محمود ، قررت أخيرا بعد أن أنهكها التعب أن تنهي هذا الدش البغيض لتخرج و تنام دون مناقشة أو عتاب ، ليس الآن فحسب ، و إنما للأبد ، فالمعاتبة في نظرها حال من الذل و الصغار .

كذلك لا داعي لأن تجعل زينب هذه تنال من كرامتها ، فهي و إن كانت غائبة عن الحدث بجسدها فمن المؤكد أنها حاضرة و بقوة بروحها ، لن تعطي أمل الفرصة لزينب للشماتة ، نعم .. ستحرمها تلك الفرصة ، فأمل على حالة من القوة و التؤدة و الذكاء لا عهد للنساء بها .

خرجت لتجد محمود مرتديا سرواله فقط ، واقفا بين هالة من الدخان دلت كثافتها على أن تلك السيجارة الممسك بها بسبابته ووسطاه ليست بالأولى منذ أن توجهت للاستحمام ، كان شاحب الوجه على غير عادته ، لم تبال كثيرا بالأمر ، تفرغت لارتداء ملبس لتنام فيه و إن كان غير مناسبا لحر الصيف الذي لم تعد الآن تعاني منه ، حيث أن ما بداخلها من نيران يتفوق حتما على حرارة الجو الخانقة ، فماذا يُنتَظر إذن من خفيف الملابس أن تفعل ؟

حررت جسدها ليفترش أقصى طرف السرير ، لتتجنب أن تنام لصق الرجل مسندة إياه على جانبها الأيمن معطية ظهرها للمكان

المخصص لنوم محمود ، الذي توجه نحوها في خطوات حذرة ، و ما إن وضع يده على أعلى ذراعها العارية حتى ارتعشت و قلّصت من حجم جسمها للابتعاد عن يده ، في إشارة له للكف عن ملامسته لها .

- حبيبتي .. إن الأمر لا يعدو كونه ...

قاطعته مسرعة رافعة ذراعها الأيسر لأعلى في إشارة له للتوقف عن استكمال الحديث :

- لن يكون ما حدث منذ قليل مادة للنقاش بيننا يوما ما .

- حبيبتي لعل الأمر ..

- أنا جادة فيما أقول، نم الآن، و إن لم تفعل فعلى الأقل اتركني لأنام .

لم يكن الحاج منصور من هواة حضور الحفلات ، لكنه كان مواظبا على حضور حفل محمود و أمل ، حيث كان يرى فيه فرصة وطقس مناسب لتجميع أفراد العائلة ، الذين باعدت بينهم أقضية الحياة، منصور رجل تجاوز الرابعة و الستين من العمر ، ابن عم محمود ، يعده أفراد العائلة كبيرهم ليس فقط سنا ، و إنما مقاما وحكمة أيضا ، نزل من قطار التعليم عقب محطة الثانوية العامة و لم يتجاوزها لما هو أبعد من ذلك ، لكن دعنا نقول أنه أفاد من التعليم – عندما كان في مصر تعليم بحق – بشكل ربما يفتقر إليه السواد الأعظم من خريجي الجامعات في أيامنا هذه ، لم يتوقف عن التعليم لفشله و إنما ليتفرغ لمساعدة والده في إدارة أعمال ورشة إصلاح السيارات بالمنيرة حيث كان و ما يزال يقطن في بيت العائلة الكبير ، كانت ورشة كبيرة أشبه بمؤسسة .

لم يكن لمنصور خبرة تذكر في أعمال الميكانيكا ، لكن الأمر كان يتطلب مديرا للمكان و ليس فنيا ، نال رضوخ منصور لرغبة والده استحسان الجميع حيث كان بإمكانه الرفض للالتحاق بكلية مرموقة لإتمام تعليمه الجامعي خاصة بعد تحصيله مجموعا مميزا في الشهادة الثانوية ، لكن منصور كان قد استغل سنوات تعليمه على أفضل وجه ، كون شخصيته كما ينبغي ، كان له رجاحة عقل تجعل منه قبلة لمن أراد أن يستشير شخصا محل ثقة في أمر ما أهمه ، كما كان يعرف متى يتكلم و متى يلتزم الصمت ، فإذا تكلم كان له صوتا جليلا هادئا وقورا يجبر الجميع طواعية على الإنصات إليه ، و الاستفادة من تجربته الشخصية

في الحياة ، ربما كان لجمعه بين التعليم الأكاديمي في مدارس الدولة والتعليم في مدرسة الحياة أثره البالغ في تكوين شخصيته الثرية ، فهو كما يطلق عليه : ابن سوق متعلم .

كذلك أتاح المجال لأخيه عاصم كي يكمل تعليمه الجامعي، فالتحق الأخير بكلية الحقوق ليعمل فيما بعد بالمحاماة و يبرز فيها، حتى لقب بين زملاء دفعته بالحاوي ، لتمرسه جيدا على كسب أعتى القضايا بطرق غير تقليدية ، و بأسلوب لا يستطيع مجاراته الكثيرون .

لذلك فإن كان منصور هو مستشار العائلة في المسرات، فإن عاصم فهو مستشارهم دوما في المصائب و العثرات ، حيث كان معروفا بأنه إلى جانب دهاءه و حنكته الشديدة أنه كان كاتم أسرار من الطراز الأول، و كأنه قد تأثر بمتطلبات بمهنته التي تلزمه بحفظ أسرار الموكلين تحت أي ظرف و أيا كانت خطورتها .

ما أشبه منصور بزوجته في خصالها الحميدة ، فهو ودود ، يحب الخير للآخرين ، ربى أبناءه على مبادئه فأحسن تربيتهم ، انفصل عنه ابنه الأكبر علاء بعد زواجه بقليل و شجعه منصور على المضي قدما في قراره ، لم يعارض اتجاه ابنه لفتح ورشة مستقلة في منطقة الأزهر، وساعده قدر استطاعته في إنجاز مهمته.

يغيب علاء عن حضور حفل هذا العام ، كما غاب عن الحضور آخر ست سنوات ، ليس لسبب يعاب عليه و إنما لأنه الآن يرقد شهيدا بين يدي اللّه ، الأمر الذي نال من صحة منصور الرجل الرياضي القديم، الذي نادرا ما كان يرتاد عيادات الأطباء ، فأصبح الآن زبونا مميزا

للغاية ، تتنافس الصيدليات المجاورة لمنزله على خطب ودّه و توفير احتياجاته ، فهو يذهب عادة كل أسبوعين للصيدلية ليبتاع زوج من الأكياس الملئى بالأدوية ، أحدهما يخصه و الآخر لزوجته أنيسة ، والتي غابت بدورها عن الحضور للحفل بعد أن قامت بما يشبه اعتزال الناس عقب وفاة ولدها الأكبر ، يمكن القول أن وفاة ولدهما ضعضعت كيانهما، و نالت منهما أي نيل .

لم يعد هناك ما يدخل السرور على قلبي منصور و أنيسة عدا رؤية حفيدتهما التي خلفها لهما علاء ، و التي كانت تشبه الفقيد إلى حد التطابق .

لم تعد السيارة تزدحم كما كان الأمر قبل ذلك بعائلة منصور ليلة ذهابهم لحضور حفل التجمع الخامس السنوي ، بل توقف الصراع الحتمي بين علاء و وليد أخوه الأصغر لمحاولة نيل شرف قيادة السيارة، فالآن وليد يقود تكليفا و ليس تشريفا ، كذا لم تعد رقبة منصور تؤلمه كما كانت من قبل ، حيث كان دائم الالتفات للمقعد الخلفي محدثا ومجيبا أنيسة على ما بدا لها من خواطر و أخبار .

التفت وليد يمينا قائلا لوالده :

- أيُّ مفاجأة هذه يا والدي ؟

- أية مفاجأة تعني يا وليد ؟

أجاب وليد :

- أن يكون شارع قصر العيني غير مزدحما مساء الخميس ، ألا ترى أنها مفاجأة من العيار الثقيل ؟

يلتقط منصور طرف الحوار ليفتح مجالا للتحدث بما يريد الخوض فيه :

- ربما كان من حسن الطالع أيها العريس المنتظر .

- عريس ؟ .. أي عريس ؟

نظر منصور لابنه من فوق نظارته و أردف :

- نفس السؤال الذي يتكرر دوما منذ صرت شابا يافعا و محط أنظار حسناوات العائلة يا بني .

- عذرا والدي ، فلم يعد في العائلة بعد حسناوات لسن متزوجات .

- نعم إنه كذلك ... اممممممممم ..و لكن يمكننا القول أن هناك استثناءا واحدا .

- حقا ، أتفق و بشدة ، لكن ربما لا يتسع الاستثناء لاستيعاب فارق الثمانية أعوام .

تابع منصور :

- إذا توافر الاقتناع المتبادل المغلف برغبة العائلتين ربما اتسع الاستثناء لما هو أبعد من ذلك .

- ما هو أبعد من ذلك ؟ أتعني أن أتزوج البنت و والدتها ؟ لا يا والدي فأمها متزوجة .

تجاوب منصور بضحكة مصطنعة مع دعابة ابنه ، بدا و كأنه فهم رغبة وليد في تغيير دفة الحوار الذي لا يلق هوىً لديه ، فعقب قائلا بصوت يملؤه الشجن و الرجاء :

- سأحقق لك مرادك يا ولدي بإنهاء الحديث حول هذا الأمر ،

و لكن ختاما ينبغي أن تعلم جيدا أنني و والدتك لم نكن يوما لنقف عائقا أمام تحقيق سعادتك ، و نحن ننتظر ببالغ الشوق يوم أن تأتي لخبرنا برغبتك في الزواج من إحداهن ، فنحن في أمَس الحاجة لما يدخل السرور على قلبينا المنفطرين ، بعدما غابت شمس السعادة عن سماء حياتنا بمغيب أخيك علاء رحمه الله عن عالمنا .

بدت علامات التأثر على محيا وليد فقال لوالده دون أن تبرح عيناه متابعة الشارع الذي بدا في طريقه لبداية الزحام :

- أعلم يا والدي .. أعلم ذلك جيدا .

لم تتغير حياة مدام زينب كثيرا بعد الطلاق ، كل ما استجد أن انقطعت المراسلات و الاتصالات الإلكترونية عبر الإنترنت مع طليقها أستاذ فهمي الذي يعمل محاسبا في إحدى المؤسسات الحكومية في دولة الكويت .

ليس هناك سببا بعينه يمكن اتخاذه كذريعة لهذا الطلاق المفاجئ، الذي هز أركان العائلة ، فزينب لديها ولدان و بنت يعيشون جميعا معها بالقاهرة ، بعدما أنهت إجازتها الطويلة لمرافقة زوجها في رحلة الخليج الأولى و الثانية ، لكنها حرصت بعد ذلك أن تضمن لأولادها ألا يفقدوا هويتهم ، فما أن تجاوز التوأمان الكبيران المرحلة الإعدادية حتى اصطحبتهم بصحبة أختهم التي تصغرهم بخمسة أعوام لإكمال دراستهم الثانوية و من ثم الجامعية بالقاهرة ، ذلك القرار الذي لم يلق قبولا لدى فهمي ،و لكنها كأم كانت أقرب لأولادها و كانت تستشعر خطورة تطبعهم بعادات غريبة عن مجتمعنا ، حتى و إن جاءت عبر بلد عربي شقيق ، تمسكت برأيها المدعم كذلك برغبة جماعية من أولادها ، و عادت لمسقط رأسها بالقاهرة لتعاود عملها بالجهاز المركزي للتنظيم و الإدارة ، لتجد نفسها مرؤوسة ممن هم دونها سنا ، تقبلت الأمر بصدر رحب ، فما عساها أن تفعل وهي تدرك جيدا أن مثل هذا الأمر هو أحد ضرائب الغربة المريرة.

استيقظت ذات صباح لتجد زوجها قد بعث إليها برسالة مختصرة للغاية، ارتدت نظارتها لتتصفح الرسالة عبر هاتفها الذكي لتجدها نصا كالآتي :

- زوجتي العزيزة ، أرى أنه بعد مضي عامان على انفصالنا للعيش كل في بلد ، ليس من الضروري أن نستمر كزوجين ، ما رأيك بأن ننفصل رسميا في هدوء و تحضر ؟

كان للرسالة وقعها المتوقع من إحداث الدهشة ، و إرسال كم لا محدود من التساؤلات حول ماهية ما حدث ليدفع زوجها لاتخاذ مثل هذا القرار المفاجئ ، و لكنها قررت بأن ترد عليه ردا موجزا أيضا ، بل و تفوقت عليه في الإيجاز ، حيث كان ردها عبارة عن سبعة أحرف مقسمة على كلمتين :

- بكل سرور .

ثم قالت لنفسها مسرية عنها أمر الطلاق :

- و هل طابت حياة من احتفظن بأزواجهن ؟

ربما كان لبعد زينب عن فهمي لسنتين أثره الإيجابي في تخفيف وقع الطلاق عليها ، فكان أشبه بفترة للتدريب على الفراق ، فإن سقوط أحدهم من الطابق الثاني لبناية ليس كما لو كان السقوط من الطابق الخامس ، و هو ما حدث معها بالفعل .

لم تكن سعيدة يوما بصحبة فهمي ، كما أنها لم تكن تعيسة كذلك ، علاقتهما كانت تمثل نموذجا رائج الشيوع في الزيجات بمصر ، اثنان تزوجا بصورة تقليدية ، سرعان ما انشغلا بتربية ضيوف الأسرة الجدد من الأطفال ، خاصة بعد إنجاب زينب للتوأم انشغلت بأمرهما كثيرا حتى كادت بل نسيت بالفعل اهتمامها بما دون ذلك .

لا تمتلك تلك الملامح القياسية التي يتخذها الكثيرون مقياسا

للجمال ، فقد كانت بشرتها خمرية اللون ، شعرها متوسط النعومة ، عيناها سوداوان ضيقتان ، لها أنف أشبه بالأنف الآيرلندي الأفطس ، يمكن القول أن وجود فلجة بين صفي أسنانها العليا مع استدارة وجهها قد أضفيا عليها جمالا إضافيا ، حتى صارت جذابة بشكل ملحوظ ، تغار منها النساء اللواتي كن يبذلن مجهودا ذهنيا بالغا لمعرفة سر جاذبية هذه المرأة ، حتى أن حقد زميلاتها عليها قد تسبب أن رمينها بالإشاعات عن عمليات تجميل محتملة ، فحسبها أن يُرى وجهها مرة واحدة كيلا ينسى بعد ذلك أبدا .

لديها حس فني عالي يساعدها كثيرا في انتقاء ألوان ملابسها، كانت لا ترتدي مثل إحداهن ، بل لم تنْسَق يوما وراء متطلبات الموضة، إنما كان لها ذوقها الخاص ، ترتدي ألوانا ربما ليس من المتعارف عليه تناسقها مع بعضها البعض ، و مع ذلك تكون عليها شديدة الرقي و البهاء ، شخصيتها المتزنة و ثقتها بنفسها كانا يساعدانها كثيرا في تجاوز نظرات قريناتها من النساء ، غريبة الأطوار للبعض كما كانوا يرونها ، ربما كانت على هذا النحو بالفعل ، حتى أنها ليلة إتمام طلاقها جلست على سريرها و قد أسندت رأسها على ركبتيها اللتان أحاطتهما بذراعيها لتجنب أن تفلتا ، حدثت نفسها بعبارة انتزعت منها ضحكة خلدت بعدها للنوم ، حيث قالت :

– إذا كان للطلاق فائدة ، فمن المؤكد أنها التخلص من شارب فهمي الخشن الكثيف ، الذي طالما آلمني أثناء تبادل قبلات ما قبل الحدث الأكبر .

أطرق أستاذ عزت يتذكر حادثة العام الماضي ، ضربة موجعة من الحاج منصور وجهت بإحكام لشخصه ، لم يتمكن من الإفلات منها ، الأمر الذي دعاه لأن يراجع نفسه بشأن حضور حفل هذا العام ، لكنه أخذ قراره النهائي بعد طول تردد بالمجيء .

كان يجد لذة كبيرة في مناقشة الآخرين في أي تجمع حول مسألة الدين ، مستغلا ما لديه من حصيلة قراءة استمرت لأعوام ، طابور طويل من الحجج و البراهين يسوقها لعقل من يجادله ، تهدف جميعها لنبذ فكرة الانصياع وراء أوهام الميتافيزيقا القائلة بوجود رب لهذا الكون ، طالما استغل ضحالة فكر الكثيرين في أن يكسب العديد من الجولات الحوارية معهم ، و كان لهذا اللقاء العائلي مكانة بارزة ضمن اهتمامات عزت ، فصال و جال طيلة نصف ساعة كاملة ، يسدد الفكر الإلحادي يمنة و يسرة دون رادع ، حاول البعض من الحضور بعد انتهاء المونولوج الأول أن يحيل الحوار من متكلم و مستمعين إلى حديث يتبادل أطرافه الجميع ، و هو عين ما كان يرجوه عزت ، فجلس جلسة المعلم من التلاميذ ، يجيب هذا بعينين مليئتين بزهو الانتصار ، يشير لأحدهم بالتوقف عن الكلام حتى يفرغ زميله من التعبير عن مراده .. و هكذا .

كانوا جميعا جلوسا على الفوتيه غريب اللون الذي يتوسط البهو في فيللا محمود ، بطانته مريحة أيما راحة ، غطاءه الوثير له لونا يضرب ما بين اللون الفيروزي و التركواز ، متداخل بخيوط مائلة مع أفتح درجات اللون الكحلي ، و قد زُيِّنت القطع الخشبية الظاهرة منه بلون أسود غير لامع تتخلله تجاويف محفورة بدقة في قلب الخشب أخذت

لونا متناسقا مع لون الفرش الخارجي للفوتيه ، و هو ذات لون ستائر الأورجانزا المدلاة خلف مجلسهم و الذي حرصت أمل على البحث عنه طيلة أربعة أشهر كاملة ، مصطحبة معها سالي المسكينة بعدما تململ محمود و من وراءه رشا من كثرة التردد على محال بيع الستائر ، كان كل ذلك ضمن حملة تغيير ديكور و أثاث الفيللا قبيل عامين من الآن ، كانت هذه الحملة الثانية و قد سبقتها حملة أخرى قبل ست سنوات بعد انتقالهم من مسكنهم القديم في المنيرة إلى فيللا التجمع بثمان سنوات ، طليت جدران شقتهم بالفيللا باللون الأبيض مع تغطية أحد الجدران بالكامل بالزجاج المزركش ، فزادها اتساعا على اتساعها ، بالبهو صورة كبيرة تناطح السقف لغزال يجري وراء فهد ، على عكس العادة ، و هو ما كان يشعر محمود أحيانا بأنها مسألة مقصودة ، و ليست مجرد خيال فنان ، أصبحت الفيللا مؤثثة بأثاث أنيق يرضي طموحات و ذوق أمل ، و يخرس الألسنة الحداد التي من الممكن أن تتربص بأي سقطة .

بعد أن انتهى عزت من إنهاء محاضرته المتقنة في فن تفنيد المعتقدات الخاطئة ، قرر مشكورا منح الحضور شرف مناقشته فيما يروق لهم من أفكار ، بدأه أستاذ عادل و قد بدا عليه الضجر من الحديث في مواضيع لا تروق له كثيرا ، حاول إثناءه عن الميل بالحوار لهذه الوجهة :

- ألا ترى يا عزت أن بوسعك الحديث في أمور أخرى تكون أكثر تشويقا و أهمية من موضوعك الذي لا تمل من تكراره مرارا ؟

- لا يا عزيزي ، ليس هناك أكثر أهمية من مناقشة ما يدعو الإنسان أن يترك فراشه في ليالي الشتاء الباردة ليتوضأ بماء شبه مثلج ، فيقف

بعدها خاشعا ذليلا أمام من لا يرى ، و من لا يوقن بوجوده .

حاولت أمل قريبته أن تنفي شبهة الإلحاد عن عائلتها ، فسألته محاولة ردعه :

- هل تأمن يا عزت أن تنام ليلتك فتصبح في عالم آخر ، لتفاجئ بوجود اللّه سبحانه عين اليقين ؟ هل تأمن عذابه آنذاك ؟

لمعت عيناه ببريق التحدي قبل أن يجيب :

- و ما لي لا آمن ذاك ما تتوعدينني به و قد آمن من هم أعتى مني، ألا ينام زعماء الدول التي تضطهد المسلمين و تذبّحهم ؟ أتعلمين كم في مصر من قاتل مأجور و كم مغتصب للنساء و كم و كم و كم ، هل خِلتِ أنهم لا ينامون ؟ على العكس إنهم ينامون نوما عميقا لأنهم تخلُّوا عن فكرة الخوف من أي شيء ، أين انتقام الرب منهم إذن ؟

- أنصحك يا عمي بأن تبقى في فرنسا و لا تعود لمصر لتتجنب العديد من المشاكل التي أنت بصدد مواجهتها إن لم تكف عن البوح بمعتقدك علانية .

قالتها رشا بهدوء و ثقة كما لو كانت أمل هي المتكلمة ، فابتسم لها عزت الذي لم يبال بردود و نظرات الحاضرين تجاه أفعاله ، فلم يكن يتوقع غير ذلك ، قال بحماس فائر :

- ماذا .. أتريدين أن يحتفل محمود و أمل بعيد زواجهما دون حضوري ، هل هذا يليق يا محمود ؟

لم يجد محمود الفرصة لكي يرد على دعابة عزت بعد أن علا صوت عادل متسائلا :

- أستذهب لفرنسا قريبا يا عزت ؟

- نعم ، فأنت تعلم أن محاولاتي لإنجاب طفل في مصر لم تتوج بالنجاح ، حتى دلنا أحدهم على مركز متطور للغاية في مسألة التلقيح الاصطناعي في مدينة نانت غربي فرنسا ، بعد نجاح العملية صرنا أنا و زوجتي نستبشر خيرا بهذا المكان ، فقررنا أن تكون الولادة في نفس المركز ، لذا فقد أنهينا إجراءات السفر و سيكون مطلع الشهر القادم .

قالت رقية :

- بإذن الله .

فأسرع عزت :

- حتى و إن لم يأذن .

نظرت رقية بدهشة صوب زوجها زكريا ، و قد أحست بأن هناك إهانة موجهة لها من هذا الرد البغيض ، بينما هم وليد أن يعلق مستنكرا على ما قد قيل ، بيد أن أباه قد استوقفه بنظرة وقورة يعرفها وليد جيدا .

حاولت أمل أن تفوت الفرصة على أي منغص لجو الحفل ، فقطعت الثواني الصامتة التي أعقبت تعليق عزت على دعاء رقية لتقول باسمة :

- و لا مانع إذن أيها ال عزت الماكر من أن يحمل الولد الجنسية الفرنسية .

- من المؤكد أنه سيتمتع بمزايا إضافية تنقله من خانة المواطن المصري لخانة الإنسان .

أجابها عزت بسرعة و كأنه يحاول أن يصلح ما أفسده لسانه ، فقرر

معاونة أمل في فتح آفاق أخرى للحوار ، و لو مؤقتا ، علة يخفف من حدة الاستنكار قليلا ، سألته زينب بعين لا تخلو من الفضول :

- هل علمتم نوع المولود يا أستاذ عزت ؟

أجابها مبتهجا :

- ولد يا زينب .

ثم خفض عينيه قائلا في حزن :

- كم كنت أتمنى أن يكون ولدي هذا من سامية .

تبادل الحضور نظرات مشتركة تحمل الكثير من الشفقة لأجل عزت الذي لا يزال يذكر سامية زوجته الراحلة .

علقت سالي :

- كم هو جميل يا عمي أن يحتفظ الرجل بالوفاء لزوجته حتى بعد رحيلها .

- هل تعلمين يا سالي أنني كثيرا ما أقلّب في ذكرياتي حتى أعثر على عيب كان في سامية يساعدني على نسيانها ، فتبوء محاولاتي كالعادة بالفشل .

رمقته أمل بابتسامة خبيثة ليست في واقع الحال موجهة له هو ، إنما لتدغدغ مشاعر محمود زوجها و هي تقول :

- قليل يا عزت من هم مثلك من الأوفياء .

ابتلع محمود ريقه بصعوبة ، فيما انطلق عادل ليقول :

- ألم تتزوج بواحدة من صغار الإِوَز أيها الطماع ؟ تصغرك ببضع و عشرون عاما ، و تركت لنا نحن عتيقات الدواجن .. محظوظ أنت يا عزت .

- لم أتزوجها إلا بغية الإنجاب يا عادل ، بدليل أنني ظللت سنوات بعد رحيل سامية أعزب ، و لكن تقدم العمر بي جعلني و بعد طول تفكير أتزوج من فتاة في نصف عمري ، و قد تحقق ما أردت .

بادرته رشا ثانية :

- كنت أتمنى يا عمي أن أواسيك بأن أقول أن المرحومة سامية تشعر بك الآن ، و هي سعيدة لأجلك ، و لكنك رافض من الأساس لفكرة وجود عالم آخر بعد الموت .

أعادت مقولة رشا قطار كلمات عزت لمساره القديم ، فتذكر أنه أمضى بضع دقائق دون أن يناقش أحدهم في الدين ، لينطلق مجددا :

- وجود عالم آخر مرتبط في الأساس بوجود حساب و عقاب ، ووجود حساب و عقاب مرتبط بدوره بوجود إله ، و وجود الإله كذلك يستلزم أن يكون حكيما ، فأي حكمة تعتقدين في ما فُعِل بي يا ابنتي ؟ أكون ملتزما بكل تعاليم الإسلام فيعاقبني الإله بعدم الإنجاب ، فأصبر ليحرمني بعد ذلك من توأم روحي سامية دون سبب واضح ، و لما أنكر وجوده وأكف عن عبادته يكافئني بأن يكون لي ولد وأنا في مثل هذا العمر ، عكس ما حدث تماما مع من تطلقون عليه نبي الله زكريا ، هو آمن فرزق بمولود و أنا كفرت فرزقت بمثله ، أين سنة الله إذن و قد حدثت نفس النتيجة مع نقيضين ؟ إلا إذا كنتم لازلتم تؤمنون بالمعجزات و الخوارق .

خرج الحاج منصور أخيرا عن صمته ، ربت على فخذ عزت الذي كان يجلس إلى جواره ، و مال نحوه بجسده ليقول :

- لي عليك عتاب يا أستاذ عزت .

قالها بصوته الرخيم الوقور فشد انتباه كل الحضور ، فمن كان متابعا للحوار من أوله زاد من تركيزه ، و من كان مشغولا من الشباب بتصفح حسابه على مواقع التواصل الاجتماعي عبر أجهزة التابلت توقف عما يقوم بعمله إنصاتا لما سيضيفه الحاج منصور ، الذي لم يكن يحظى بتبجيل عائلته فقط ، و إنما كل من يراه و في مقدمتهم عزت ذاته ، الذي حول نبرة صوته من الفخار و الكبرياء ، للتواضع و الوداعة و هو يرد على تعليق منصور :

- لا أقدر يا حاج منصور أن أكون مجرد سببا لإزعاجك .

توقع الجميع و من بينهم عزت أن يعاتبه منصور على إلحاده ، فطمحوا لأن يروا عزت في وضعية صغار تناسب فكره الشاذ ، يعلمون جيدا أن لمنصور منطق حسن في التكلم و مهما تجاوز في حق عزت فلن يجرؤ الأخير على الرد عليه .

استأنف منصور :

- كم شاركتك أحزانك بالغيب لتأخر مسألة الإنجاب لديك ، و الآن و قد علم الجميع كافة أخبارك السعيدة ، تبخل بها على أخيك الأكبر منصور .. ألست تعدني أخاك يا عزت ؟

تهللت أسارير عزت لاعتقاده بأنه أفلت من مناظرة منصور ، وانطلق مجيبا بصوت جهوري :

- بلى يا حاج ، إن كان لي أخا في هذه الدنيا فمن يكون غيرك ؟ و لكنك تعلم يقينا مدى انشغالي مع الإوزة الصغيرة كما يقول عادل

لترتيبات الحمل ، و التردد على عيادات الأطباء و مراكز التخصيب ، ثم سفرنا لفرنسا و هكذا .

لم يركز أحدا من الموجودين تقريبا في كلام عزت ، فقد كانوا ومن بينهم وليد ابن الحاج منصور يتبادلون نظرات الدهشة المغلفة بخيبة الأمل بعد قول منصور الغريب ، لم يحرك الرجل ساكنا أمام تجاوزات عزت المتتالية في حق المسلمين و مقدساتهم ، على الرغم من علمهم بأن منصور رجل ذو إيمان راسخ لا يتزعزع قيد أنملة ، فماذا دهى الرجل ؟

أجاب منصور عزت قائلا :

- لا عليك يا عزت ، فقد فرحت لفرحك كثيرا ، و لكن أخبرني عن رحلتك لفرنسا .

رد عزت في هدوء :

- ذهبت بنصيحة من جار أحد أصدقائي كان لدى ابنة أخته نفس المشكلة ، و عند ذهابها لهذا المركز بالغ التطور كتب لمحاولتها النجاح ، فحذت حذوها ، و حققت نفس نتيجتها .

- كلفك الأمر كثيرا ، أليس كذلك ؟

- آه يا حاج منصور ، أموال طائلة طيلة سبعة و عشرين عاما ، تكاليف السفر ، عمليات التلقيح الفاشلة ، إلى آخر القائمة التي تعرفها بالطبع من المصاريف .

ابتسم منصور و هو يتابع :

- يبدو أن هذا الولد المزعج سيكون مدللا كثيرا يا عزت .

- يأتي بخير أولا يا حاج منصور ، و أنا أعدك بأن يُدلل كما لم يدلل قبله أحد .

سأله منصور :

- هل قمت بشراء ملابس له أم تنتظر ميلاده ؟

رفع حاجبيه و قال بحماس ملحوظ :

- أي ملابس يا حاج منصور؟ لقد أعددت له غرفة كاملة ، لا ينقصها غير تشريفه .

- هل تعلم يا عزت ، كل ما تحسُه الآن نحو ولدك القادم على خير لا يمثل شيئا بعدما تراه بعينيك حقيقة فاعلة في حياتك ، سوف يسبب لك و لزوجتك الكثير من الإزعاج و يحرمكما النوم تقريبا ، و مع ذلك بمجرد أن ينام ستشعر بحنين غريب له ، و تتمنى لو يستيقظ على وجه السرعة ليعاود إزعاجكما من جديد ، لن تكتمل متعة في حياتك إلا بمشاركته لك ، ستكون سعيدا وأنت تنفق مالك عليه بغزارة ، بل ربما حرمت نفسك يوما شيئا محببا لقلبك لحرصك على أن يستأثر به لنفسه ، و بالمناسبة ، هل صحيح ما سمعته من رشا بأنك ستصحب زوجتك إلى فرنسا لتضع مولودها هناك ؟

- نعم ، فهي الآن في منتصف شهور الحمل ، سنغيب هناك لبضعة أشهر قبل العودة للوطن .

- لن أطلب منك أن تخبرنا بميعاد قدومك لنكون في استقبالك مهنئين بالطفل صاحب الجنسية الفرنسية ، لأنني على يقين من أنك ستنسانا جميعا بمجرد رؤيتك إياه .

- و من يكون غير جده منصور في استقباله ؟

- لا أريد أن أكون متطفلا و لكني أنصحك مخلصا ، فقد أنجبت وأنت في الخمسينات يا عزيزي ، و بعد عمر طويل ستترك ولدك وحده في هذا العالم الموحش شديد الغلاء ، عليك ألا تسرف و أن تترك له ما يضمن له مستقبلا مستقرا .

- حتى هذا لم أغفله يا حاج منصور ، ألم أقل لك أنني أعددت للأمير الصغير كل شيء قبيل مجيئه ، حتى أن ما يشغل بالي الآن هو ضرورة البحث عن عروس مناسبة له .

انتزعت طرفة عزت الضحكات من الجميع ، و لكن بدرجات متفاوتة، أنهى منصور ضحكته بدوره قبل أن ينظر لأسفل و قد أحنى ظهره قليلا ليتمكن من ضرب بنطاله بيده لتنظيفه و هو يقول :

- أعددت له كل شيء يا عزت و نسيت أهم شيء .

تساءل عزت و قد بدا على ملامحه التحفظ من الإجابة المنتظرة :

- أي شيء تعني ؟

حافظ منصور على وضعية جسده المائلة و ما يقوم به من فعل ، فيما حرك رأسه تجاه وجه عزت مستطردا :

- اسمه يا رجل ، أيعقل أن يتم تجهيز كل شيء لإنسان يتم السهو عن اختيار اسم له ؟

- لقد عكفت زوجتي على مطالعة صفحات الإنترنت و التي تحوي أحدث أسماء الأطفال و لكن دون جدوى ، فأنا أريد تسميته اسما يتناسب مع مقامه و مدى معاناتي في الحصول عليه .

اعتدل منصور في جلسته مجددا ، مسلطا ناظريه مباشرة صوب عيني عزت قبل أن يضيف :

- و إن كنت أنا من يضمن لك أن تجد له اسما مميزا لم يسم به أحدا قبله ، و لا أظن كذلك أن من الممكن أن يسمى أحدا به بعده ، هل ستكافئني كما ينبغي ؟

تاق المستمعون لمعرفة الاسم المقترح من الحاج منصور ، بينما توقع عزت أن يقترح منصور عليه أحد أسماء الصحابة ، و التي ذاع انتشارها بين الأطفال في الآونة الأخيرة ، فطرق يفكر كيف يجد العذر المناسب ليلقيه للشيخ الهرم حتى لا يتسبب في إحراجه ، فقال و قد غلفت شفتيه ابتسامة متوسطة :

- أسرع في إخباري يا صديقي العزيز .

رمقه منصور بنظرة حادة لم تتحرك رموشه خلالها ثم قال :

- أنصحك بأن تسميه (الله) .

- أراك يا أبي قد نعُمت بقدر من راحة البال هذه الأمسية ، فقد غابت أمي عن الحضور ، و هو عين المطلوب لثعلب مسن ماكر مثلك .

يرد عادل و هو يحدج أدهم بنظرة بطرف عينيه :

- و منذ متى و أنا أخشى من تواجدي و أمك في مكان واحد ؟

ضحكات ساخرة من أدهم ملء فيه ، قائلا بصوت متقطع يحاول الطلوع فيما تصارعه رغبة الضحكة في الاستمرار :

- أظنك لم تنس بعد ما حدث و نحن في نفس السيارة و ذاهبين لنفس المكان لحضور نفس الحدث العام الماضي ، كل ما تغير هو أنك تركت مقعد القيادة لي لتتنحى يمينا لتحتل مكان أمي ، بينما كنت أجلس أنا خلفكما العام الماضي للاستمتاع بوجبة كوميدية دسمة ، تكفي للضحك أسابيع و ربما شهورا .

عاد أدهم للضحك من جديد بمجرد أن فرغ من كلامه ، و هو ما استفز عادل بشكل ملحوظ فوكزه في ذراعه ، ليتأوه الأخير دون أن تفارقه الضحكة ، بينما تظاهر عادل بالسذاجة و أنه لا يذكر بعد ما سر ضحك أدهم ، الذي التزم الصمت بعد الوكزة ضاما شفتيه بآخر جهده لمنع الضحكة المحبوسة من الفرار من بينهما لأذني أباه ، فيما لم تتوقف عيناه عن الضحك ، فلا يستطيع بعد إغلاقهما أثناء القيادة ، حتى لا تتحول الضحكة المكتومة لبكاء شديد .

ارتسمت ملامح الجدية و الصرامة على وجه عادل لعدة ثوان ، قبل أن تنطلق من حنجرته ضحكة فاقت في قوتها ضحكة أدهم الساخرة ، حاول عادل الكلام أثناء الضحك أكثر من مرة و لم يستطع، في كل مرة

كان الكلام يتوقف بعد نطقه لحرفين أو ثلاث على الأكثر:

- ألا ز.. ههههههههههههههه

- ألا زل .. هههههههههههههههههههههههه

استجمع نفسه أخيرا و دمدم يقول :

- ألا زلت تذكر أيها الملعون قولة أمك الملعونة أيضا العام الماضي ؟

لم يرد أدهم بصوته ، بل أومأ برأسه إيجابا ، ضاحكا ملقيا بصدره و رأسه على عجلة القيادة ، دمعت عيناه من فرط الضحك كما كان حال أبوه الذي أتاح لذاكرته أن تعمل قليلا ليتذكر الموقف بتمامه .

أثناء توقف السيارة بفعل الزحام الشديد في العام الماضي ، استغل عادل الموقف ليلقي بنظراته المسمومة صوب امرأة بارعة الجمال ذات قوام غض ، بدا و كأنها كانت تنتظر تاكسي خاليا ، بلل شفتيه بلسانه ونظر صوبها بنهم ، علق عادل وقتها قائلا :

- لا شك أن هذه هي النساء التي قرأنا عنها في الكتب .

- تمسَّك جيدا يا أبا أدهم بعجلة القيادة و دعك من النساء الآن .

قالها أدهم مداعبا أباه ، بينما أدارت أمه رأسها نصف دورة لتحدث أدهم مصححة له :

- لا تخش يا ولدي على أبيك ، فإن أفلتت عجلة القيادة من بين يديه فحتما سيحكم كرشه البارز العصي سيطرته عليها ، إن كانت زاوية الرؤية لديك ليست واضحة ، فتعال و اجلس مكاني و سترى كل شيء بوضوح ليطمئن قلبك .

يحكى أن عادل ظل ملتزما الصمت بعدها حتى وصلوا لفيللا

محمود، و استمر الصمت كذلك لفترة بعد وصولهم قبل أن يبدأ في مجاراة الحضور .

فيما يضع الكثيرون عادل في خانة الإنسان المستهتر الذي تربَّح كثيرا من أعمال التهريب أيام الانفتاح الاقتصادي ، كان يرى هو نفسه شخصا مظلوما لعبت به الأقدار ، فكان دائم التماس الأعذار لنفسه قائلا :

- ماذا يُنتظر من إنسان تخلى والده عنه و عن أمه ، ليسيح في الأرض بحثا عن ملذاته ؟

دائما ما يقارن نمط تربيته بما هو سائد في العائلة وطيدة الأركان فيجد نفسه نموذجا شاذا ، فهو ابن عم محمود ، تربى معهم في بيت المنيرة وسط زخم المبادئ الذي تتمسك به العائلة عن بكرة أبيها ، كل محاولات أعمام و عمات عادل لتعويضه عن فعلة أبيه كانت غير كافية، فليس هناك مثل رعاية الأب لولده .

أثر الأمر سلبا في مشوار عادل التعليمي الذي لم يتجاوز تحصيله شهادة الدبلوم بعد عناء مضن ، و التي انطلق بعدها ليركب الموجة السائدة حينها ، و هي ضرورة أن يقوم الإنسان بتحصيل المال بأي وسيلة كانت ، و طالما لم يقع تحت طائلة القانون فهو حتما إنسان ناجح، كان ابنا بارا لمرحلة الانفتاح التي شهدتها مصر في نهاية السبعينات ، استغلها كما ينبغي ، بداية من سفره لدرة المدن التجارية آنذاك بورسعيد، حتى بلوغه مملكة شارع الشواربي بوسط القاهرة ، كان يشبه أسماك القرش إلى حد بعيد في قوة حاسة الشم ، فبينما

هي تمتلك حساسية مفرطة لرائحة الدماء ، كان يمتلك هو حساسية متناهية لرائحة أي مشروع من شأنه أن يدر المال الوفير .

كان يباهي دوما بنقاء صحيفة سوابقه ، غير أنه لم ينس أنه كان يوما ضيفا على قفص الاتهام بإحدى المحاكم في قضية تهريب ، خرج منها لخلل في إجراءات الضبط و الأحراز ، لكنه كان متورطا فيها، كذلك يحسب له أنه من أوائل من أدخل فكرة المولات التجارية التي أصبحت الآن منتشرة على نطاق واسع ، و التي يجد فيها الشباب على وجه الخصوص كل ما يحلو لهم ، ربح كثيرا من أفكاره الجريئة بشراكته مع من آمنوا بفكرته من رجال الأعمال ، لكن جزءا لا بأس به من أرباحه كان موجها لنزواته المتكررة و التي كان يحرص كل الحرص على إخفاءها حتى جاء يوم كشف ستره على يد ولده أدهم .

عادل متوسط القامة يميل نسبيا إلى القصر ، زاد معدل تساقط شعره بمجرد دخوله نادي الأربعينات ، حتى أصبح اللون الأصفر المغطي لفروة رأسه هو السائد ، و إن تخللته بعض شعيرات كذكرى من الزمن الجميل ، قليلة جدا و لكن يمكن لإحداهن رؤيتها بالعين المجردة، تزامن ظهور كرشه مع ازدياد تساقط شعره ، فصار يستعيض عن جاذبية الشكل بجاذبية المال للإيقاع بالحسناوات ، يشبهه أدهم إلى حد ما ، و هو الأمر الذي كان يدفع الشاب الوقح لمصارحة أبيه بأن من الأمور التي تؤرقه أنه سيصير يوما مثل أبيه ذو صلعة و كرش ، فما يكون من عادل إلا أن يستعمل أقرب عضو في جسده من ابنه ليعاقبه على قوله ، كأن يركله بقدمه أو يلكمه بذراعه ، و ربما نطحه برأسه .

زوجته سميرة مولعة بالتسوق و جلسات النميمة النسائية الشيقة، اختارت صديقاتها بعناية بعد أن استبعدت منهن من أحست أنها تجاوبت مع إغراءات زوجها الذي ما كان ليترك أنثى تطأ قدماها البيت حتى يحاول معها .

أثرت أحداث ما بعد ثورة ٢٥ يناير بالسلب على أعمال عادل بشكل ملحوظ ، فكان من الناقمين عليها و على من قام بها ، حتى تم تصنيفه من المقربين على أنه من الفلول بصحبة ابن عمه محمود ، صار أقل إنفاقا عن ذي قبل ، حتى أنه و في سابقة هي الأولى من نوعها أصبح يكتفي بزوجتيه ، و لكن لا مانع من إلقاء نظرة غير مكلفة على إحداهن إن كانت تستحق لقب (مُزَّة) كما كان يحلو له تسميتهن .

لم يعرف عزت بعد سر حالة الرهبة التي سرت في جسده بمجرد أن نبس منصور بالاسم الذي يجده مناسبا للفرخ الصغير المنتظر ابن عزت ، فما إن سمع بأنه يريد منه أن يسمي ابنه (اللّه) حتى وجم وجوما ملموسا ، إلا أن أحدا لم ينتبه لذلك ، حيث كانوا جميعا فاغري الفم متسعي العينين فور سماع الاسم غير مصدقين آذانهم ، و هو الأمر الذي دفع رقية للقول :

- عفوا حاج منصور ، يخيَّل إلي أنني قد أخطأت سماع الاسم ، هل كنت تقول عبد ال ..

اندفع مقاطعا إياها بنفس الصرامة :

- اللّه ... اللّه ... غير مسبوقا بكلمة عبد .

لا يمكن القول أن تأكيد منصور لهم هذه المرة على صحة ما وقع على مسامعهم كان له نفس رد الفعل من الحضور ، حيث لم يحرك البعض ساكنا ، بينما تبادل آخرون نظرات حائرة متسائلة صوب بعضهم البعض ، فيما اتجه فريق ثالث لإلقاء نظرات فيها الكثير من الريبة نحو الحاج منصور ، الذي أدار عينيه بينهم جميعا لاستيعاب ردود أفعالهم ، ثم كسر حاجز الصمت المخيم على المكان بعد أن استعاد نظرته الهادئة المطمئنة و صوته الوقور :

- لا تتعجلوا الحكم يا سادة ، فلم أصل بعد للسن الذي يستوجب معه أن تقولوا : أوقفوا الشيخ المخرف ..

أدار بصره تارة أخرى بينهم قبل أن يضيف :

- لو علمتم الحكمة وراء هذا الاسم الذي انتقيته بعناية لشكرتموني، و أول من سيقوم بهذا هو عزت ذاته .

انحبست الأنفاس و تعلقت العيون بمنصور ، بينما وجه عزت يمتقع و يحمر ، و منصور يتابع قائلا :

- بعد إلمامي في هذه الجلسة بالمعلومات الجديدة حول سفر عزت و زوجته لفرنسا ، طرأت لي فكرة تسمية المولود ب (اللّه) ، لأغراض عدة ، حيث أن الولد سيُسَّجل اسمه هناك فلن يقابل الاسم بالاعتراض، خاصة و أن اسم الرب بالفرنسية (ديو) كما تعرفون ، فإذا استقر بك المقام هناك فلا مانع من الاستمرار على نفس الاسم ، أما إذا أردت العودة لمصر ، فبإمكانك ادعاء أنهم أخطئوا في فرنسا في كتابة الاسم، لتتجنب نقد الناس لتسمية الولد بهذا الاسم ، و غيِّرّه حينئذ ، فلن يضرك الأمر شيئا .

قالت إحدى صديقات رشا والتي اختصتها دون سواها بالدعوة للحفل العائلي الخاص :

- عذرا يا حاج منصور ، اغفر لي تطفلي ، و لكنك لم تفصح حتى الآن عن الهدف من اختيار تلك التسمية .

- صدقتِ يا ابنتي ، فقد أردت تأجيل التصريح بالهدف لآخر الحديث ، حتى تكون الصورة أكثر وضوحا للجميع ، أما الهدف من ذلك فهو أن عزت لديه قضية يؤمن بها ، و هي نكرانه الشديد لوجود إله ، فلا بد من وضع حد لحالة الجدل التي تلازمه أينما حل أو ارتحل، و لا بد لهذا الحد الموضوع أن يكون حدا فاصلا ، و أن يبتعد عن اللغط

و الاسترسال ، دليلا دامغا على صدق عزت في دعواه أو صدق الآخرين القائلين بوجود إله ، سيقدم عزت الدليل حتما على خرافة الأديان إذا تحلى بالشجاعة و قرر خوض التجربة ، التي هي باختصار ضرب لعقيدة المسلمين في صلب أساسها ، حيث يعتقد المسلمون بأن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل و الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، كذلك تصورهم لإلههم أنه حكيم خبير بشئون الغيب ، فإذا أطلق تحديا في كتابه للناس فمن المؤكد أنه يعلم مسبقا أن أحدا لن يجرؤ على تفنيد هذا التحدي ، فما بالكم إن نجح أحد البشر في تحدي الإله و إثبات عدم صدق مزاعمه ، قطعا سيؤثر ذلك سلبا في إيمان الملايين بتلك العقيدة ، كذلك سيفتح الباب لآخرين لخوض تجربة وربما تجارب عدة في نفس السياق .

خرج زكريا أخيرا عن صمته ليتساءل و قد فاضت عينيه ببريق الفضول :

- و ما دخل تسمية عزت لولده بلفظ الجلالة بتفنيد القرآن الكريم؟

بعد تنهيدة طويلة ، أجاب منصور زكريا و هو يضغط بإبهامه الأيمن على راحة كفه الأيسر :

- الإجابة ستجدونها في سورة مريم .

ثم صرف نظره تلقاء عزت :

- أتذكرها يا عزت ؟ كم من مرة أخبرتني سلفا بأن أحد مباهج حياتك هو الاستماع لهذه السورة التي تتوسط كتاب الله ، خاصة بصوت المرحوم القارئ الشيخ محمد رفعت .

بدا على عزت و كأنه قد أدرك الفخ المحكم الذي استدرجه له الحاج منصور ، فأجاب متحاشيا أن يظهر القلق على محياه :

- ألا زلت تذكر ذلك يا حاج ؟

تجاوز منصور السؤال ليواصل شرح نظريته :

- في سورة مريم الآية (٦٥) يعلن الرب التحدي لأن يُسمى أحد بـ(الله) دونه عز و جل حيث يقول :

﴿رَبُّ السَمَوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ .

أنهى منصور تلاوة الآية الكريمة فانتزع من أفواه الجميع قولة: صدق الله العظيم ، باستثناء عزت بطبيعة الحال ، ردد منصور مع الحضور القول بصوت خفيض ، ثم ارتفع صوته بعد ذلك موضحا :

- لفظ (سَمِيّاً) يعني على نفس الاسم ، بمعنى لو قابلنا شخص يسمى زكريا الحين ، فإنه يطلق عليه سميّ زكريا جليسنا الآن ، لأنهما يحملان نفس الاسم ، و هو ما أريد أن تستوعبوه ، الله سبحانه و تعالى يأمر رسوله بأن يداوم على عبادته وحده ، فهو الله الذي لم و لن يسمى أحد باسمه قبل نزول القرآن و حتى يوم القيامة .

التفت بكامل وجهه صوب عزت ، و شد هذه المرة على أعلى ذراعه قائلا :

- أنت أيها الهمام أول من سيخوض هذا التحدي مع الله ، فسوف تثبت عدم صدق القرآن في إخباره باستحالة تسمية أحد بهذا الاسم ، ومن ثم تنفي نفيا باتا أن يكون الكتاب المكون من ثلاثين جزءا هو كلام

الرب ، و بالتبعية تنتفي صفة الصدق عن محمد بن عبد اللاه ، فيُهدم الدين من أساسه و ينتزع من جذوره من قلوب المسلمين ، ستخلد اسمك المحافل الثقافية ، سيشار إليك بالبنان ، ستوصف بأنك منقذ البشرية، فمن ذا الذي يراهن على حياة أعز ما يملك ، ولده طويل الغياب ، يضحي به لأجل إظهار الحقيقة ، و إنقاذ الملايين ممن يتعاطون أفيون الشعوب .

اعتدل في جلسته مرجعا كل ظهره ليلاصق مؤخرة المقعد مضيفا:

- و لكن يا عزت ينبغي أن أحذرك من أن بانتظارك إحدى نتيجتين، الأولى قد أخبرتك بها قبل قليل ، أما النتيجة الأخرى و التي نوقن بحدوثها نحن معشر المسلمين ، هي حتمية تدخل الخالق للدفاع عن كتابه و مصداقيته ، فهل يمنع وصول المولود للدنيا – إن كان قادرا بالطبع – أم سيكون له تدبير و مكر آخر ؟ و هو ما أجده في كل الأحوال أمرا بالغ الخطورة ، يتحتم علي أن أحذرك منه ، حتى أكون ملتزما الأمانة في نقل كل شروط التحدي .

- أوه .. فكر جيدا يا عزيزي قبل الموافقة أو الرفض .

ضرب ركبتيه براحتيه فجأة موجها كلامه للحضور :

- و الآن دعونا نرى ما بال هذه العائلة البخيلة التي ابتُلينا بها ، أي حفل هذا الذي لا يوجد به مأدبة طعام ؟

رفع محمود حاجبيه فيما اتسعت عيناه لينطلق قائلا و هو يضرب جبينه براحة كفه :

- عذرا يا حاج منصور ، لقد أنسانا حديثك الشيق القيام بواجبات الضيافة كما ينبغي .

فيما انطلقت أمل مسرعة و لكن بحذر خشية أن يتسبب حذاؤها ذو الكعب العالي في تعثرها ، لتقول و هي متجهة لمأدبة الطعام لتتأكد من جاهزيتها لاستقبال الضيوف :

- ثوان و يُلبَّى نداء البطون .

استمر منصور في دعابته قائلا :

- مهما تحاولان يا أمل أنت و زوجك فلن تغادركما وصمة البخل ما حييت .

ما إن أنهت أمل مكالمتها الهاتفية مع الحاجة أنيسة حتى أرجعت رأسها للخلف ، و بسطت ساقيها لآخرهما ، أغمضت عينيها لتسترخي تماما ، مستسلمة لذكرى ذهابها لأنيسة شاكية فعلة محمود في الليلة المشئومة .

لم تفارق البسمة شفتي أنيسة ، التي تركت الفرصة كاملة لأمل كي تروي حقيقة ما حدث من محمود ، حتى أفرغت كل ما لديها ، أخذت منها كأس الليمونادة الخالي الذي ظلت ممسكة به دون أن تدري رغم أنها كانت قد أنهت آخر قطرة منه منذ فترة كبيرة ، نظرت أمل ليدها إبان أخذ أنيسة الكأس و كأنها تتساءل : ما الذي جاء بذلك الشيء في يدي ؟

ناولتها منديلا ورقيا من الكرتون الموضوع على المنضدة و الذي كادت أمل أن تُجهز على كل محتواه من المناديل ، فدموعها الغزيرة كانت لتدل على أن الغدد الدمعية لديها وجدت الفرصة أخيرا لأن تعمل، فقررت استغلال الفرصة على أكمل وجه ، ثم سألتها أنيسة برقة :

- هل هدأت قطتنا الجميلة بعد لأتمكن من محادثتها ؟

أومأت برأسها إيجابا دون أن تتكلم ، فتابعت أنيسة :

- لا زلت يا أمل حديثة عهد بالزواج ، إنك يا ابنتي لم تكملي عامك الأول بعد ، لذا وجب عليكِ أن تكوني أكثر إلماما ببعض الأمور التي لا شك أنها ستساعدك كثيرا في العيش هانئة مع زوجك محمود ، أو على الأقل تتجنبين العيش كمخلوقة تعيسة كما هو الحال في كثير من الزيجات .

على الزوجة أولا أن تدرك ماهية طبيعة الرجل ، فلا يوجد يا ابنتي ذلك الرجل كامل الإخلاص لزوجته ، و أخبرك سرا أنهم معذورون في ذلك ، فهي غريزة لديهم مسألة عدم الاكتفاء بامرأة واحدة ، قد فُطروا على هذا و لا حيلة لأحد منهم حيال ذلك .

قاطعتها أمل و هي تقاوم بقايا النحيب المتقطع المنطلق من أعماق قلبها :

- هل ستقنعينني بأن الأستاذ منصور هو الآخر من تلك النوعية من البشر ؟

- أكرر يا أمل ، أكرر : كل الرجال على هذه الشاكلة ، و لكن منهم من ينساق وراء شهواته و منهم من يتق الله فيعرض عن هذا ، و منهم من يبقى مذبذبا لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء ، و لكن يظل للزوجة الدور الأكبر يا عزيزتي في حسم القضية لمصلحتها و لمصلحة أسرتها .

- لا تخبريني يا أم علاء بأن على الزوجة أن تهتم بنفسها و أن تكون كل يوم امرأة جديدة أمام عيني زوجها ، إلى آخر تلك القائمة من النصائح عديمة الجدوى .

أجابتها أنيسة بهدوء :

- قد تبدو عديمة الجدوى ، و لكن إن أرادت المرأة أن تتحدى طبيعة الرجل و تجعله لا يرى غيرها ، فعليها قبل خوض هذا التحدي أن تعلم أنها بصدد فعل أمورا غير مألوفة .

تناولت أمل منديلا أخر لتلاحق إفرازات أنفها و التي عادة ما تخرج بصحبة الدموع إبان البكاء قبل أن تعقب :

- هذا فيما يتعلق بمسألة ميل الرجال بحكم شهوتهم لكافة ألوان النساء ، و لكن تبقى مصيبتي أنني ارتبطت برجل أعطاني جسده فيما استبقى قلبه لدى خليلته .

- لم ألتحق بالجامعة مثلك يا أمل ، لكن دعيني استعرض عضلاتي العلمية لبعض ما حصلته أثناء دراستي الثانوية ، أليس بالقلب أربع غرف رئيسية تُسمَّون بالبطين الأيمن و الأيسر و الأذين الأيمن و الأيسر؟

ابتسمت أمل ظانة أنها بصدد دعابة من أنيسة و قالت :

- بلى .

أكملت أنيسة :

- إذن فعليكِ عزيزتي أن تدركي أن الرجل بإمكانه أن يُسكن امرأة بكل غرفة منهن ، و العجيب أنه يكون صادق كل الصدق لو أخبر كل واحدة من نزيلات تلك الغرف بأنه يحبها و يذوب عشقا لأجلها .

- ما هذا يا سيدتي .. جئتك شاكية من منافسة واحدة ، لتنبئيني باحتمال وجود أخريات؟ أشعر و كأن محمود ينوي تحويل قلبه لبنسيون.

- ألم تخبريني من قبل أن لمحمود ميزة جيدة و هي أنه غير مولع بالنساء عموما ؟

أجابت أمل بصرامة و بحسرة معا ، و هي ترفع سبابتها في وجه أنيسة قائلة :

- عدا واحدة .

استطردت أنيسة :

- إذن نحن بصدد اختزال كم المنافسات التي تعاني منهن قريناتك

من النساء من عدد لا محدود إلى واحدة فقط ، و هو ما يعد تقدم ملحوظ في حالتك .

- تقدم كمي و ليس كيفي .

تظاهرت أنيسة بعدم الفهم قائلة :

- بمعنى ؟

تابعت أمل :

- بمعنى أن الرجال يضعُفون أمام أي أنثى ، أما محمود فينهار أمام أنثى بعينها .

خيم الصمت على الأجواء للحظات قبل أن تضيف أمل :

- ما أصعب إحساس المرأة عندما تشعر بأن هناك من جعلتها تحتل المركز الثاني في قلب زوجها ...

كان صوت رنين جرس الهاتف الأرضي بمكتب الحاج منصور مزعجا أكثر من المعتاد ، حين ضرب في ليلة شديدة البرودة منبئاً بخبر مشئوم، و كأن الجماد نفسه قد تفاعل مع الحدث الجلل .

تناول منصور سماعة الهاتف بيسراه بينما انشغلت يمناه بتوقيع بعض الفواتير التي كانت تتراص في صف رأسي إلى جوار العديد من قطع الغيار و العدد المطلوبة التي كانت تملأ جنبات المكتب ، و إلى جواره كان يقف الأسطى بهجت منحنيا قليلا ليتمكن من إجابة منصور على أي رقم غير واضح في الفواتير ، ليجد صوتا غير مألوفا يسأله بعد السلام في صوت وجل حيي :

- أريد التحدث للأستاذ منصور .
- طوع أمرك يا سيدي .
- أهو أنت ؟
- نعم .
- عذرا سيدي .. فقد وقع حادث تفجيري بمنطقة الأزهر و ..

قاطعه منصور صائحا :

- علاء .. ابني ... هل أصابه مكروه ؟

حاول الرجل المجهول التكلم إلا أن منصور قاطعه مجددا :

- أرجوك يا سيدي اصدقني القول ، هل هو على قيد الحياة ؟
- إنه مصاب و لا يستطيع التكلم ، و أنا أحدثك كي تأتي لتصحبه للمستشفى .

قال منصور و هو يهم بالوقوف :

- أشكرك .. أشكرك .. سوف آتي مسرعا .

اتجه منصور لسيارته و قد اصطحب معه أحد عمال الورشة ليتولى القيادة لفقدانه التحكم في أعصابه ، طلب من وليد عبر هاتفه الخلوي أن يقابله هناك ، فأخبره وليد أنه في طريقه لمكان الحادث بالفعل بمجرد معرفته من التلفاز بنبأ الحادث .

قام الأسطى بهجت كبير العمال و المشرف على العمل بالورشة بإخبار كل من أستاذ محمود و أستاذ عادل بما حدث ، و اللذان بدورهما هاتفا عزت و زكريا للحاق بالرجل .

على الرغم من الانسياب المروري الملحوظ نظرا للبرد القارس ، شعر منصور أن الوقت يمر دهرا و هو في الطريق للأزهر ، وصل فنزل مسرعا دون أن ينتبه لغلق باب السيارة ، و هو الأمر الذي تولاه حمادة العامل الذي اصطحبه لهناك قبل أن يلحق به ، فإذا بعض الوجوه ممن يعرفها منصور من أصحاب المحال المجاورة لمحل علاء يستقبلونه على استحياء ، يقدمون قدما بينما يؤخرون أخرى ، على غير سابق عهدهم مع الرجل ، حيث كانوا يتسابقون بغية مصافحته و دعوته لمجالستهم ، أما الآن فقد تنافسوا في أيهم يكون آخر من يصافحه .

لم يطمئن منصور للجو العام ، حتى طريقة استقبال أحد ضباط الشرطة المتواجدين له لم تطمئنه أيضا ، فعلى عكس عادة صقور الداخلية كان الضابط بالغ التأثر ، يرجو منصور في خشوع غير مصطنع أن يجلس ليتحدث إليه .

قرر منصور أخيرا ألا يترك الانتظار يفتك به ، فسأل و هو يدير وجه بين الوقوف :

- أين علاء ؟

و بعد تأخر تلقي الإجابة أعاد السؤال ثانية :

- أين علاء ولدي ؟

و نظر صوب الحاج عدلي جار علاء صائحا به :

- أين علاء يا حاج عدلي ؟

اكتفى الحاج عدلي بوضع كفه أمام عينيه و قد اغرورقتا بالدموع .

كان منصور يمني النفس بالبحث بين الوقوف عن علاء فأدار عينه بسرعة في كل الاتجاهات ، لاحظ على أوجه الوقوف أن هالهم الأمر و دهمهم الخطب ، و لكن أي أمر و أي خطب ؟ هل يتوقف الخطب عند إصابة ولده ، أم يتجاوزه لما هو أبعد من ذلك ، وقعت عيناه على وليد و هو يحاول أن يختبئ من نظرات أبيه ، فصاح به بشدة :

- وليد .. أين أخوك ؟ أقبل و لا تحاول أن تتوارى يا بني .

أقبل وليد مطأطأ الرأس و قد شقت الدموع مجرى لها على وجنتيه و قال :

تعال لأطلعك عليه يا أبي .

سحب منصور من يديه ، فشعر بأن والده الآن هو الذي لا يريد أن يرى علاء ، فكان يمشي ببطء مشوب بالحذر ، و قد امتنع لسانه عن الكلام فيما تولت عيناه الأمر ، حيث أرسلت بعشرات التساؤلات لأعين الناس المراقبة للموقف .

ما هي إلا خطوات حتى وجد منصور ابنه وليد قد توقف و نزل على الأرض مستندا بركبتيه إلى جوار جثة مغطاة محدثا إياها :

- لقد جاء أبوك ليودعك يا علاء .

- هناك أمرا يؤرقني يا زكريا .

- أي أمر يا رقية ؟

- ما سر حرص محمود و أمل على أن يقيما حفلا سنويا لعيد زواجهما رغم تقدمهما في السن ، علاوة على أن الجميع يعلم أنهما كزوجين لا ينعمان بالسعادة المفرطة ؟

تنهد زكريا قبل أن يخبرها :

- هذا ما يطول شرحه يا عزيزتي ، فهو أمر يرتبط ابتداءً بمعرفة شخصيتيها و تاريخهما الحافل كما تعلمين .

قالت رقية :

- أعرف الكثير عنهما ، و لكن لا أستطيع الربط بين ما لدي من معلومات و بين إقامة الحفل السنوي المشهود الذي نحن بصدد الذهاب إليه .

- اعلمي جيدا يا أم أميرة أن محمود يرنو لأن يخلف الحاج منصور في زعامة العائلة ، فالأخير تتدهور صحته عاما بعد آخر ، و محمود يجد في نفسه ما يؤهله لتبوء تلك المكانة ، فهو مأخوذا بشدة بفكرة أن يكون كبير العائلة المنتظر ، لذلك يجب أن يشار إليه بالبنان أنه سر تجمع أبناء العائلة الأشتات ، و إن كان لا يزال تجمعهم في المناسبات الرسمية كالأعياد مثلا يبقى دائما في بيت منصور بالمنيرة ، فهذه وسيلة لاستحداث مناسبة يكون فيها بيت محمود هو قبلة أبناء العم، و هو ما يعق..

قطع الحديث فجأة ليتفرغ لسباب أحد سائقي الميكروباص

المجاورين له ، و الذي كاد أن يصدم سيارته بعد أن مال نحوه بشدة ، أعقب السباب بالاستغفار ثلاثا قبل أن يستطرد ساءلا رقية :

– عم كنا نتحدث ؟

– عن رغبة محمود في أن يكون ال..

قاطعها بحماس بعد أن أعادت تنشيط ذاكرته :

– نعم نعم ، و هو الأمر الذي يعقبه أن يترسخ في أذهان الجميع أن للعائلة مأوى آخر إلى جوار مأوى المنيرة يقبع في التجمع الخامس .

تتساءل رقية :

– و هل تؤمن أمل بنظرية محمود لهذه الدرجة ؟ أراها أكثر حرصا منه على إنجاح الحفل .

يجيب زكريا بلهجة العالم ببواطن الأمور :

– لو علمت أمل أن لمحمود حبا أول مسمى بزينب لما تحمست لهذه الدرجة التي تلاحظينها بنفسك ، و لكن لأمل تركيبة نفسية مختلفة عن كثير من الأنماط التي ربما التقيتِ بها في حياتك ، فأمل كانت كما قد أسَّر لنا محمود تعاني كل المعاناة من وجود زوجة أبيها في حياتها ، كانت تعتقد أنها دائما ما كانت في خانة المفعول به ، لكن لا حيلة لها في التخلص من ذلك ، لذلك ما أن توافرت لها الفرصة لأن تنتقل لخانة الفاعل ، قررت فورا ألا تتنازل عنها ، كان ذلك بزواجها من محمود الذي لم يبد مقاومة تذكر ، فهيمنت بقوة ممسكة بلجام البيت ، تاركة على عتبته ماضيها المؤلم ، أو الذي كانت تعتقد بأنه مؤلم .

عقد بين حاجبيه و ضاقت حدقتاه و هو يطالع ساعته ليطمئن على

عدم تأخره عن الموعد ، ثم عاود يقول :

- و ما الذي ادراك بأن محمود و أمل ليسا سعيدين كما أسلفتِ القول؟

أجابت بلهجة تملؤها الثقة :

- إنها أمور لا يعلمها إلا النساء يا زيكو .

سأل مندهشا :

- أي نساء ؟

- أي نساء ؟؟ ألا تعتبرني ضمن معشر النساء يا رجل ؟

قالتها رقية ، ثم انتظرت الإجابة لفترة لا بأس بها ، حتى فرغ زكريا من ضحكته ، ليقول لها :

- أيتها المرأة الحاذقة العالمة ببواطن الأمور ، ألا تعلمين أن أمل مصابة بداء عضال اسمه الخوف المفرط من الحسد ؟ كيف إذن توحي لمن حولها من النساء بحقيقة سعادتها مع زوجها تحت أي ظرف ؟

التزمت رقية الصمت ، بينما راح زكريا يقول بصوت أسيف :

- إنها كثرة النقود يا رقية .. تمكن المرء من فعل أي شيء .

بدت على وجه رقية علامات التعاطف مع زكريا ، و هي تختلس النظر صوب أميرة التي كانت تنصت جيدا للحوار ، و قد توسطت الجلوس في المقعد الخلفي ، فهمت جيدا غرض النظرات التي رمقتها بها أمها ، فهي تعلم تمام العلم مدى تعلق أبيها بها ، حتى أن مبلغ سعادته في الحياة كان سماع صوت أميرة و هي تتجاوز كلمة (بابا) لتناديه ب (زيكو) ، و زيكو الآن حزين و بحاجة ماسة لجرعة من التدليل من

قطته الصغيرة ، التي سارعت مخترقة حاجز الصمت الذي دام لثوان :

- هل تعلمين يا أمي ؟ لقد فقدت الثقة في أي شخص يُدعى زيكو .

تصنعت رقية الإحساس بالفضول و هي تجاري ابنتها لمعرفة سبب ما تقول فتساءلت :

- و ما السر وراء فقدان تلك الثقة الغالية يا صغيرتي ؟

استندت بذقنها على مؤخرة كرسي زكريا لتبث كلامها في أذنه مباشرة :

- إنهم في الغالب يا أمي يوعدون و لا يوفون ، فكيف أثق بهم إذن ؟

بدأت الابتسامة تتسل لمحيا زكريا ، و هو ما شجع رقية للمضي قدما نحو استكمال حيلة أميرة فقالت الأولى :

- أوعدك أحد هؤلاء الزيكوهات بشيء و لم يفِ ؟

- أي نعم ، و لكن ليس وحدي ، فقد وُعِدنا يا أماه من قِبَل هذا الزيكو بالذهاب لمرسى مطروح لقضاء أسبوع على الأقل هناك قبل بدأ حملة الدروس الخصوصية التي تحرمنا تواجده معنا بالقدر الكافي .

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه رقية الممرن جيدا على ذلك و هي تقول :

- أحقا حدث ذلك ؟

حولت أميرة نظرها لتلتقي عيناها عينا زكريا في مرآة السيارة و هي تقول مخاطبة رقية :

- ليت الأمر توقف عند ذلك يا أمي ، بل أن المذكور كان قد وعد (ميرو) بأن يبتاع لها جهاز ال آيباد الذي طالما حلمت باقتنائه .

- لا يا ميرو ، لا تبالغي يا صغيرتي ، أكل هذا يحدث من زيكو ؟

- نعم يا والدتي ، قد حدث بالفعل ، و لكن لا أدري أي عقاب يُنتظر أن يكون ملائما لكل تلك التجاوزات ؟

تدير رقية رأسها بين زوجها و ابنتها أكثر من مرة و هي تتساءل :

- أيُ عقاب ؟ .. أيُ عقاب ؟ أرى أن تحرميه يا ميرو شرف تقبيلك لمدة ثلاثة أيام و مثلهم من الليالي ، فإن ذلك كفيلا بأن يردعه فلا يعود لتكرار تلك الأفعال الشنيعة مجددا .

لطمت أميرة خديها لطمة حانية ، بينما ارتفعا حاجبيها فاغرة فاهها لتقول عقب شهقة كوميدية أطلقتها :

- ما هذا يا أمي ؟ أتتكلمين عن قبلات زيكو لي في وجود أبي ؟ ألا تعرفين أنه شديد الغيرة ؟ أم أن غيرته عليكِ قد ذهبت أدراج الرياح ؟

نسيت رقية تماما ما كانت هي و ابنتها ترنوان لتحقيقه ، و هو إضفاء البسمة على وجه زكريا ، فبمجرد أن ذكرتها أميرة باصطلاح الغيرة حتى تبدلت ملامحها ، لتنظر صوب زوجها نظرة طفولية سائلة إياه بصوت ينتظر الإجابة بخوف و لهفة ، لهفة امرأة تقدم بها العمر و استوفت شبابها و حيويتها ، عرفت خطوط تقدم العمر لوجهها سبيلا ، و نالت تجاعيد ما بعد انقطاع الطمس من ملامحها قسطا وافرا :

- ألا زلت تغار عليّ يا زيكو ؟

لم تندهش أميرة من التحول المفاجئ في سلوك أمها ، فهذا من شيم النساء ، فيما تجاهل زكريا السؤال و بدا منشغلا بمتابعة الطريق ، مما استفز رقية ليعلو صوتها فتقول :

- زكريا .. ألست أحدثك ؟

أحال زكريا ملامحه لتكتسي بالبلاهة قبل أن يضع كفه على صدره و هو يسأل :

- أتحدثينني أنا ؟

- و من غيرك بالسيارة يا زيييبك ؟

- عفوا يا حبيبتي ، فإنه كان هناك لاعبا بالبرازيل يُدعى زيكو ، خِلتُك تحدثينه هو .

أشار لها بسبابته و هو يتصنع لهجة التهديد قائلا :

- كنت سأنزل بك أشد العقاب حين حسبتك تسألين رجلا غيري إن كان يغار عليكِ أم لا .

أعقب دعابته السخيفة كعادته بضحكة مدوية ، فاطمأنت رقية و ابنتها لأن زكريا قد عاد لطبيعته ، فتوقفا عن استكمال المسرحية و صرفا وجهيهما كل في اتجاه النافذة المجاورة لها لتطالع الطريق من جديد ، الأولى حزينة لعدم تلقيها إجابة شافية فيما يتعلق بمدى غيرة زكريا عليها من عدمه ، و الثانية حزينة لأنها ستلتقي من قابل حبها ببرود و ضاعف من شعور الإحباط الملازم لها لعدة أشهر .

شددت زينب على ابنتها شذا ضرورة ربط حزام الأمان بالسيارة على الرغم من تململ شذا من ذلك الفعل ، لكن تصميم زينب قد جعلها تنصاع للأمر .

لم تنس زينب يوما ما حدث لشذا منذ عامين ، فقد كانت بصحبة زملاءها في حافلة المدرسة في طريقها للبيت ، حادث تصادم بين سيارة نقل كبيرة و حافلة التلاميذ قد وقع بينما كان يحاول سائق الحافلة تفادي أن يصدم توك توك ظهر أمامه فجأة .

يدق تليفون زينب لتتلقى الخبر المفزع ، فتترك سيارتها لتستقل تاكسي للمستشفى التي تم نقل المصابين إليها ، فقد أنساها الخبر كل مبادئ قيادة السيارات ، كما أن عنصر الزمن لم يكن ليسمح بأن تقود هي القيادة النسائية المعروفة ، لا بد إذن من الاستعانة بسائق تاكسي متمرس ، و هو الذي اتسع صدره طيلة المسافة من الجهاز المركزي للتنظيم و الإدارة حتى المستشفى لتعليمات زينب ، فبمجرد علمه بذهابها لرؤية ابنتها ضحية الحادث ، حتى انصاع لإلحاحها الشديد بضرورة الإسراع في القيادة ، حتى و إن اضطُر للقفز فوق السيارات التي أمامه .

وصلت المستشفى فألقت للسائق ورقة نقدية فئة المائتين جنيه لتسرع بفتح باب التاكسي و تنزل منه ، انشغل السائق بالبحث في مخبأه عن باقي المبلغ المطلوب ليعطيه لزينب ، انتهى فوجدها كانت قد غادرت التاكسي و صعدت كل درجات سلم الاستقبال إلا واحدة ، فصاح بها جاهدا دون أن يتلقى أي رد .

اتصلت زينب بأحد بتوأميها لتخبرهما بالخبر ، طالبة منهما الإسراع في تحويل وجهتهما من المنزل إلى المستشفى ، فهي تعلم أن ميعاد وصولهما المنزل قد اقترب ، و أنهما قد غادرا المدرسة منذ قليل، راحت تستنجد بهما ليسعفانها فهي وحيدة بلا رجل ، وجدت نفسها أمام تجمع من الناس أمام حجرة أشبه بحجرة العمليات ، و قد بدا عليهم أنهم يشاركونها أزمتها ، فقد كانت تتدلى من أيديهم حقائب مدرسية ، لا شك أنها لأبنائهم المصابين ، أنهت المكالمة سريعا ، والتقطت ممرضة مارة مسرعة من أمامها لتستوقفها و تسألها في لهجة أقرب للتوسل :

- من فضلك آنستي ، ابنتي ضمن المصابين في حادث تصادم حافلة المدرسة و كنت أود أن أع..

قاطعتها الممرضة و هي تتابع السير قائلة :

- اتبعيني يا سيدتي .

تبعتها زينب ، بل كادت أن تسبقها بخطوتين ، استوقفتها الممرضة وهي تشير بيسراها إلى غرفة كتب عليها يافطة : استعلامات ، فقالت :

- يمكنك مراجعة أستاذ محيي لمعرفة مكان ابنتك .

دلفت زينب للحجرة لتسأل أستاذ محيي :

- عفوا ابنتي كا..

بادرها محيي قائلا بسرعة كمن يقدر قيمة الوقت عند امرأة تواجه حادث يهدد حياة ابنتها :

- اعلم يا سيدتي فقد سمعت تحاوركما ، هلا أخبرتني باسم ابنتك؟

- شذا .. شذا فهمي .

ظل يردد الاسم خشية نسيانه بينما أخذ يحرك سبابته من أعلى لأسفل فوق صفحة بالدفتر الموضوع أمامه ليعلو صوته فجأة كأنما قد وجد ضالته مرددا :

- شذا فهميييييي ، نعم ، إنها في الاستقبال عنبر (ج) .

و راح يصف لها بسرعة و دقة الطريق ، فودعته بنظرة ممتنة للغاية، و هرولت حسب وصف محيي لها ، حتى كاد حذاؤها ذو الكعب متوسط الطول أن يتسبب في سقوطها بعدما اختل توازنها ، استندت بيدها بسرعة على الحائط ، ما لبثت أن وجدت العنبر المنشود لتجد أمامه طبيبا محاط بثلاثة ممرضات يوزع عليهم تعليماته في إيجاز و صرامة، كن يتلقين تلك التعليمات بهز رؤوسهن للتدليل على الاستيعاب .

توسمت فيه زينب خيرا بعد أن لاحظت تقدمه في السن بحكم الصلعة التي باعدت بشدة بين الشعر المشتعل شيبا على جانبي رأسه ، و علامات تقدم السن البارزة متمثلة في تقلص الجلد المحيط برقبته ، أسرعت لتستفسر منه :

- استسمحك يا دكتور ، فابنتي محجوزة بالداخل مع مصابي حافلة المدرسة ، هلا طمأنتني عليها ؟

- ما اسمها يا سيدتي ؟

- شذا فهمي يا دكتور .

اكتفى بالنظر لإحدى الممرضات من فوق نظارته ليتلقى الإجابة على سؤاله الذي لم ينطق به :

- الطفلة الممددة على سرير رقم أربعة يا دكتور .

عاد بناظريه مجددا تلقاء زينب محدثا إياها بملامح تنقصها القدرة على التعبير :

- شذا لديها بعض الكدمات الشديدة ، كما أنها قد فقدت كمية كبيرة نسبيا من الدماء جراء جرح غائر نتج من ارتطامها بشدة بجسم معدني ، إلا أنه و الحمد لله لا يوجد نزيف داخلي و لا أية كسور ، كما أن الجمجمة سليمة لم يصبها مكروه .

تهللت أسارير زينب فيما انهالت بسيل من الشكر و العرفان تجاه الطبيب ، راجية من الله أن يحفظ له أولاده ، استقبل كلماتها بنفس ملامح الوجه دون تغيير ، و اكتفى بهز رأسه تقديرا لمشاعرها ، تأهبت لتطلب الطلب التقليدي في مثل هذه المواقف بأن ترى ابنتها ، و غلفت طلبها بلهجة و سحنة مليئتان بالتوسل ، أجابها الدكتور :

- اعلمي يا سيدتي أنه أمرا ممنوعا ، و لكني سأنصرف الحين ، مما يمكنك من التفاوض مع هؤلاء المرضات التعسات ، و اللاتي لن يستطعن الصمود أمام رغبة أم تريد رؤية صغيرتها ، فستقوم إحداهن بفتح الباب بزاوية صغيرة للغاية ، غير أنها كافية لتمكنك من رؤيتها وهي نائمة .. اللعنة لا سبيل البتة لتطبيق التعليمات بمستشفيات مصر .

لمعت عينا زينب و هي تغالب دمعة قد خرجت للنور ، من فرط امتنانها لم تتكلم هذه المرة ، بل أرسلت نظرة تحمل كل الشكر للطبيب حاني القلب ، نظر الطبيب مرة أخرى لنفس الممرضة التي رمقها بالنظرة السابقة من فوق النظارة قائلا في حزم :

- نظرة واحدة فقط ، لا تدخل للغرفة .. مفهوم .

تحرك الممرضة رأسها هذه المرة من أعلى لأسفل بسرعة ، فيهم الطبيب بالانصراف فتستوقفه ممرضة أكبر سنا لتخبره بصوت تسمعه زينب :

- هناك مشكلة لحالتين من الأطفال يا دكتور ، لعدم توافر أكياس دم بنفس فصيلتي الدم الخاص بهما .

- أي طفلين ؟

أجابت :

- نائل و شذا .

تبدلت ملامح زينب بسرعة فبادرتها إحداهن قبل أن تتأهب لتسأل:

- لا تقلقي يا سيدتي فإغماءة شذا كانت بسبب النزيف الذي تعرضت له ، لذا يتوجب علينا إعطاءها كمية من الدم توازي الكمية المفقودة .

نقلت زينب بصرها بسرعة بين محدثتها و الطبيب و قد اكتست ملامحها بالحيرة ، قال لها الطبيب و عيناه لا زالتا معلقتان بحزمة من التقارير الطبية التي يراجعها :

اطمئني يا ابنتي ، يمكنك أن تتبرعي أنت أو والدها بالدم لأجلها ، بالطبع بعد أن تتطابق فصيلة دمها و دم أي منكما ، أو على أسوأ تقدير إن حالت ظروفكما دون ذلك ، فسوف نكتب لك الفصيلة المطلوبة لتشترينها من أي بنك للدم .

سألتها كبيرة الممرضات عن فصيلة دمها ، فأجابت على وجل و كأنها بانتظار نتيجة اختبار مصيري في حياتها :

- (إيه) موجب .

- للأسف يبدو أن البنت تحمل فصيلة دم أبوها ، (أو) موجب .

تسمرت عينا زينب ، و تثاقلت قدماها ، بدا و كأنها في طريقها لإغماءة عميقة ، فتناولت إحدى الممرضات ذراعها اليمنى فيما تولَّت الأخرى يسراها ليساعدانها للجوء لأقرب مقعد ، أجلسنها حتى أسندت رأسها بالكامل للحائط خلف المقعد مغمضة عيناها ، راحت الممرضات يختبرنها لمعرفة احتياجها لإسعاف طبي من عدمه ، أومأت إليهن بعد برهة أنها بخير ، بذلت مجهودا ملحوظا حتى تعتدل في جلستها ، سلطت بصرها نحوهن مرددة :

- شكرا لتعاونكن ، لا تقلقن فأنا بخير ... على الأقل حتى الحين لا أزال بخير .

لم يفهمن كلماتها جيدا ، و لكنهن اصطحبنها لترى ابنتها نائمة من خلال فتحة الباب ، ثم انصرفن بعد أن أخبرتهن بقرب قدوم أخويها لشراء الدم المطلوب .

اتجهت ثانية للمقعد الموجود بالممر بين الحجرات لتلقي بجسدها عليه ، سمعت وقع أقدام مسرعة لأكثر من شخص ، حركت عينيها بهدوء تجاه مصدر الصوت لتجد ولداها و هما يسرعان من خطاهما بمجرد رؤية والدتهما ، لم تنتظر سؤالهما فأخبرتهما على الفور بأن أختهما على خير ، ثم سألتهما بلهجة أقرب إلى التحذير من وقوع كارثة:

- هل أخبرتما والدكما بما حدث ؟

قال أحدهما :

- لا يا أمي ، لم نجد الرصيد الكافي لدينا لإجراء مكالمة دولية .

وكزه أخوه بكوعه موبخا إياه :

- أيُ غباء ، كان بإمكاننا إبلاغه عبر الإنترنت .

- لا .

انطلقت الكلمة من حنجرة زينب كقذيفة مدوية ، شدت انتباه كل من كان في الممر ، استقبل التوأم كلمة أمهما بتبادل النظرات بين بعضهما البعض ، قبل أن تستكمل زينب كلامها بشيء من الهدوء و قد استوعبت أنها لا تزال في المستشفى و لا يجب أن يرتفع صوتها بهذا المعدل أبدا :

- إياكما أن تخبرا والدكما بما حدث .

- و لا حتى أعمامنا يا أمي ؟

- و لا أعمامكما ، لأنهم سيقومون بدورهم بإبلاغ أبيكم .

خرج الولد الآخر عن صمته قائلا :

- و لكن يا أماه ربما كانت فصيلة دم أحدهم تتطابق مع فصيلة دم شذا ، هناك احتمال كبير خصوصا و أنهم أخوة والدي الذي له و لشذا نفس الفصيلة .

لم ترد زينب ، و كأنها لا تجد ما تقوله للصغيرين اللذَيْن تدل بوادر الشعر القصيرة بشاربيهما على بلوغهما سن العناد و الجدال ، أحنى أحد ولديها جسده ليرتكن براحتي ذراعيه على ركبتيه في وضعية أشبه بالركوع مقتربا من أمه الجالسة ليناجيها :

- لم نعد أنا و أخي صغيران كما كنا بالأمس ، نعلم جيدا أن المرأة لا تطيق سماع صوت طليقها ، و أنها تنظر لأي مصيبة تحدث لأبنائها على

أنها تقصير من جانبها و ينبغي ألا يعلم الأب المتربص أي شيء ، و لكن الأمر جد خطير ، فإن أختنا قابعة على سرير بمستشفى في غيبوبة، نحمد الله على أنها بسيطة و لكن متى إذن سيعلم أبوها ؟ فكري يا أمي بالأمر جيدا قبل أن تقرري .

– أعادت زينب رأسها للخلف ثانية و أطلقت تنهيدة عميقة قامت بعدها ضاغطة بيديها على ركبتيها ليساعدانها في القيام ، لتقف أمام التوأم قائلة لهما :

– أعي جيدا كل ما يخطر ببالكما و ربما أكثر ، و لكن كل ما أرجوه أن تمتثلا لتعليمات أمكما ، التي ليست في حالة مزاجية تسمح لها بأن تدخل في جدال من أي نوع ، و اتركا لي مسألة تحديد الوقت المناسب لإخبار والدكما بما حدث ، فأنا كفيلة بذلك .

لم تستقبل أي اعتراض منهما بعد ما أنهت كلامها ، و لكنها كذلك لم تتلق أي ردة فعل تنبئ بأنهما قد اقتنعا بوجة نظرها .

سحبت كلا الولدين من يديهما و أجلستهما لمقعدين متجاورين ، بينما جلست إليهما في وضع القرفصاء مستعينة برشاقتها المعهودة لتكون في مواجهة وجهيهما ، قالت و هي تربت بيمناها على شعر أحدهما :

– ليس بوسع أي منكما مهما اعتقدتما أنكما بلغتما من العقل مبلغه أن تستوعبا إحساس أب في غربة حين يُنبَّأ بخبر مثل الذي تريدان إخباره إياه ، صدقاني ، لي ترتيبي الخاص و كذلك يجب أن تك...

أوقفت كلامها بغتة ، حيث تحولت ملامحها من أم حانية لامرأة

تملكها الرعب لتصرخ بهما :

- أختكما ، أنتما تخوضان في حديث أجوف الآن ، بينما أختكما في أمس الحاجة لكيس الدم .

ظهر عليهما الارتباك بوضوح ، فنهضا مسرعان يتحركان سويا نحو المكان الذي قد أتيا منه في بداية الممر ، لتوقفهما زينب قائلة :

- أين أنتما ذاهبان ؟

هز أحدهما كتفيه ، بينما قال الآخر :

- لا ندري و لك..

قاطعته :

- اذهبا و خذا من حجرة المرضات الورقة المكتوب بها نوع الدم المطلوب ، و تفهما منهن جيدا الأماكن التي من الممكن أن يوجد بها ، وإليكما هذا المبلغ من المال ، لا تعودا إلا و بحوزتكما كيس الدم .

راقبتهما حتى اطمأنت لانصرافهما ، و عادت و هي تجر رجليها تجاه المقعد لتتهاوى عليه ، أسندت رأسها تارة أخرى للحائط مبصرة للسقف ، و لكن سرعان ما أغمضت عيناها كطفل يريد الهرب من شبح بعد رؤيته ، و حدثت نفسها :

- الآن فقط يمكنني أن أعلن إيماني بالقول الشائع أن المصائب لا تأتي فُرادى .

تنهدت بعمق ثم استطردت :

- لا مفر ، نعم لا مفر ، لا بد من اللجوء للمتر عاصم .

لم يتحرج عادل من مصارحته زوجته سميرة بضرورة أن يتملقا محمود و أمل هذه الأيام ، فهما بمثابة طوق نجاة لهما بعد تعثر حالته المالية بشكل ملحوظ ، لم يكن التعثر على صورته المعتادة ، بل أنهم بصحبة أدهم لا يزالون كأسرة يعيشون في مستوىً طيب ، لكن الدخل لم يعد كما كان ، فاستوجب على عادل أن يقوم بشراكة من لم يتأثر بأحداث ما عقب نكسة ٢٥ يناير - على حد تعبيره - فمن يكون غيره ؟ إنه محمود .

لا بد من الاقتراب من محمود بشكل أو بآخر ، عساه أن يشارك عادل فينتشله من وهدة الكساد و العوز ، لا محالة أن تلك الشراكة المرجوة سيكون لها بالغ الأثر في رجوع أعماله لسابق عهدها من الرواج.

يدرك عادل جيدا أن أحد الطرق لإنجاز المهام الصعبة يتمثل في إلحاح النساء ، فإذا كانت المرأة مسيطرة بطبعها على مجريات الأمور فإن الأمر هنا لا ريب سيكون أكثر سهولة ، بل لن يعدو كونه مسألة وقت، لذا أطلق تعليماته لسميرة بزيادة معدل الذهاب لزيارة أمل ، و كذلك لا مانع من مضاعفة دقائق المكالمات التليفونية التي يأمل في أن تصل لساعات ، و لكن حذار أن تقوم زوجته بالطلب أو التلميح بأي شيء مما ينويان طلبه آجلا ، فقط تتودد إليها ، و تجعل لها نصيبا مفروضا من حصيلة النميمة التي تتمتع بتحصيلها يوميا .

كانت هذه نصيحة عادل لسميرة ، التي استوعبت جيدا أهداف زوجها ، تلك الأهداف ستنعكس يوما على حافظة نقودها حين الذهاب

للتسوق ، فكم كانت تشتاق لمنظرها و هي تدخل البيت بشكل شبه أسبوعي ، حاملة أطنانا من الأكياس المليئة بأغراض شتى .

كانت سميرة لسانا لا يمسك عن الكلام ، محطة تجميع أخبار من هنا و من هناك ، و من ثم إعادة بثها للعديد من الآذان من جديد ، وهو ما يجعل منها جليسة لطيفة تمر معها الساعات خلال الجلسات النسائية بسرعة شديدة .

بدأت سميرة خطتها بأن جلست تتحدث لأمل - على غير عادتها- أثناء تجمع العائلة في منزل محمود بالمنيرة أول أيام عيد الأضحى، أثنت ثناءً جما على أناقة أمل وقتها ، ضخمت من رغبتها العارمة لمعرفة المحال التي تبتاع أمل منها ملابسها و اكسسواراتها ، اندهشت أمل في بادئ الأمر ، فهي ترى بعينيها أن المنافسة بينها و بين سميرة في ميدان الأناقة محسومة بالنقاط و ربما بالضربة القاضية لمصلحة سميرة ، ذلك أن ليس من بين مقتنيات أمل من الملابس ما تتعدى قيمته المالية نصف قيمة أرخص ما لدى سميرة ، لكنها تجاذبت معها طرف الحديث و أخبرتها ببعض الأماكن التي ترتادها ، ادَّعت سميرة عدم معرفتها بأماكن تواجدها ، كان هذا مدخلا مناسبا لترافق سميرة أمل زمنا أكبر أثناء تجولهما معا للتسوق ، كانتا تتكلمان في تافه الأحاديث، و لكن تفاهات أمل هي مناح العبقرية بالنسبة لسميرة ، أو كما كانت تريد هي أن توصل تلك الفكرة لأمل .

على الرغم من التنافر الشديد بين السمات المميزة لشخصية

كلتيهما ، إلا أن بذور الصداقة التي ألقتها سميرة سرعان ما أنبتت، خصوصا أنها كانت تجيد إرضاء غرور أمل المتعالية ، فتجعلها دائما و كأنها تمسك بعجلة قيادة العلاقة بينهما ، بل و لا مانع أيضا من التصفيق و التهليل لأي فعلة تأتيها أمل بعد ضربها في ثلاثة أضعاف من حيث المهارة و الحنكة و الذكاء الرهيب الذي حبا اللّه به أمل دون النساء .

لا يمكن القول أن أمل قد تفهمت الأمر على حقيقته أم لا ، ربما تفهمته و لكن كان يروقها أن ترى لها تابعة بهذا القدر من الانصياع، أو أنها لم تستوعب بعد مخطط سميرة و زوجها ، لأنها رغم ذكاءها غير المحدود إلا أنه لم يكن لها سابق معرفة بسميرة تسمح لها بأن تلحظ إن كان هناك تغييرا طرأ على سلوكها أم لا .

أصبحت سميرة في فترة وجيزة وكالة أنباء أمل المتنقلة ، لم تُرِدْ في أول الأمر أن تضع نفسها في خانة الضيفة الثقيلة التي كثيرا ما تفرض نفسها على أصحاب البيت ، لكنها بعد أن صارت مصدر معلومات وتسلية و إرضاء غرور لأمل ، بدأت تتراجع في معدل اتصالها بالأخيرة، كما زادت الفترة التي تفصل بين زياراتها بشكل ملموس ، و هو الأمر الذي كاد يُجن بسببه عادل ، طالما حذرها من أنها سوف تضيع ما حققته في علاقتها بأمل من تقدم ، لكنها و بلهجة بالغة الثقة كانت ترد عليه و هي تمارس رياضتها المفضلة في تقليم أظافرها بمبردها المعدني الحاد دون أن تبرح عيناها النظر لأناملها :

- اصبر يا عادل ، فإنك لا تعلم الكثير من أمور النساء .

بلغ جنون عادل أوجه ذات يوم بعد اتصال أمل بها لتطلب مقابلتها ، ولكن سميرة تحججت بأنها لا تشعر برغبة في الخروج للتنزه ، و ادعت أنها تخشى أن تكون مقبلة على حالة من عدم السعادة اليوم ، انتهت المكالمة فانتهرها قائلا :

- لا بد و أنكِ قد جننتِ ، أبعد كل هذا تتدللين على أمل ؟ أمل يا سميرة ؟

ترد سميرة و كأنها قد بوغتت بقوله :

- أتريدني أن أذهب لأتسوق معها و أترك هُيام تعاني مع العقارب من النساء اللاتي ينافسنها في مسلسل حريم السلطان ؟

استقبل عادل كلماتها بسخط واضح ، انصرف عن متابعة التلفاز، على الرغم من أن مشاهدته كانت الرابط الوحيد الذي يجمعه بسميرة حال وجوده في البيت ، شريطة أن تحتوي الشاشة على صور لحسناوات يشعرن بالحر الشديد ، و هو ما يظهر جليا في ملابسهن الخفيفة أو غير الموجودة .

ظل عادل ينظر لسميرة غير مصدقا ما يسمع ، صرف عادل بصره بعيدا عنها ، و تلقف الجريدة الموجودة على المنضدة إلى جواره، و بدأ في تصفحها ، وهو يلقي بنظرة يملؤها الغيظ محركا رأسه يمنة ويسرة، قبل أن يدفن رأسه في الجريدة التي قربها بشدة من وجهه .

مرت قرابة الساعة و لا يوجد بين الزوجين أي لغة حوار ، تتابع هي

المسلسل ، بينما هو يستشيط غضبا ، يدق جرس الباب فجأة ليخرج أدهم من غرفته فيفتحه قبل أن يقول :

- طنط أمل .. أهلا و سهلا ، تفضلي بالدخول .

سقطت الجريدة من يد عادل الذي لم يبال بها ، بل صب كل تركيزه لمتابعة رد فعل سميرة التي ابتسمت ابتسامة ظفر ، قبل أن تشير له بالوقوف لاستقبال أمل ، فتنبه لإشارتها ، ما إن دخلت أمل حتى وجدت ملامح سميرة و قد اكتست بالحزن و الأسى على غير عهدها بها ، حتى أن أمل لم تنتبه لكلمات الترحيب التي أمطرها بها عادل لمجرد رؤيتها .

اتجهت أمل مباشرة صوب سميرة التي قامت بدورها و طبعت قبلتين على وجنتيها قبل أن تسألها أمل عن سر كآبتها ، جلست سميرة مجيبة أمل في هدوء بينما عادل لا يزال واقفا يراقب بحذر عاقبة فعلة زوجته :

- ألا لعنة الله على المسلسلات التركية ، إنك لا تعلمين لأي درجة تجذبني و تؤثر في ، حتى أنني كدت أذرف الدموع تعاطفا مع ما يفعلونه بالمسكينة هُيام .

سألتها أمل و قد علت شفتاها ابتسامة ما قبل العاصفة :

- أتتابعين مسلسل حريم السلطان ؟

أجابت سميرة :

- نعم .

- لا تخبريني أن هذا هو سبب اكتئابك و امتناعك عن مقابلتي .

تساءلت أمل و هي تحاول جاهدة أن تكظم غيظها ، بينما تخطت

سميرة الإجابة على سؤال أمل ، و لم تبالِ لنظرتها الغاضبة لتقترب منها مرددة :

- سامحك اللّه يا أمل ، فقد كنت سببا لأرقي و سهدي طوال ليلتين كاملتين .

- أنا ؟

ردت سميرة و هي تحتفظ بنفس نظرة الوداعة المتقنة :

- و من غيرك ، فقد لبثت في سريري أغالب الأرق لساعات من فرط تأثري بالمسلسل ، كان يشغل بالي أن هُيام ليست مجرد امرأة غير مألوفة لي ، نعم ، أنا على يقين من أني قد قابلتها من قبل ، أو على الأقل لنقل أنني قابلت من تشبهها جمالا و قوة و شخصية و ذكاء .

صمتت سميرة لتستفز فضول أمل التي انطلقت صائحة :

- و ما دخلي أنا أيتها المراهقة الكبيرة ؟

تعلقت عيناها بعيني أمل و هي تجيب :

- لأنني اكتشفت في آخر الأمر أن المسألة ليست خواطر عالقة في الذهن فحسب ، إنما بالفعل هناك صديقة لي أشبه ما تكون بهُيام .. إنها أنتِ يا عزيزتي .

قبل أن ترتسم أي علامات على وجه أمل ، انطلقت سميرة لتعقب مسرعة :

- لن أصدقك إن أخبرتني أنني أول من يدَّعي هذا .

ظهرت جميع أسنان أمل إبَّان ابتسامتها التي رسمت على شفتيها،

و ضاقت عيناها من فرط السعادة ، فقالت لسميرة و هي تشير لها بالنهوض :

- هيا أيتها الكسولة فأمامنا اليوم الكثير للقيام به .

ثم أدارت رأسها نحو عادل لتقول :

- إلا إن كان لديك مانع بالطبع يا عادل .

تفاجأ عادل الذي كان فكه السفلي قد سقط منه و هو يتابع الحديث الذي عرف بعده أنه يعيش تحت سقف واحد مع أفعى رقطاء ، فلملم نفسه ليجيب :

- أنا ... أنا .. لا .. أنا ليس لدي مانع ، نعم .. ليس لدي مانع البتة .

ثم عاد لدفن رأسه في صفحة الجريدة و هو يحدث نفسه مراقبا زوجته التي رمقته و هي تمر متجهة لغرفة نومهما لتبديل ملابسها بنظرة لا يمكن لكلمات أن تصفها :

- ألم يحن الوقت أيها الإبليس التعس لكي تأتي و تتعلم كيف يكون المكر ؟

خرجت سميرة بعد قليل بصحبة أمل ، و قد قامت الأولى بارتداء ملابسها ، لتودع أمل عادل شاكرة إياه :

- عذرا يا عادل ، فلسوف أحرمك زوجتك الحبيبة لفترة ليست طويلة ، أو لعلها طويلة ، من يدري ؟

ازداد ابتسام عادل و هو يرد عليها :

- لا عليكِ يا أمل ، فلو أردتِ عدم إرجاعها بالمرة لما عاتبتك لذلك .

ضحكت أمل قائلة :

- مؤكد أنك تمزح ، فأين تجد امرأة بهذه الرقة و الوداعة ؟

ضم شفتيه لبعضها بشدة مبتسما ، و قد ضاقت عيناه من فرط التأثر لدعابة أمل ، ثم نظر تلقاء سميرة التي كانت تطالع صورتها في المرآة الموجودة بجوار باب المنزل ، فيقول بلهجة تنقصها الشجاعة :

- قطعا لا توجد امرأة أخرى تعادل مكانة سميرة الحبيبة في قلبي .

تحسست سميرة خد عادل و هي مودعة ممسكة بيد أمل ، ما إن عبرتا الباب للخارج حتى عادت سميرة بدعوى نسيانها لأمر ما ، قالت لعادل الذي لم ينتبه لعودتها من فرط ذهوله إلا بعد أن أحس بوقع دبيب أصابعها على صلعته و هي تقول منتشية :

- الآن يا عادل .. الآن .

تسببت رغبة عزت الجامحة في الهروب من شبح الوحدة أنه أحال منزله من مجرد منزل لمقهى و منتدى و ربما أحيانا للوكاندة إن تطلَّب الأمر .

بعد فقد عزت المفاجئ لزوجته ، لم يعد يملك القدرة الكاملة للسيطرة على تصرفاته ، فبعد أن تُوِّجت قصة حبه لسامية بالزواج الميمون ، بدءا سويا في مواجهة مشكلة تأخر الإنجاب ، إلا أن القدر لم يمهلهما الوقت لمواصلة الكفاح نحو الهدف المنشود ، فاختُطفت منه سامية ، و تركته وحيدا ، انعزل عن المجتمع لفترة ، قبل أن يعاود ممارسة حياته الطبيعية بين العمل و المقهى ، ساعات بقاءه وحيدا بالمنزل كانت تمثل العبء الأكبر الذي أضناه و أرق باله ، فقرر يوما أن يدعو رفقاء المقهى لأن يرتادوا منزله بدلا من الجلوس على قارعة الطريق ، و هو ما نال استحسانهم حيث يوفرون مصاريف مشروباتهم، كذلك يمكنهم القيام بمناظراتهم المشبوهة دون وجل أو ترقب كما هو الحال في المقهى .

كان للمقهى مذاقا خاصا عند مرتاديه ، فهو ذو سقف عال ، وحوائط مرصعة بزخارف رخامية و أرابيسك ، صحيح أنها تبدو و كأن الزمن قد نال منها ، و علتها أكوام التراب ، إلا أنها توحي بعبق تاريخ المكان ، و تحمل بداخلها عبير أخَّاذ من زمن جميل قد عاشوه قبل أن يتلوث كل شيء .

لاحظ صاحب المقهى انصراف العديد من روادها عنها ، ففكر في

عمل تجديدات بالمقهى لتكون أهلا لاستقطاب الشباب الجديد ، الذي لا يروق لهم أن يرتادوا مقهى مغطى بغبار التاريخ ، فتزامن مع انصراف أصدقاء عزت عن ارتياد المقهى أن انصرف كذلك العديد من الرجال و المسنين عن الذهاب ، فبعضهم كانوا قد انصرفوا طوعا لمقهى آخر ، و بعضهم قد انصرفوا كرها لقبورهم .

كان الحال قد وصل بعزت أنه رغم كرهه لرائحة دخان الشيشة، إلا أنه وافق على الفور بأن يتم إحضار شيشتين للمنزل لضمان عدم تخلف أي أحد من الندماء عن الحضور ، دخان الشيشة الذي يكرهه ألفاه أخف من الوحدة و الفكر .

قام كذلك بعمل أكثر من نسخة لمفاتيح الشقة لكي يضمن المرتادون في أي وقت أن الباب مفتوحا لهم ، حتى و إن كان رب البيت غير موجود.

في تلك الفترة بدأ اهتمام عزت بالقراءة يزداد بشكل مطرد ، كان لا يرغب أن يترك نفسه لنفسه طرفة عين حتى لا يعاود التفكير فيما حدث لسامية ، فكان ما بين عمله أو بيته وسط رفاقه أو كتبه ، و بالطبع بدأ يطالع كتب الإلحاد بشكل مكثف ، يقوم كل ليلة بمناقشة ما قرأ من أفكار مع السُمَّار ، فيحتد النقاش بين المعسكرين .

بعد بضع سنوات من العزوبية ، بدأ إلحاح بعض المقربين فيما يتعلق بضرورة الزواج بأخرى ، مشيرين لأن الزواج كفيل بري العود الذابل، لم يستجب عزت في بادئ الأمر ، مع الوقت بدأت القراءة لا تشغل الكثير من وقته ، كما انصرف العديد من الندماء ليعودوا أدراجهم للمقهى

القديم ، خصوصا الإسلاميون منهم ، الذين بدءوا ينظرون لمنزل عزت على أنه صار وكرا لعبادة الشيطان من فرط المجادلات اللا دينية التي تتم فيه ، الأمر الذي تسبب ثانية في شعور عزت بالوحدة ، بدأت كوابيس الشيخوخة تطارده ، و هو ما يستوجب أن يحاول ثانية ربما يرزق بالطفل المنتظر .

عرض عزت الأمر على صديق له ، اصطحبه مسرعا لإحدى قرى البدرشين ، مخبرا إياه أنه يعرف أسرة لديها امرأة حديثة الطلاق، وعلى قدر معقول من الجمال ، و هم ناس طيبون يمكن أن تأمنهم لأن يكونوا أخوال أولادك .

تفاجئ عزت بصغر عمر المرأة التي سيتقدم لخطبتها ، ما فاجأه أكثر هو السرعة التي وافق بها الأب على الزيجة ، علم فيما بعد من زوجته الجديدة في إحدى الليالي الخوالي بعدما أمضيا أمسية حميمية رائعة ، أنها هي ذاتها وافقت بمنتهى السرعة أيضا و لم تتعرض لضغط يذكر ، و بررت له ذلك بضيق ذات اليد ، و أنها لا تملك رفاهية الاختيار كما تملكها من سواها من النساء .

بدت و كأنها مستوعبة جيدا للصفقة المبرمة على يد مأذون شرعي في صورة زواج ، امرأة تحتاج ليد المساعدة لها و لأسرتها ، مقابل استئجارها للتوالد .

قبل اتخاذ عزت قرار الزواج ، بدأ رواد شقته ملاحظة بعض الأمور الغريبة في سلوكه ، فكان على فترات متباعدة يعتزلهم في غرفته، محكما

إغلاقها خلفه ، يبقى بها لساعات دون أن يدري أحدهم ماذا يفعل ، أحيانا يسمعون صوت نحيبه بوضوح و إن كان خافتا بعض الشيء.

كذلك حرصه على صوم رمضان كاملا يثير حفيظة العديد من رفقاء الإلحاد ، ما الذي يدعوه لممارسة طقس ديني أصيل لدى المسلمين، إضافة لعدم مشاركته يوما لهم في شراب الفودكا الروسي الأصيل، مجيبا على استفساراتهم حول الموضوع بأن الخمر تذهب العقل ، صحيح أنه لم ينطق يوما بأنها محرمة ، و لكن لمقولته أيضا إشارة لم يستطيعوا فك شفرتها ليومنا هذا .

تدرب محمود جيدا ليومين كاملين على الأسلوب الذي يجب أن يقابل به زينب حتى لا يلفت نظر زوجته المتربصة ، فكان يعد سيناريوهات مختلفة للقاء و أحداثه ، علها تنفعه في تجاوز أية مفاجأة غير متوقعة .

حاول أن يوازن ما بين حنينه العاتي لتذكر زينب حبه الذي لا يبيد ، و بين مراعاة أن بالبيت من تريد أن تشاطره حتى ذكرياته ، وجد لذة لا حدود لها في استدعاء كل حركة أو سكون من أفعال زينب ، فما بالك إن جاءت بشحمها و لحمها لتتجسد أمامه ، و يستنشق عبيرها الفواح ، الذي يملأ نفسه بهجة و سرورا .

قبل عامين كان قد مر باختبار قاس للغاية ، رسب فيه بدرجة ضعيف جدا ، فكان عقابه كالعادة سيل من التهكمات و الكلمات التي تحمل أكثر من معنى دون مواجهة مباشرة من قِبَل أمل .

تذكر عندما كان جالسا في الشرفة يستمتع بشمس الصباح في يوم شتوي غير دافئ ، كان شاهدا على محاولة الشمس الفاشلة في التصدي لبرودة الجو القارس ، أُعد له مشروب الكابتشينو ، أخذ ينفخ فيه ليطرد حرارته ، دخلت عليه أمل و هي ترتدي روب أسود اللون لتمتص أكبر قدر ممكن من حرارة الشمس بغية التمتع بدفئها ، تمشي بخطوات قصيرة محنية رأسها و ضامة كتفيها لتقليص مساحة جسدها المعرض للبرد ، جلست على المقعد المقابل لمحمود و هي تحك كفيها ببعضهما البعض ، سرعان ما أعقبتها الخادمة بكوب الشاي و طبق صغير فيه قوالب من السكر ، و أخيرا طبق به قطعتان من الكيك، واضعة كل هذا بصحبة ملعقة صغيرة على صينية ، ثم وضعتها بخفة دون إحداث

صوت أمام أمل ، انحنت قليلا و هي تخاطب سيدتها واضعة يديها بين فخذيها قائلة :

- أي شيء تأمرينني بفعله يا سيدتي ؟

- أشكرك ، يمكنك الانصراف .

أمسكت أمل بالملعقة ، بينما كانت تتناول بأناملها قطع من القوالب لتضعها الواحدة تلو الأخرى في الكوب ، و ما أن أتمتهن ثلاثة حتى سألت محمود و هي تقلب السكر :

- هل علمت يا حبيبي بآخر أخبار عائلتكم الموقرة ؟

أجابها دون أن يرفع عينيه عن الجريدة الممسك بها بكلتا يديه :

- هل حضرت سميرة لزيارتك أمس ؟

- و كيف علمت أن سميرة هي مصدر الخبر السعيد ؟

رد بمنتهى الثقة :

- لن تترك صديقتك الجديدة سميرة لأي أحد شرف الاستئثار بمعرفة خبر جديد ، فهذا بشأنها حقا إهانة بالغة .

أطلقت أمل أول ضربات مدفعها الموجه لمحمود و هي تقضم قطعة من الكيك ثم تعتصرها برشفة من الشاي ، ليخرج صوتها متحشرجا متأثرا بما يحويه فمها فتقول :

- عموما .. امممممممم .. لقد تم طلاقها منذ أربعة أيام يا صديقي.

- سميرة ؟

- لا .

قال متضجرا :

- من إذن ؟

أجابت :

- خمن يا زوجي الحبيب .

قال :

- بدلا من مشقة التخمين ، يمكنني أن أكلم سميرة و أسألها .

قالت :

- لا تفعل يا عزيزي ، فأنا أشفق عليك من هذا ، فسميرة لن تزف الخبر إليك بالتدريج كما أفعل أنا الآن ، بل ستلقيه عليك إلقاءً ، و اللّه وحده يعلم ساعتئذ ماذا يمكن أن يحدث .

سأل متأففاً :

- أسرعي بإبلاغي و إلا انصرفت .

و هم بالوقوف ، لتصيح به :

- بل زينب .

قالتها و هي ترفع حاجبيها و قد رسمت على كامل وجهها ملامح البراءة ، ليرتفع صوت محمود :

- أحقا ؟

لم ينتبه محمود لصوت تكسُّر الكوب الذي أطاح به بيده و هو يتخلص من الجريدة ، و الذي تحول لشظايا على الأرض ، و لم يبال أيضا باتساخ ملابسه ببقايا الكابتشينو المتناثرة جراء فعلته ، كل ما فعله أن ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة كادت تفتك بعضلات

فكيه، و هو يحدق في أمل بغية أن تؤكد له أن ما سمعه ليس حلما ، فيما احتفظت هي بهدوئها كاملا قبل أن تضيف :

- ألم أخبرك أن بانتظارك خبرا سعيدا ؟

لم تتغير ملامح وجهه بعد ، ظل صامتا محتفظا بابتسامه ، كان أشبه بمن تعاطى جرعة زائدة من مخدر البانجو ، فصار يسمع الكلام و يدرك الأحداث بعد فترة من حدوثها ، تجاوبت أمل مع الحدث بأن تركت له الفترة الزمنية المناسبة ليستعيد وعيه ، فلم تبد أي علامة سوى النظر إليه .

ما هي إلا بضع ثوان حتى أبدل محمود ملامحه لتتصف بالجدية مجددا، تظاهر بالإحجام و الإباء عن الاهتمام بمثل هذا الخبر ، فراح يقول لأمل :

- و ما الذي يسعدني في سماعي لنبأ طلاق زينب من فهمي ؟

أجابته ساخرة :

- كنت على وشك توجيه ذات السؤال للكوب الذي حطمته دون أن تدري ، و لكن يا له من مسكين ، فقد تحول لأشلاء .

بدأ يجمع خيوط ما فعله ، نظر صوب الجريدة الملقاة و إلى الكوب المتحطم أو ما بقي منه ، و كذلك السحابة المرسومة على سترته الرياضية بلون مشروب الكابتشينو ، عرف آنذاك أنه كعادة الشيطانة المسماة زينب أوقعته في طقس طفولي جديد أمام زوجته ، أدرك أن ما حدث لا محالة سيعكر صفو حياته مجددا ، فكان كل ما نسيت أمل أو تناست أقصوصة زينب ، أطلت الأخيرة برأسها من جديد مخرجة لسانها لأمل و لمحمود كي تنغص عليهما الحال .

راح يخاطب أمل دون أن تلتقي العيون :

- أعلم أن ما حدث مني ملفت للنظر ، و لكنها حتما المفاجأة ، فهل يعقل أن امرأة مثل زينب يتم طلاقها ؟ عفوا ، أعني امرأة في سن زينب، أيٌّ هراء هذا ؟

جارته قائلة :

- و هذا ما أدركه جيدا يا محمود ، فأنا أعلم جيدا أنك نموذج للرجل البار بعائلته ، و لسوف تهتم بمعرفة موضوع زينب ، أليست واحدة من العائلة ؟ لذلك بادرت بمجرد معرفتي بالخبر لأطلعك عليه ، و هذا ما يدعوني للقول بأنك محظوظ هذا الصباح أيها الجد .

تساءل محمود بصوت ينم عن الهزيمة :

- و ما حسن الحظ الذي يصيبني جراء طلاق زينب ؟

أجابته باسمة :

- ليس الأمر كذلك ، و إنما أن تسعد بتدفئة مزدوجة في هذا الجو المتجمد فأنت لا شك محظوظ .

- أي ازدواج هذا ؟

أجابته :

- أن يسقط علي جسدك مشروب الكابتشينو الساخن ، كما يسقط على قلبك خبر الطلاق الدافئ .

ظل صامتا بينما راحت تستطرد :

- هل تعلم أني أشاركك نفس الرأي ، كيف لامرأة مثل زينب أن يتركها زوجها ؟ ... أااااااااااا .. أعني في مثل عمرها ، شيء غريب أليس كذلك ؟

نجحت أمل في أن تصل بمحمود لأن يطمح فقط أن يكون مجرد مثل سائر الأزواج ، بمعنى يأتي بفعل مشين فتغضب زوجته و تغادر المنزل ليذهب بعد ذلك بصحبة أحدا من عائلته ليرجعها مرة أخرى للمنزل ، طبعا هذا كله بعد أن يكون قد أخذ قسطا وافرا من الراحة في العيش منفردا ، لكنه كان يتعامل مع امرأة تجيد استخدام أدواتها ، فإذا تركت البيت ستصطدم بزوجة أبيها ، و إذا صارحت محمود بما لديها من شعور بالامتهان جراء شعوره تجاه زينب لانتقص ذلك من كبرياءها ، إذن يبقى الحل الأمثل هو أن تضعه تحت ضغط بشكل مستمر مستغلة فارق الذكاء الواضح بينهما ، مستفيدة كذلك بعنصر الوقت الذي سيقلل لا محالة من تأجج مشاعر محمود تجاه زينب ، كما أنه كفيل أيضا بأن يقلل من وقع الصدمات على أمل ، و التي تأتي بين حين و آخر من تصرفات محمود غير المسئولة .

ما كان ما حدث لمحمود ذاك الصباح إلا تمرينا جديدا من التمارين القاسية التي تجبره أمل على أدائها على فترات ، فكانت إحدى ثمار العلاقة المستجدة بين أمل و سميرة أن أنبأتها الأخيرة بالحدث فور علمها به ، تلقفته أمل بلهفة لتضع قطعة الجبن الرومي للفأر من جديد.

حقيقة الأمر تنبأنا أن أمل لم تتلقف الخبر بلهفة فقط و إنما بقلق غير بسيط ، فإن أحد أسباب اطمئنانها للاستئثار بمحمود دون سواها كان أن غريمتها امرأة متزوجة ، و هنا لا بد من إدراك أنه ليس بوسع الفتى العاشق إلا أن يناجي خليلته دون ترجمة المناجاة لفعل ملموس ، أما الآن فقد ... فقد ...

قد أصبحت القطة الآن حرة ، و هي بحاجة ماسة لأحدهم لإصلاح ما تم كسره بداخلها ، و من المؤكد أن أحدهم هذا لا بد أن يكون ممتلكا ليد حانية و قلبا مبطن بالوفاء حتى يفي بالغرض .

حاولت أن تضع نفسها مكان زينب لتبحث عن رجل المرحلة ، الرجل المناسب في المكان المناسب ، أدارت الموضوع برأسها – الذي هو الآن رأس زينب – لتجد أنه هو لا محالة ، روميو العصر البائد ، نعم ستُحكم شباكها حوله و توقعه في زمن قياسي ، و سيساعدها هو بانهيار مقاومته مسبقا أمامها ... و لكن ... هل من الممكن لمحمود أن يأتي مثل هذا الفعل؟ أنا أعلم جيدا طبائع الرجال ، و قد أثبتت الأيام صدق الحاجة أنيسة فيما أخبرت عنهم ، و لكن هل ينسى محمود ما فعلته لأجله طيلة سنوات عجاف مرت بهما ؟ و هل ينسى أيضا ما كان منها تجاه والدته ؟

كل هذه الخواطر كانت تجول في رأسها و هي تراقب أقدم شجرة ليمون في الحديقة ، بينما ترشف رشفة تلو أخرى من الشاي الذي بدأت حرارته تخفت باطراد ، أما خواطر محمود فكانت تجول في رأسه و هو ممسك بالجريدة من جديد مسلطا عيناه على صفحة الأخبار الرياضية ، عجبا لك يا زينب ، لقد أحلت الرجل الذي لم يكره يوما أكثر من مباريات الكرة ، لرجل يشاهد بل يطالع أخبارها في الجريدة يوم إجازته .

كان محظوظا لانشغال أمل بما عنَّ لها من خواطر ، لأنها لم تره يوما يقرأ لنقاد رياضيين ، إنما هو في واقع الحال لم يكن يقرأ ، و لكن كان يواري تخبط سحنته بين السعادة و الوجل و القلق و التحفز .

- لا تقلقا يا سيدتاي الجميلتان ، فهذه الإشارة السخيفة هي آخر عنقود الإشارات التي قابلتنا في طريقنا للحفل .

قالها زكريا بهدف تخفيف التأفف الذي بدا على زوجته و ابنته كنتيجة لحالة المرور التي هي أشبه بالسكون منذ أن استقلوا السيارة إلى الآن ، فتجيبه رقية قائلة :

- أثلجت صدرينا أنا و ابنتك يا زكريا ، فقد بلغت الروح الحلقوم .

عاد ليقول :

- كان هذا هو الخبر الحسن يا عزيزتي .

مدت أميرة رأسها لتتمكن من رؤية أباها في المرآة المعلقة أمامه لتقول في حذر :

- توحي لهجتك يا والدي بأن هناك خبرا آخر يتسم بالسوء .

يجيبها و قد نجحت خطته في الإعداد لدعابة جديدة :

- نعم يا ابنتي ، فإن كانت هذه حقا آخر إشارة ، إلا أننا لن نمكث فيها أقل من ربع الساعة .

دفعات متتالية من الضحك ، هذه المرة شاركته أميرة ضحكته بالفعل لكن لوقت أقل ، فما كان زكريا يوما ليمكن أحدا من تحطيم رقمه القياسي في طول الضحكة و قوتها .

بينما كان يتأهب لإنهاء ضحكته ، اضطر لإيقافها فجأة بعدما سمع قرع أحدهم على النافذة المجاورة له ، نظر زكريا صوبه ليتأكد

أنه ليس من هؤلاء الذين فاتهم القطار و يريدون ثمن التذكرة ليلحقوا بالقطار القادم ، فوجد هيئته لا تدل على ذلك ، قام بإنزال زجاج النافذة،

ليجد شابا على أعتاب مرحلة الرجولة يقف باسما ، محنيا جزعه ليتمكن من التحدث لأستاذ زكريا الجالس على كرسيه :

- ما أسعدني اليوم بلقائك يا أستاذ زكريا ، هل تذكرني ؟

لم يقف الشارب المستحدث و لا قصة الشعر الجديدة عائقا أمام زكريا ليتذكر أحد تلاميذه النجباء ، فابتسم قبل أن ينطلق الشاب في حماس :

- أنا أحد تلاميذك يا أستاذي و الذين لا ينسون أبدا ما كنت ت..

قاطعه زكريا سريعا :

- نعم .. نعم .. مؤكد .. أنا أذكرك ، فقد كنت أحد أذكى طلابي ، وأكثرهم قدرة على التحصيل .

تابع الولد بعينين ممتنتين :

- يعود الفضل كل الفضل بعد ربنا سبحانه و تعالى لما فعلته معي ومع آخرين بالطبع ، فلولا ذلك لما تمكنت يوما من أن أكون ما أنا فيه .

سأله عزت بلهجة بدت للشاب و كأنها بهدف تغيير طبيعة الحوار :

- و ماذا تعمل الآن يا ولدي ؟

- أنهيت تعليمي الثانوي و التحقت بالجامعة ، منذ تخرجي و أنا أعمل بأحد شركات السمسرة و المضاربة في البورصة ، وفقني الله لاحتلال مركز مرموق فيها في زمن قصير ، لذا بمجرد رؤيتي إياك نزلت من سيارتي بهدف تقديم الشكر و العرفان لحضرتك .

نظر زكريا تجاه السيارة المجاورة له ثم أعاد بصره للشاب وهو يسأله في اندهاش :

– أتترك سيارتك هكذا في قارعة الطريق ؟

– أنت تدري يا سيدي أننا بانتظار فترة توقف طويلة نوعا ما ، فنحن في نهاية مدينة نصر ، كذلك لا يوجد ما يمنعني أبدا عند رؤيتك من أن أنال شرف مصافحتك ، فأنت صاحب فضل علي ، و أن لا أنسى أبدا ما...

استوقفه زكريا مرة أخرى قبل أن يسترسل في الكلام و هو ينظر بارتباك نحو زوجته التي تصغي باهتمام ، بدا عليه أن خامره الخوف من أن يطنب الشاب في الكلام أكثر من ذلك ، فقال في لهجة مضطربة :

– أعلم ذلك يا ولدي ، و لكن الفضل لله و لاجتهادك ، وفقك الله و في انتظار دعواتك لنا أيضا بالتوفيق .

ختم جملته بابتسامة ودودة لكنها مصطنعة ، استنتج الشاب الفطن أن الأستاذ يرنو لإنهاء الحوار لسبب ما ، فانسحب للخلف مطأطأ رأسه و هو يردد :

– في أمان الله أستاذي العزيز ، في أمان الله .

تابعه عزت بذات الابتسامة حتى تأكد من أنه استقل سيارته و أغلق بابها ، أخذ يفكر في إيجاد ردود للأسئلة المتوقعة من زوجته على الأقل و التي بدورها قالت بعينين مليئتين بالخبث :

– ما أجمل أن يحتفظ البعض في أيامنا هذه بصفة الوفاء .

رد بسرعة :

– نعم يا عزيزتي ، و لكن صدقيني إن الأمر يتكرر كثيرا ، و هذا ما يهب الصبر للإنسان لكي يتمكن من الاستمرار في العمل .

– و هل في كل مرة ترتبك هكذا لمجرد رؤية أحدهم يا زكريا ، لا بد

أن في الأمر شيئا تخشى إطلاعنا أنا و ابنتك عليه .. نعم حتما في الأمر شيء .

لم يجبها زكريا ببنت شفة ، لأنه لم يسمع منها أي كلمة ، حيث اكتفت بترديد ما بدا لها من خواطر بينها و بين قلبها الوجل .

ذكرها تاريخها مع زكريا أنه من النوع الذي لا يخشى عليه من النساء، و لكنه لا يزال رجلا يتمتع بالصفة الدميمة التي يتمتع بها سائر الرجال ، و لكن ما دخل ذلك الشاب بالأمر إن كان كذلك ؟

كانت تثق بشدة في إمكانيات زوجها المهنية ، مدرس لا يشق له غبار، متمكن حاذق ، إضافة لأنه يتسم بسمة يفتقدها أقرانه ممن لم ينعموا بالحصول على إعارة لدولة خليجية ، و هي سمة الصبر ، حيث أن ما كانوا يعانون منه من بعض الطلبة الأغبياء ، كان يعد بالنسبة له نزهة تدريسية، خاصة بعد أن تعامل مع تلامذة من عينة غير موجودة في الدنيا بالمرة أثناء البعثة ، لذلك بعد أن جرب الحد الأدنى من الفهم و الاستيعاب، صار أي مستوى من الاستيعاب قياسا بهم يعتبر عبقرية مستترة .

قالت لنفسها و قد عزمت العزم :

- سحقا ، لن تجدي هذه المرة زيارة الحاجة أنيسة ، لا بد إذن من استشارة المتر عاصم .

بعد فترة من استقرار علاقة أمل بمحمود ، اعتادت أمل على زيارة الحاجة أنيسة التي صارت صديقتها المقربة ، ازدياد معدل الزيارات بينهما كان بسبب جيرتهما في المنيرة ، كذلك افتقار أمل ذات الطبع الحاد لتكوين أية صداقات مع من هن في مثل عمرها .

ذات مرة ، دلفت أمل للداخل و هي تعبة منتفخة البطن ، وأنيسة تعاونها بأن أمسكت بكوعها بعد أن أحست أنها تعاني شيئا من الإعياء ، جلست أمل بحرص مفرجة بين ساقيها عن آخرهما ، قالت لها أنيسة :

– لو كنت أيتها المرأة ذات الرأس العنيد تنفذين ما يتم نُصحكِ به لما عانيت مثلما تعانين الآن .

أجابت أمل بينما كان صدرها يعلو و ينخفض بسرعة من شدة الإجهاد :

– أعلم و الله يا حاجة أنيسة ، و لكن يبدو أن ما تتناقله النساء عن صعوبة الحمل للمرة الأولى ليس بإشاعة ، فأنا ألتزم كافة تعليماتك وكذا تعليمات الطبيب ، و لكن دون جدوى .

– اعذريني يا ابنتي في إلحاحي عليكِ ، فأنا أدرك أكثر منك خطورة الشهور الأولى في الحمل ، و أريدك أن تتجاوزينها على خير ، و بعد ذلك ستهون عليك الأمور إلى حد كبير .

تابعت أمل :

– أعلم ذلك جيدا يا أمي ، و لكن يبدو أن المولود سيتعبني و يرهقني كما يفعل أبوه ، و ما يحدث الآن ما هو إلا بوادر ذلك .

نهضت أنيسة و راحت تحضر شيئا لتحتسيانه ، كلمت أمل وهي تراقب رفوف الثلاجة المفتوحة أمامها :

- أيتها الطماعة ، لقد استطعت في غضون عام فقط أن تجعلي من زوجك روبوت يتحرك طوع أمرك بمجرد ضغطة من إبهامك على زر الريموت .

ضحكت أمل بشدة ، و لكن سرعان ما أغمضت عينيها و جزت بصفي أسنانها على شفتها السفلى و وضعت يدها اليسرى على جانبها، الذي يبدو و كأن الضحكة قد آلمته ، ثم أطرقت لبرهة قبل أن ترتسم على ملامحها الجدية التامة و هي تخبر أنيسة بسر أخفته حتى على أقرب الناس لها ، محمود ذاته :

- هل تعلمين يا حاجة أنني صرت أعشق محمود حتى النخاع ؟

- أحقا يا أمل ؟ صرت تعشقينه ؟

صححت لأنيسة قائلة :

- لا ... لا أعشقه فقط ، بل أذوب عشقا ..

صرفت بصرها عن أنيسة لترمي به تلقاء السقف ، بدا عليها وكأنها انتقلت لعالم آخر غير مدركة لما حولها من ظرفي الزمان و المكان، راحت تردد :

- كثيرا ما يؤرقني تعب الحمل فاستيقظ دون إيقاظ محمود، فاجلس مسندة رأسي لمؤخرة السرير أتأمل ملامحه ، و أحرك يدي على شعره كأنني أتمرن عليه تمرينات تنويم الأم لولدها ، و كذلك أقوم ب و و ....

تركتها أنيسة تسترسل في أحلامها الوردية ، و اكتفت بوضع خدها

الأيمن على راحة يدها اليمنى في وضع أفقي ، أستندت لفخذها بواسطة الكوع لتراقبها باسمة و كأنها ترى فيلما رومانسيا تم إخراجه بحرفية عالية ، بعد أن أفاقت أمل من اللاوعي حركت رأسها لتتأكد من وجود أنيسة إلى جوارها بعد أن اختفى صوتها لفترة كبيرة ، فوجدتها هي التي أصبحت في منطقة اللاوعي ، فوكزتها بخفة في جنبها لتشعر أنيسة بقشعريرة تنتفض لأجلها ، فتسألها أمل :

- يبدو أنني قد ذكرتك بمغامراتك مع الحاج منصور ، أليس كذلك؟

اكتفت أنيسة بابتسامة خفيفة مغلفة بقدر من الخجل ، لكن أمل زادت من إلحاحها :

- لا .. لن أتركك أيتها الأنيسة قبل أن تقصي علي قصة غرامكما ، هيا قصي .. قصي .. ق ..

- حاضر ، حاضر أيتها اللحوحة : و لكن سوف أختصر بشدة .

- لا ، لن أتركك حتى تفرغين كل ما في جعبتك .

قالت أنيسة بلهجة طفولية :

- إذن لن أتحدث .

انطلقت أمل :

- طوع أمرك يا سوسو ، افعلي ما بدا لك و سألتزم الصمت .

بدأت أنيسة حديثها بتنهيدة عميقة كعادة بداية أي قصة رومانسية ثم قالت :

منصور هو الأخ الأكبر لخمسة أخوات ، انتقل هو و أخوه عاصم فقط للعيش بالقاهرة بصحبة أبيهما ، بينما تُركت البنات اللاتي كن

قد تزوجن في الصعيد، كل مع زوجها ، والده كان من أثرياء سوهاج ، ترك له الورشة كما تعلمين ، كما ترك له و لأخوته أرضا ومالا، علاوة على سمعة العائلة المميزة في البلد ، و حتى هنا في المنيرة ، و هو ما جعله مطمع لمن تطمحن بالزواج من بنات العائلة ، و عائلة العائلة ، حتى المعارف و الجيران .

سنحت لي الفرصة يوما أن أدخل السباق في المنافسة على الاستحواذ عليه ، لم أضعها ، خططت لها جيدا ، و نفذت ما خططت ، و ها أنا ذا أعتلي منصة التتويج .

لمعت عينا أنيسة بغتة ببريق التحدي المخيف و هي تتابع :

- و لن أتنازل يوما عن الميدالية الذهبية ، لن أتركها لإحداهن يوما مهما كلفني الأمر .

ضاقت عينا أمل و اتقد ذهنها في محاولة لتفسير الحالة التي آلت إليها أنيسة ، و لكن لم تُمهل الوقت الكافي لذلك ، حيث أعلن جرس الباب عن قدوم ضيوف ، و هو الصوت الذي لم تنتبه له أنيسة أول الأمر، رغم شدته ، و لكن ما إن أعاد الزائر الكرة و ضغط على الزر لفترة أطول من سابقتها حتى أفاقت لتقول لأمل :

- عذرا يا ابنتي ، سأذهب لأستكشف من بالباب .

لا زالت أمل تتابع أنيسة و هي تمضي قدما نحو الباب فتفتحه ليندفع عبره رجل و امرأة ، منعتهما أنيسة من مواصلة التقدم للداخل بأن مدت ذراعها اليمنى على آخر طولها أمامهما ، و هي تراقب أمل لتختبر مدى تركيزها فيما ترى ، تناولت الأخيرة مجلة كانت ضمن

إحدى المجلات الموضوعة على المنضدة التي أمامها لتتظاهر بانشغالها بتصفحها ، حتى لا تتسبب في أي حرج لأنيسة .

لم يتسن لأمل سماع الحوار القصير الذي دار بين أنيسة و الضيفان، غير أن لغة جسد أنيسة أثناء الكلام كانت تلمح لانفعالها عليهما لقدومهما دون سابق إنذار ، ثم ما لبثت أن أشارت لهما بالاتجاه نحو مكان المطبخ .

كان لهيئتي الرجل و المرأة وقعا مريبا على نفس أمل ، التي م شاهدتهما فتوجست خيفة ، حملت هم أن يقدما عليها و يمدان يديهما فتضطر لمصافحتهما ، ليس فقط لعدم نظافة هندامهما ، و لكن كذلك للنظرات المخيفة التي كانوا يرسلانها صوبها بينما كانت تحدثهما أنيسة بصوت خفيض ، حيث كانا يختلسان النظر بالتبادل تجاه أمل و كأنهما قد عثرا على كنز كانا يتطلعان للعثور عليه ، حتى أنهما لم يستجيبا لأنيسة التي كانت تستعمل كلتا يديها لتعيد اتجاه رأسيهما لينظرا صوبها ، و يدعان أمل و شأنها ، و لكن هيهات .

تعجبت أمل كذلك لفعل مقزز فعله الرجل ذو الملابس الرثة ، كان قد بصق على الأرض ثم مسح فمه بكم جلبابه دون أي اعتراض أو امتعاض من أنيسة ، أنيسة المرأة المصابة بوسواس النظافة ، كيف يروق لها فعل كهذا؟ بينما جلب فعل الرجل لأمل الشعور بالقيء إضافة للقيء الطبيعي الناتج عن الحمل .

تأكدت أنيسة من دخول الضيفان الثقيلان حيث أمرتهما ، تنفست الصعداء ، و وقفت لثانيتين تستعيد فيهما توازنها ، ثم ترجلت باتجاه

أمل لتقول قبل أن تباغتها الأخيرة بأسئلتها :

- ما أقرب حي السيدة زينب من حي المنيرة ، و ما أكثر فقراء ومجاذيب ذلك الحي ، كنت أتمنى التكتم على أعمال الخير حتى لا تعلم شمالي ما أعطت يميني ، و لكنك لست بغريبة يا أمل ، لذا أتمنى عليكِ أن تكتمي السر لأحوز على أكبر قدر ممكن من الحسنات دون أن يكون هناك شبهة رياء .

لم تسترح أمل للهجة أنيسة ، بل لم تقتنع بمنطقها ، إلا أنها كانت تريد أن تصدق ، لئلا تفقد الثقة بالإنسانة الوحيدة التي استطاعت أن تحتويها ، فصدقتها دون تمرير الأمر على عقلها الذي حتما كان سيتحفظ على ما رأى ، فكيف لأنيسة المرأة المشهورة بإحسانها أن تعامل من يقصدونها بتلك الطريقة الفجة ؟ كما أنها كانت تستطيع إعطائهما ما يريدان دون إدخالهما للمطبخ ، علاوة على ارتباكها غير المبرر الذي بدا و لا يزال يبدو عليها حتى الآن ، أنيسة امرأة تحب الخير و تفعله و لا تباه به ، و لكن .. و لكن ..

أرادت أمل ألا ترهق أنيسة أكثر من ذلك ، فقامت و هي تقول بلهجة يغلب عليها التعب :

- دعيني الآن أذهب يا أنيستي لأعد الطعام لمحمود ، كذلك أتركك لتتزيني لاستقبال العاشق الولهان الحاج منصور ، فقد أوشك على الوصول ، و ربما كنتما بحاجة لقضاء بعض الوقت سويا قبل مجيء الصغار من المدرسة ، لا أقصد بالطبع شيئا ، و لكن ربما وددتما الحديث حول محادثات جينيف للسلام مثلا .

تجاوبت معها أنيسة بشدة ، مطلقة ضحكة أعقبتها بالقول :

- أيتها الشقية أمل ، أتعتقدين أن كل الأزواج مثلك أنت و محمود ؟

قالت أمل و هي تفتح الباب :

- مثلي أنا و محمود ؟

ثم ضمت شفتها في وضع كوضع التقبيل لتحركهما يمينا و يسارا دورتين في إشارة لتعجبها من قول أنيسة ، و انطلقت لتفتح الباب و تقول :

- كثيرا ما ظننت أن ما فيه الآن من انتفاخ بطني بولي العهد ، إنما جاء نتيجة غلطة بين زوجين .

لم يكن الأمر على هذه الدرجة المبالغة التي صورتها أمل لأنيسة ، لكن لا بد أيضا من أن تحتاط المرأة تجنبا لأن يصيبها الحسد ، أنيسة طيبة القلب و لكنها إنسانة ، لذلك كانت نفسها تحدثها و هي تخدع أنيسة فتقول دون صوت : يا لك من امرأة كذوب يا أمل ، أيدفعك خوفك من الحسد لخداع أمك أنيسة ؟

أغلقت الباب دونها ، ثم بدأت في النزول على درجات السلم بحرص، راحت تفكر بما رأته للتو من أنيسة و في منزل أنيسة ، ما كانت أنيسة يوما لتترك أمل تعود لبيتها بتلك السرعة ، فقد كانت أمل تعاني كل مرة من إلحاح أنيسة الشديد عليها بالبقاء لمدة أطول ، كما كان الأمر يمتد أحيانا لجذبها من يدها أو إخفاء مفاتيح البيت ، و ما إلى ذلك من حيل المصريين عندما يريدون من ضيوفهم عدم المغادرة ، و لكن اليوم .. اليوم .. لا ، لا شك أن هناك أمرا ما .

تغير الحال كثيرا داخل ورشة منصور خاصة بعد أحداث الأزهر، حيث لم تعد تسعفه صحته للبقاء في الورشة معظم الوقت كما كان ذي قبل ، و وليد منذ أن بدأ عمله كمهندس ديكور لم يعد يملك الوقت الكافي لذلك ، إضافة إلى أن تقاعد الأسطى بهجت أثر سلبيا على سير العمل ، و لم تفلح محاولات منصور لإبقائه رغم الإغراء بزيادة الراتب، الورشة لم تسقط بعد ، فهي تستند على سمعة و تاريخ يمكناها من الصمود أمام الظروف غير المواتية ، لكنها لم تعد تدر دخلا وفيرا كسابق عهدها .

استعد بهجت قبل الجلوس للحاج منصور لتقديم استقالته جيدا، كان يعلم أن استغناء منصور عمن هو أقدم منه بسنوات طوال في الورشة ليس بالأمر السهل ، لذلك لا بد لمنصور أن يبذل ما في وسعه لإثناء بهجت عن مراده ، لا بد أيضا لبهجت أن يبذل هو الآخر ما في وسعه لتحقيق هدفه دون أن يخسر ود منصور ، و قد تحقق لبهجت ما أراد ، خاصة و أن شخصيته كانت مؤهلة لفعل لذلك .

بعد أن قام والد منصور بشراء الورشة استبقى بها العديد من العمال، مع الوقت لم يرُق الكثيرون منهم لوالده ، الرجل الصعيدي الذي يريد أن يتعامل معه الجميع بالتزام ، لا يجور على حق أحد شريطة ألا يجور أحد على حقه ، كان الوحيد الذي استمر منهم في الورشة بعد ذلك هو بهجت ، أحسن قراءة شخصية صاحب المكان الجديد ، واستطاع التعامل معه كما ينبغي ، كان له دور ملموس في تكبير الورشة و تحويلها لقبلة للسيارات المصابة أو الخربة في نواحي المنطقة، و قد أكرمه الرجل و أوصى منصور بذلك بعد اتجاهه لمساعدة أبيه ،

لكن بهجت لم يشهد أياما أسعد من أيام استئثار منصور بالورشة بعد وفاة أبيه ، بل بلغت سعادته ذروتها عند زواج منصور .

احتج بهجت طول الجلسة بضغط أولاده عليه لترك العمل في الورشة، و قالها صراحة لمنصور :

– لقد صاروا يتحرجون من مهنتي يا حاج أمام زملائهم ، فكما تعلم يا سيدي أن أربعتهم خريجو الجامعة ، كانوا في البداية يشيرون لضرورة تقاعدي بحجة أنني قد كبرت و آن الأوان لكي أستريح ، أما الآن فقد صار الأمر أشبه بالتصريح : إما عملك و إما نحن .

– استشعر في نبرتك يا بهجت وقع ألم حاد و سخط على أولادك، و لكني لن أعمل لدفعك في هذا الاتجاه ، فهم أبناؤك قبل كل شيء ، ورغم أنني سأفتقدك أيما افتقاد ، إلا أنني سأحسن نهايتك معنا ، وسأصرف لك مكافئة أعتقد أنها تليق بمن حمل العمل على كتفيه إبان عصر والدي و كذلك معي أنا شخصيا .

– أنا أدرك ذلك جيدا يا حاج منصور ، فأنا أعلم مع من أتحدث، وسأقوم بدوري بالانتظام في العمل حتى نهاية الشهر لتدريب حمادة الذي أظنه أهلا لكي يخلفني .

كان بهجت صادقا فيما روى لمحمود عما حدث من أبناءه ، لأن ذلك قد حدث بالفعل ، و إن لم تكن تلك هي المرة الأولى ، فتكرار التهديد من قبل الأبناء و عدم تنفيذه كان ليدل على عدم نيتهم لتنفيذ الوعيد ، وهو ما يدل على عدم صدق بهجت في أن هذا هو السبب الحقيقي لنيته ترك العمل .

بهجت الرجل ذو الاحدداب المحدود في ظهره ، قصير القامة ، ذو العينين الجاحظتين ، قد تأثر دخله بعنف عقب حادثة الأزهر ، كان قبل ذلك يعاون منصور في عمل إضافي ، لا يعلم عنه أحد شيئا سواهما ، يختفي لساعات لقضاء مصالح غير معلومة للحاج ، في تلك المرحلة أغدق عليه الحاج العطاء ، فصار دخله مرتين و نصف دخله عن ذي قبل ، كذلك بعد زواج منصور استعملته أنيسة العروس الجديدة ككاتم سر يقضي لها مصالحها التي تخفيها حتى عن منصور ، و كان المقابل المادي لذلك مقابلا مغريا ، و قد استمر هذا الوضع لسنوات .

كل هذا تبدل بعد مقتل علاء ، ليعود بهجت لخانة كبير العمال فقط ، لذلك عزم العزم على الانصياع لرغبة أبناءه في ترك العمل ، متحججا أمام منصور بإلحاحهم عليه .

لم يفارق ذاكرة بهجت الموقف الذي تعرض له ذات يوم بينما كان ينزل درجات سلم بيت منصور ، استوقفه منصور الذي كان يصعد السلم في الطابق الثاني بعد أن كان هابطا من عند أنيسة فسأله في حدة :

- ما الذي أتى بك هنا الآن يا بهجت ؟

رد بهجت و هو يحني رأسه قليلا :

- أعزها الله الحاجة أنيسة كانت قد هاتفتني في الورشة أمس لتخبرني بألا أبتاع غداء للعمال اليوم ، حيث أعدت لنا بيديها الشريفتين الطعام من بقايا ذبيحة الأسبوع الماضي .

حدجه منصور بنظرة عميقة لاستبيان الغموض المحيط بالموقف

قائلا و هو ينتزع منه السلة الكبيرة التي يحملها في يده :

- دعني أرى أي نوع من الطعام خصتكم به أنيسة اليوم .

تنفس بهجت الصعداء بعد أن أنهى منصور تفتيشه للسلة ، خاصة و أنه اكتفى بالتفتيش في الطبقات العليا فقط ، و لم تتغلغل يداه لأعمق من ذلك ، ليودعه منصور قائلا :

- بالهناء و الشفاء لكم جميعا ، انصرف أنت الآن و لا تنسى موعدك الهام عصر الغد .

تابع منصور صعود درجات السلم بعد ذلك موبخا نفسه :

- سُفّهتَ يا منصور ، أبعد كل هذا العمر تشك في أنيسة ... تبا لك .

قرر ألا يذكر لأنيسة ما حدث بيه و بين بهجت ، و قف لبرهة أمام باب المنزل قبل أن يفتحه حتى تستعيد ملامحه شكلها المعتاد ، ثم هم بفتح الباب ليجد أنيسة قادمة من المطبخ و هي ممسكة بمنشفة لتجفيف يديها ، ما أن رأته حتى علمت بضرورة رؤيته لبهجت لضيق الفارق الزمني بين مغادرة الأخير و قدوم الأول ، فانتظرت رد فعل منصور محاولة إخفاء القلق في محياها ، و هو ما لم يلحظه منصور لانشغاله هو الآخر بنفس الغرض ، إخفاء ما يعتمل في نفسه عن أنيسة كيلا لا يحزنها ، مرت فترة على وجود منصور فاطمأنت لأن حسن إعدادها للسلة قد أتى ثماره و أفلحت خطتها .

يعتبر المشهد الرئيسي في حفل العام الماضي هو الحوار المتبادل بين عزت و منصور ، استطاع جذب اهتمام الجميع صغيرهم و كبيرهم على السواء ، جعلهم جلوسا كأن على رؤوسهم الطير من بداية الحوار لنهايته ، حتى أن أحدهم لو طُلِب منه أن يعيد ما سمعه بالتفصيل لفعل دون وجود أخطاء تذكر ، إلا شخص واحد فقط ، لم يتمكن من التركيز الكامل .

أجبرت سميرة ولدها أدهم على الجلوس إلى جوارها ، و قد وزعت وقتها بين أمرين رئيسيين ، الأول هو التقاط أي بادرة نميمة تنطلق من هنا أو من هناك لتتفاعل معها ، و الثاني مراقبة أفعال أدهم تجاه الإناث الموجودات بالحفل لكبح جماحه قبل أن يسترسل ، علما بأن والديه قد أكدا عليه قبل القدوم للحفل على ضرورة أن يلزم غرزه ، وهو ما كانا يوقنان بعدم التزامه به .

للحق أن الولد قد بذل ما في وسعه لتحقيق رغبة أبويه ، لكن مع الوقت كانت نفسه تحدثه بأمور لم تمكنه من الالتزام الكامل ، فكان يرسل نظراته صوب النساء و نفسه تحدثه :

- لا شك أن هذه الملابس الحمقاء التي وضعن أنفسهن بداخلها تحوي العديد من الخيرات ، و التي إن ظهرت على طبيعتها لأبدلت جو الحفل من جو سخيف لجو بهيج .

لو توقف الحد عند خواطره لما كانت هناك مشكلة ، إنما كانت عيناه، بل ملامحه بالكلية ، تصطبغ بصبغة ذئب بشري قد عزم العزم على التهام فريسته للتو ، عنقه يكاد ينبري من كثرة ليه يمينا و يسارا ، فلا يكون من سميرة إلا أن تلدغه لدغة موجعة من فخذه الأقرب إليها لينتبه

لأن من يجالسهن الآن هن قريباته ، يصمت لفترة لاتقاء لدغات سميرة، ثم يعاود ليسدد اللعنات على التقاليد العائلية التي تقيد من حريته ، تنتهي فترة الهدنة بينه و بين أمه فيعاود ما قد فعل فيُلدغ من جديد .

قرر أن يسلي وقته بأن يحاول تجميع امرأة صاروخية من قطع الغيار الموجودة لدى الحاضرات ، نعم ، حيث كان يقول لنفسه :

- لو أننا أخذنا من كل واحدة عضو معين و جمعناه مع أعضاء أخرى من زميلاتها لاستطعنا تكوين أنثى قلما يجود بمثلها الزمان ، فمثلا أليس حراما ألا يكون شعر سالي هذا على وجه طنط زينب ؟ و ماذا لو أخذنا أفخاذ أميرة بصحبة شعر سالي و وجه زينب لينضموا جميعا لخصر رشا المشوق ، و كذلك لا شك إن نجحنا في أن نؤثر صديقة رشا بأن نستخلص منها مؤخ ...

أفاق مرة أخرى من خيالاته بلدغة أقوى من سابقاتها من أمه التي لا حظت سقوط فك ولدها السفلي و تصلب حدقتا عينيه ، فقررت لدغه لكي لا يتعمق أكثر ، بعد أن سددت له اللعنات على شيطنته و خواطره البهيمية ، حينها اغتاظ أدهم بشكل ملحوظ ، فقد كان مقبلا على الأعضاء الأكثر أهمية ، و التي بوجودها كانت ستكتمل الصورة النهائية لفينوس المنتظرة .

- من الظلم يا أمي ألا تتركي لصديقة رشا الفرصة لتتناول مع زميلاتها من الكعكة . قالها أدهم لنفسه و هو يندب حظه .

رسم خطة محكمة للإيقاع بأميرة ، بعد طول دراسة للموقف كان يعدها الأنسب لترطيب الجو الذي يزداد جفافا حوله ، قرر أنهم بعد

تناولهم للطعام سيبدأ بسؤال أميرة عن بعض الاهتمامات المشتركة بينهما ، حيث كانا يدرسان في كلية التجارة الإنجليزية ، و إن كانت هي في جامعة حكومية بينما هو في جامعة خاصة ، و من ثم يستطيع أن يطور من الحوار و يدفعه للاتجاه المرغوب .

سرعان ما عدل أدهم عما كان ينوي عمله بعد أن لاحظ أن أميرة قد وزعت حواسها في الجلسة بين أذنين تتابعان ما يقوله الحاج منصور، وعينان متعلقتان بوليد ، تكادان لا تغادرن النظر إليه ، فما جدوى المحاولة إذن مع من سُلب قلبها لغيره ؟

ترك أدهم يده لتتحسس ما في جيبه من مخدرات و كأنه يريد ليطمئن على وجودها ، فصار يناجيها :

- يبدو أنني لن أجد من أقضي معه سهرتي دونك يا عزيزتي ، عذرا لأنني فكرت بغيرك سابقا .

تذكر أدهم موقفا كان قد أضحكه و أبكاه ، يوم أن ذهب بمحض إرادته لقسم الشرطة للقيام بأمر ما ، بينما كان بنطاله يحوي القدر غير اليسير من كمية المخدرات التي يحصل عليها من تاجر التجزئة بشكل نصف أسبوعي ، تذكر و هو يخاطب ضابط القسم الذي كان يغدق عليه الثناء و يتمنى أن يحذو كل الشباب حذوه ، بينما هو كان منهمكا في السيطرة على بطنه المتقلبة حتى لا تقوم بإخراج ما لديها من شدة الخوف ، حتى أنه من الذعر اللا محدود كان يدمدم قائلا :

- أنا المسئول الأول و الأخير عما أنا فيه الآن ، كان يجب أن أتروى جيدا قبل الأخذ بنصيحة المتر عاصم .

كم كان يوم الحفل يوما ثقيلا على قلب سالي ، يوما تتحرج من قدومه طيلة العام ، فهي تعلم أنها تعيش في عالم فضولي ، تتشدق فيه النساء بأسئلة سخيفة معروفة الإجابة مسبقا ، كانت تستثقل حضورهن كل سنة ، يتراءى لها مجموع اللوحة المرسومة من أسئلة الحضور عن ماهية غياب زوجها المتكرر عن حضور هذه المناسبة للعام الثالث على التوالي ، أسئلة سيئة النية مغلفة بكلمات المجاملة من عينة : كيف يجرؤ على البعد لكل هذه الفترات عن زوجة أشبه بالبدر ليلة تمامه ؟ عله متزوج من أخرى ، و لكن هيهات أن يجد امرأة فاتنة مثلك يا عزيزتي، كما أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد ، بل سيمتد للسؤال عن أسباب تأخر الإنجاب حتى الآن ، لتدلي كل واحدة منهن بدلوها في تسديد النصائح للأم المنتظرة .

ستوجه إحداهن اللوم لسالي بعد ملاحظة أن وزنها قد زاد قليلا : لا يا سالي ، لا تتركي نفسك فريسة للسمنة المفرطة فأنت مقبلة عليها لا محالة ، بينما سترى الأخرى أن وزنها قد نقص بشكل ملحوظ ، لتعقب محذرة من ضرورة عدم الانسياق وراء دعاوى الحمية الغذائية ، و التي بدورها ستؤثر سلبا على جمال شعرها و صحتها العامة ، بينما تنشغل أخرى بتوجيه نصيحة مخلصة لسالي للكف عن كي شعرها بهدف فرده ، حتى لا يتساقط بشدة بعد ذلك ، تعتقد صاحبة السؤال أنها ماكرة ، تريد أن توقع بسالي في فخ الاعتراف بأن شعرها الجميل ليس بهذه الروعة على طبيعته و إنما بفعل السيروم و البيبيليس إلى غير ذلك من حيل النساء .

تعلم سالي كذلك تخوف الأمهات المصريات من فكرة الحسد المحتوم الذي يصيب أبناءهن من أعين النساء اللواتي يتأخرن في الإنجاب ، لذلك كانت تحرص على الحد من مداعبة أي طفل لتجنب نظرات الوجل و همهمات الشفاه بأدعية مقاومة الحسد بواسطة أمهات هؤلاء الأطفال .

تجمع الحسناء بين مجموعة متناقضات من الصعب اجتماعها بداخل أحد ، فكانت تتسم بالصبر الشديد لأفعال من حولها تجاهها، على الرغم من أن أهم صفاتها على الإطلاق هي أنها ملولة لأبعد الحدود ، لم تكن تملك القدرة على الجلوس أمام التلفاز لأكثر من نصف ساعة ، و كانت تغتاظ بشدة من برامج تحليل مباريات الكرة التي تمتد أحيانا لخمس ساعات ، و لكن يبقى أكثر ما يزعجها هو برامج الأطباء النفسيين الذين يمطرون المستمعين بنصائحهم ، و يبثون في آذانهم إشاعات تقول بأن كل الناس مرضى نفسيين ، فكانت تتناول الريموت لتغير المحطة سريعا و هي تقول متكدرة مستنكرة :

- أيها النصابين ، لا يوجد في هذا العالم ما يسمى بالمرض النفسي، إنما فقط يوجد ظالم و مظلوم .

خيالاتها بخصوص علاء قد غالبتها مرة أخرى فغاصت دون أن تدري لتذكر ملابسات تلك الذكرى البغيضة إلى قلبها .

استحضرت صورة أبيها الذي ما إن تلقى مكالمة الأسطى بهجت حتى هم بالإسراع بتغيير ملابسه ليلحق بمنصور ليشاركه مصابه ، هرولت خلفه أمل لتستفسر حول ما حدث ، حيث لم تفهم بعد حقيقة

الأمر ، و إن كانت الكلمات القليلة التي استطاعت تجميعها كانت قد دلت على أن هناك شبه كارثة .

أخبرها محمود و هو ينتقي من دولابه ما سوف يرتديه بما سمعه، و هو ما أصاب سالي بمجرد سماعها به بالذعر الشديد ، حتى أنها اقتحمت باب غرفة نوم والديها دون استئذان ، لتجذب أباها من طرف سترته التي كان على وشك أن يخلعها مرددة في لهفة :

- ماذا حدث لعلاء يا والدي ؟

نظرت أمل و من قبلها محمود لابنتهما مندهشَيْن ، لتسرع أمل ناهرة إياها :

- كيف تدخلين غر..

قاطعها محمود بسرعة مدركا أن الوقت ليس وقت محاسبة سالي على أفعالها ليقول :

- لا نعلم يا حبيبتي ، فأنا ذاهب الآن لاستكشف بنفسي ، لعل الأمر يكون خيرا بإذن الله .

نبا بسالي المكث في البيت بعد سماع خبر الحادثة لتنطلق قائلة :

- أبي سوف أذهب برفقتك .

أجابها و هو يرتدي قميصه بسرعة انتظارا لخروجها ليبدل بنطاله:

- و لكن يا سالي أنا على عجلة من أمري ، و كما ترين أن المسأ..

قاطعته بحماس من كانت قد أخذت قرارها و حسمت أمرها :

- سأذهب معك يا أبي تحت أي ظرف ، و إن لم تصطحبني سأذهب منفردة .

- يا ابنتي لا بد ...

قاطعته ثانية :

- أنا جاهزة ، لن أعطلك ، سوف انتعل حذائي فقط ، و أكون جاهزة للمضي معك حتى قبل أن تجهز أنت .

لم تنتظر إجابة منهما ، و إنما ذهبت بالفعل لغرفتها لتبديل حذاءها ، هدأت قليلا ، و هو ما مكنها من تجهيز ما سوف تقوله عندما تخرج لوالديها ، فما أن خرجت حتى رأتهما بانتظارها لتبادرهما بالقول :

- عذرا ، فلا يمكنني أن أترك عمي منصور أبدا يواجه ما يواجهه منفردا .

تبادل محمود و أمل نظرة حائرة ، تساءلت عينا أمل :

- ما بال ابنتك يا محمود ؟

أدرك محمود السؤال ، و لكنه تجاوزه ليجذب سالي من يدها وينطلقان عبر الباب ، فيما تودعهما أمل قائلة :

- قُد سيارتك على مهل يا محمود ، و لا تنسى أن تطمئنني بمجرد وصولك .

بعد أن أغلقت الباب وجهت لنفسها السؤال هذه المرة ، بعدما لم يجبها محمود :

ماذا دهى سالي لتأخذ قرارا منفردة ، بل وتصمم على تنفيذه ؟ لا بد أن في الأمر شيء ، بمجرد عودتها سأقو..

انتبهت فجأة ليخرج صوتها عاليا :

- أنيسة ... الحاجة أنيسة .. ترى هل علمت بما حدث ؟ هل أحدثها

أم أذهب إليها رأسا ؟ و لكن هناك احتمال بأنها لم تُخبر بعد ، ليتني أحصل الآن على رقم هاتف وليد لأتحرى الأمر ... كان الله في عونك يا عزيزتي .

تولى سالي الوجوم طيلة الطريق ، و ما إن وصلت بصحبة أبيها حتى وجدا أستاذ عادل كان قد سبقهما في الوصول بعدة دقائق ، وقد تقوس معتمدا راحتيه على ركبتيه ، أخبرهما بوفاة علاء فسقطت سالي فاقدة للوعي ، انشغل بأمرها محمود الذي سالت دموعه لأمر ابنته و لأمر الحاج منصور ، الذي رآه جالسا على كرسي محاطا بمجموعة من المكلومين كانوا قد قادوه للجلوس عليه ، أسرع البعض لدعوة رجال الإسعاف الموجودين في مكان الحادث ليسعفوا سالي .

بدأت سالي في استعادة وعيها ، أقبل عليهم عزت وقد ملأت علامات الحيرة وجهه ، فما بال سالي على حالتها هذه ؟ و ماذا قد حدث لعلاء ؟ تفهم عادل الأمر ليجذبه برقة فيخبره بما حدث و هو يشير لمكان جثة علاء ، و كذلك مكان جلوس الحاج منصور ، أما وليد فأعول باكيا ، هم عزت بالذهاب نحو منصور لمواساته ، غير أن صوت عاملي الإسعاف قد استوقفه و هم يوجهون الوقوف بضرورة إخلاء الطريق ليمكنوهم من رفع الجثث للسيارات ، و التي ستحملهم للمشرحة .

هب منصور واقفا ، و انطلق يدفع بكلتا يديه كل من يعترض طريقه للوصول لجثة ابنه صائحا في رجال الإسعاف :

- لا تحملوا علاء قبل أن أودعه ، انتظروا .. انتظروا قليلا .

جثا منصور على ركبتيه و كشف عن وجه علاء و قد خضبته الدماء

ليمد أصابعه فيتحسس وجهه في رقة قائلا :

- أهكذا تكون نهايتك يا ولدي ؟

ثم وضع سبابته على البقعة الداكنة في جبهة علاء من أثر السجود، موجها وجهه نحو السماء قائلا :

- اللهم إني أتشفع لعلاء عندك بهذه ، اللهم إني أتشفع له عندك بها .

زاد ارتفاع صوت منصور بكلماته الموجعة المختلطة بصوت نحيبه من تأثر الواقفين، الذين كان حالهم ما بين البكاء و الذهول ، حتى أن عزت نفسه قد خرج عن إلفه دون أن يدري داعيا اللّه :

- اللهم ارحمه و صبر والديه .

كان صوته واضحا إلا أن عادل الواقف إلى جواره و الممسك بيده لم ينتبه لقولته من فرط تأثره بالمشهد .

قررت أمل بعد علمها بطلاق زينب أن تضع تصرفات محمود تحت المجهر ، فليس من العقل أبدا أن تثق المرأة بزوج يمر بأزمة منتصف العمر ، إن كانت هذه الظاهرة الأكثر شيوعا بين الرجال ، فإن لمحمود تفرُّد عنهم بأنه قد أعيد إليه حقه المسلوب .

كانت تدرك جيدا أن محمود قد تغير للأحسن ، و أصبح أسهل ترويضا ، و لكن يبقى كل هذا شريطة استمرار الظروف المواتية لذلك، أما الآن فإنها لا تأمن أن يسيل لعاب الجد محمود على الرقيقة زينب، و ربما وجدت فيه الأخيرة عونا لتربية صغارها نهارا ، و إرضاء طموحاتها ليلا .

- لا بد ألا أترك الأمر للظروف ، لا بد أن أمتلك زمام المبادرة .

كان هذا عزمها الذي صارحت به نفسها و هي تقف أمام مرآة الحمام بعد انتهائها من الدش الساخن الذي بدوره قد ملأ الجو ببخار الماء ، فأحال المرآة للوحة جاهزة للرسم عليها بالأصابع دون فرشاة و ألوان ، لكن أمل أزاحت البخار المتكاثف براحة كفها لتتيح لعينيها المجال لرؤية وجهها ، أسرَّتها الرؤية لنضارته بصحبة بشرتها بعد الاستحمام حيث كان يميلان للبياض المشرب بحمرة ، سرعان ما اكتست ملامحها بألوان الحسرة حين رفعت بصرها لتتابع شعرها .

بدأت صبغة الشعر غالية الثمن في التلاشي تدريجيا ، فتركت المجال ثانية للشعيرات البيضاء لأن تسترد لونها من جديد لتنبئ بقدوم الشيب لا محالة ، على الرغم من أن لون صبغتها هو لون شعرها الأصلي الضارب إلى البني ، إلا أنه نذير شؤم أن يعاود الشيب الظهور متزامنا مع طلاق زينب .

قررت - بعد الإسراع في شراء الصبغة بالطبع - ألا تشعر محمود بأنها ترقب خطواته و حركاته ، فلا بد له من ذلة تستطيع أن تكون طرف خيط لذلة أخرى فأخرى ، إلى أن تستطيع أن يكون لديها تصورا كاملا عن مغامرات حودة ، فتتمكن من إنقاذه في الوقت المناسب .

خرجت من الحمام مرتدية الروب الأبيض الذي كان محمود يصفها دائما و هي ترتديه بأنها بطة بيضاء ، و كان يغازلها بل و يتحرش بها ، كانت تنهره أحيانا حين يكون ذلك في حضرة ابنتيهما ، و لكن اليوم ما إن رآها حتى ظل واجما ، بدا و كأن شيئا أهمه فلم يعد يرى بطته البيضاء أمل .

- آاااااااااااااااااه ، بدأنا يا زينب ، لن أتمنى لك أن تذهبي للجحيم ، بل سأرجو الله أن يرسل هو الجحيم إليك .

حدثها خيالها بذلك ، كما حدثها أيضا بأن من الجائز أن يكون محمود مهموما بأمر خاص بأشغاله ، فالبلد كل يوم بحال و الأوضاع غير مستقرة ، ما المانع إذن أن تقوم البطة بوضع العطر الذي يلهب حماسه ، و الذي كانت تحتفظ به دوما كسلاح أخير تنهار أمامه كل حصون محمود - الغير منيعة - لم تكن تضع هذا العطر مع سائر العطور الأخرى الموضوعة على المنضدة أمام المرآة ، بل أنها قد خصته بمكان يتناسب مع مكانته ، و رغبتها في إخفاءه حتى عن ابنتيها لكي لا تعبثا به .

راحت أمل تتناول زجاجة عطرها بينما تذكرت يوم أخبرت سميرة بأمره ، و أنها عندما همت بشرائه فاضلت بينه و بين قطعة ذهبية كانت

على وشك اقتناءها أثناء رحلتها بصحبة زوجها للتسوق بدبي ، بمجرد أن استنشقت عبيره حتى نحَّت القطعة الذهبية جانبا واختارت العطر رغم المبالغة الشديدة في ارتفاع سعره ، حتى أن سميرة قالت لها و قد غلفت الدهشة ملامحها :

- أجننت يا أمل ؟ أهناك امرأة في الدنيا تفضل شيئا عن اقتناء الذهب ؟

لم ترد عليها أمل آنذاك ، بل اكتفت برشتين صغيرتين من العطر باتجاه أنفها ، لتتحول ملامحها فتزداد دهشة من وقع أريج العطر عليها ، بينما ردت مرتبكة و مكابرة بكلمات متقطعة :

- أيا كان .. لا أوافقك الرأي .

بالغت أمل هذه المرة في كمية العطر المحررة من محبسها في الزجاجة ، لتتيقن أنها قد بلغت أنف محمود ، انتظرت فترة لتتلقى رد فعل زوجها لكن الرد قد تأخر ، و بدا و كأنه لن يأتي أبدا ، تحركت نحوه بخطوات هادئة لتجده أحس بقربها منه فهم بمسح عينيه بيديه لإخفاء الدمعتان اللتان نجحتا للتو في الهروب من مقلتيه ، وضعت يمناها تحت ذقنه لترفع رأسه نحوها ، دنت منه في حذر متسائلة بقلق :

- محمود ، ماذا هناك ؟ ماذا أهمك لدرجة البكاء ؟

حاول أن يتحاشى تلاقي عينيهما لخجل الرجل الفطري أن يبكي أمام امرأة ، ثم أجابها بصوت يفيض بالشجن :

- لقد مات أمس الأول صديقي عبد الحي ، و لم أدر إلا منذ قليل .

تركت رأسه لتعاود انخفاضها ، جلست بوضع جانبي واضعة رأسها

على فخذه الأيمن ، حركت كفها الأيمن على فخذه الأيسر ذهابا و إيابا دون أن تنطق بكلمة ، حيث كانت تبحث عن الكلمات المناسبة لمثل هذا الموقف ، و بعد فترة قررت قطع حالة الصمت لتقول له :

- تحلَّى بالصبر يا زوجي ، إنه القدر ، لا مفر منه ، فقط لا تنسه بدعائك له بالرحمة و الثبات ، أعلم أن الفراق صعب لرفيق دربك الذي لازمته منذ ما يزيد عن الثلاثين عاما ، ولكن ماذا في وسعنا أن نفعله .. إنه قضاء الله يا حبيبي .

لم تكن أمل تحدثه بجمل متعاقبة ، إنما كان بين الجملة و الأخرى فترة زمنية تسمح بالتفكير في الجملة التالية ، لكنها ما إن فرغت من جملتها الأخيرة ، حتى انفجر محمود بالبكاء ، فهمت بالوقوف لتخبئ رأسه في صدرها بقوة ، فتُقبِّلَ شعره و تتركه لثوان حتى يفرغ مخزونه من الدموع ، همت برفع رأسه لأعلى فيما خفضت من رأسها لتخاطبه في حنان و قد سقطت منها دموعها تترا دون نحيب ، لتتلاقى و دموع محمود التي ودعت عينيه ساخنة ملتهبة ، فتمد يدها لتمسحهما سويا فوق وجهه قائلة :

- هون عليك يا محمود ، فالأحزان تبدأ بغ...

توقفت فجأة عن الكلام لتندفع هي الآن بدورها بالنحيب و البكاء المتشنج ، فيتبادلا الأدوار بأن يقوم هو بالكف عن البكاء و يقف منتصبا و يشدها إليه فيحتضنها بعنف و حنان بالغين ، فإن انهيار أمل بالبكاء على غير عادتها أمامه ، و كذا لمستها الحانية و إحساسها المرهف بألمه كانوا قد بعثوا له برسالة كانت قد توارت كثيرا خلف الستار الجامد

الذي تحتجب أمل وراءه من الشدة و الصرامة ، على الرغم من أنها لم تعرف سواه حبيبا على طول تاريخها ، مضمون الرسالة أن تلك المرأة تحبه ، بل و ترنو لتلعب كل الأدوار النسائية في حياته ، فهي زوجته وابنته و أمه و أخته ... و ربما حبيبته ، لا ، بل الأكيد أن ما صدر منها الحين يؤكد أن اصطلاح حبيبته يتصدر القائمة السابقة .

أمل امرأة ذكية ، تعلم جيدا ما يصيب الإنسان المتقدم في السن جراء فقد من هم في مثل عمره ، يشعر المرء حينئذ بأن المسألة لا تعدو كونها رسالة من الأقدار بقرب أجله ، فيصاب بما يشبه الاكتئاب ، صحيح أنه اكتئاب مؤقت و غير مرضي إلا أنه يؤثر بشدة على الإنسان فترة حدوثه ، أدركت أن زوجها بحاجة لمزيد من التفاؤل الفترة القادمة، و من غيرها مؤهل لفعل ذلك .

بعدما أنهيا وصلة البكاء ، راحت تبحث في مخيلتها عن أساليب الدعابة التي من الممكن أن تستعملها لتهون على الرجل مصابه ، داعبته قائلة :

– لولا أن حفيدك يلهو في البهو بالخارج لقمت بالتحرش بك أيها العجوز ، و ربما امتد الأمر لأقوم باغتصابك بعنف ، يبدو أن هذه مشكلة من يتزوجون مبكرا ، يضطرون لأن يقاوموا على جبهتين : جبهة الأولاد المتربصين ، و جبهة الأحفاد المزعجين .

تجاوب بضحكة ذات خلفية حزينة ، و هم بالنهوض لتستوقفه قائلة:

– متى ستذهب للقيام بواجب العزاء يا محمود ؟

– كنت أتمنى أن أكون أول المشيعين و أن أكون ممن حضروا الغسل،

و لكن علمي متأخرا بالخبر جعلني مثل سائر المعزين أذهب ليلا لعمل الواجب .

توقف ليخبرها بفكرة قد طرأت له :

– أرى أن أذهب الآن لبيته لمعرفة إن كانت أسرته بحاجة لمساعدة ، و أتمنى أن ترافقينني ، هل لديك مانع ؟

أجابت :

– على الرحب و السعة يا محمود ، لن أتأخر في ارتداء ملابسي ، وسأكون على أهبة الاستعداد .

ذهبا سويا لبيت المرحوم عبد الحي ، استوقفته أمل و هما يصعدان السلم ، لتنبهه على ضرورة التحلي بقوة الشكيمة و أن يسيطر على دموعه حتى لا يزيد من أحزان ذوي عبد الحي ، فهي تعلم أنه من الصعب عليه المجيء لبيت صديقه و لا يجده فيه لأول مرة .

طرقا الباب ليفتح لهم ولد المرحوم فيرحب بمحمود و يدعوه و أمل للدخول ، جلسا بانتظار الولد الذي أشار لأخته أن تُعلِم والدتها بقدوم العم محمود .

دقيقتان و حضرت مدام جميلة زوجة المرحوم ، ترتدي ملابس العزاء الرسمية ذات اللون الأسود المعتاد ، لتصافح محمود و زوجته بحرارة ، و قد تلونت عيناها بلون الدم من كثرة ما بكت و نعت زوجها طيلة يومين سابقين .

بعدما أنهى محمود عتابه لها و لولده لعدم إخباره مسرعين بوفاة صديقه الصدوق ، بدأت أمل ترسل على فترات نظراتها صوب جميلة ،

التي كان لها نصيب ليس بالقليل من اسمها ، أضفى اللون الأسود الذي ترتديه على وجهها الأبيض جمالا إضافيا ، حتى تمنت أمل أن تلقي بسؤال لها :

- ألم يفعل الزمن بملامحك ما يفعله بالنساء ؟

كان إلحاح السؤال على ذهن أمل لعدم اقتناعها بالربط بين أعمار أولادها و نضارة بشرتها ، كانت أول مرة تلتقي بها رغم الصداقة التي تجمع زوجيهما ، و لكنها سرحت بخيالها قليلا محدثة نفسها :

- لكِ الله يا أمل ، أراك تقفين على حلبة الملاكمة ترتدين القفاز لتلاكمي منافستين في آن واحد ، مطلقة و أرملة .. هل هذا عدلا ؟ هل يعقل ألا يلفت نظر محمود ذلك الجمال الذي أبهرني أنا شخصيا ؟ أتمنى أن يكتفي محمود بتعويض أبناء و زوجة صديقه معنويا ، و ألا يمتد التعويض لأن يحل محله في كل شيء .

لم يظهر على محمود أي شيء يبرر هواجس أمل ، و لم يقع في خاطره أن ينظر باشتهاء صوب أرملة صديقه ، كما أنه هو الذي دعاها لمرافقته لزيارة المرأة المترملة ، بل على النقيض ، كان في أوج حبه لها، نعم الحب شأن الإيمان ، ينقص و يزيد ، و حب محمود لأمل كان موجودا منذ تعرفه عليها ، و لكنه كان يرتفع بمؤشره لنقاط أعلى فأعلى على فترات ، حين يتلمس منها ما يدل على ما تكنه له من مشاعر ، وإن لم تنطق بها ، مجرد أن يتخطى حب أمل لمحمود الحصار المضروب حوله ، و الذي ضربته التقاليد البالية و كذا شخصية أمل المتعالية ، حتى تحيل ما في قلب زوجها من دماء لها وظائف فيسيولوجية فحسب ،

إلى دماء تسبح فيها سفنا ذات أشرعة بيضاء ، كتب عليها اسم امرأة من ثلاثة أحرف .

لكن أمل راحت تقول لنفسها :

- ليتك تتزوج إحداهما يا محمود و تخلصني من هذه الهواجس ، فالحزن أروح من القلق .

نعم محمود كان مظلوما ، نعم إنه مخلص لروح صديقه الفقيد، نعم إنه ليس ممن يحدقون في النساء ، نعم إنها أمل .... ولكنها لا تزال أنثى .

استغلت سالي انشغال والدها بخواطره مع زينب ، و والدتها بذكرياتها مع أنيسة ، حتى رشا قررت أن تشرف على اللمسات النهائية للحفل المرتقب بالإنابة عن أمها ، استغلت سالي كل هذا لتتمكن أخيرا من الانفراد بنفسها ، لتجيش عواطفها بعد أن تذكرت الشخص الوحيد الذي كان يُنتظر منه أن يكون نافذة لها على دنيا السعادة ، بل يكون مبررا لوجودها لتتساءل في حسرة :

- أين أنت يا علاء ؟

كان استشهاد علاء الضربة القاسمة الثانية لظهر سالي ، فتاة بلغت من العمر أربعة عشر عاما تجد ضالتها فجأة في شاب يعيد اكتشافها من جديد ، يكبرها ببضعة أعوام ، إلا أنه تجاوز فرق السنين لينزل لمراهقتها و يشاركها الإعلان عن أنها لا تزال على قيد الحياة .

شخصية جوفاء تبحث عن أنيس و جليس فتجده في علاء ، اهتمامه الزائد بها – من وجهة نظرها – كان له مدلوله ، نعم ، فعندما يكون الاهتمام من الآخرين يعادل صفرا ، فإن أي اهتمام من أي شخص دونهم سيتم تأويله من الطرف المحروم بأنه حب لا محالة .

في لقاء العائلة ، و الذي كان يتكرر من ثلاث إلى أربع مرات سنويا في بيت منصور ، كانت تحظى سالي بحصة وفيرة من وقت علاء ، منذ الرابعة عشر و عقب تحولها من طفلة إلى مراهقة ، بدأت نظرتها للجنس الآخر بوجه عام تتبدل ، فلم تعد سالي التي يتلقفها الجميع لتجلس على أرجلهم ليقبلوها و يغدقوا عليها العطاء من الحلوى ، بل

أصبحت آنسة مرغوبة ، و لكن في نظرتها لنفسها كانت تحس أنها تجاوزت كل هذا ، فقد أصبحت سيدة ناضجة .

تذكرت ما كان منه من سؤاله المتواصل على أخبارها في دراستها و إلحاحه عليها في أنه طوع أمرها بمجرد حاجتها لأي شروح في المواد التي يجيد شرحها ، كذلك الثناء المنمق الذي كان يمطرها به عند أي لقاء لهما ، فلا يترك ملابسها و لا شعرها و لا ما تفعله ببشرتها كما تفعل البنات إلا و أثنى عليه بشدة ، اهتمامه بما يسعد البنات و هي التفاصيل ، التفاصيل للأنثى هي دليل اهتمام الرجل بها ، لم تفته يوما تفصيلة صغيرة ، لم ترتد أي يوم رداء جديدا إلا و لاحظه و كان له فيه رأيا ، لا تنس يوم حذرها من التعامل بحسن نية مع أدهم ، أدركت ما يعنيه ، فردت عليه :

- إنه يصغرني بعامين .

قال و هو يحاول إخفاء ما يعتمل في نفسه :

- نعم ، و لكنه شاب ، و سيء السمعة ، بل إنه ذئب يتواثب .

ابتسمت حين ألقت لها ذاكرتها بموقف محبب إلى قلبها ، بينما كانا واقفين في شرفة منزل أبيه و كانت قد التحقت بالجامعة ، يحتسون النسكافيه سويا ، ترك كوب سالي على شفتها هلالا من المشروب فلم تنتبه لذلك ، لتجد علاء يمد إبهامه ليمسح لها شفتها ، بعد أن أدرك أنهما في أمن من نظرات المتطفلين ، نظرت له باندهاش و سعادة و غضب مصطنع ، ليجيبها بسرعة على سؤالها الذي لم تسأله بعد ، و هو يصدر إبهامه المغلف ببقايا النسكافيه المسوح من شفتيها :

- ليس من الإنصاف أن تغطي شفتين أقرب ما تكونان للفراولة بأي شيء .

نظرت ليديه و قد فهمت لماذا فعل هذا ، أخفت سعادتها لتقول :

- ظننت أنه أمرا مقززا لك أن تمسحه بيدك ؟

فوجئت به يضع إصبعه في فمه ليمتص ما عليه من المشروب المشبع برحيق فمها فيقول :

- ظننت أنك ستعتذرين عن أن ما منحتني إياه كان بالنذر اليسير ، لا تحاولي إقناعي بأنك لست بخيلة .

تعلقت عيناهما ببعضهما البعض طويلا ، قبل أن تخفض رأسها ، وتحك أنفها برقة ، ثم ترفع رأسها مرة أخرى لتقول :

- هل أنت من النوع المستعد ليرشف بقايا شراب الحسناوات بوجه عام ، أم أنني حالة اس..

لم يعطها الفرصة لإكمال جملتها ، فأكملها لها هو بتكملة باقي حروف آخر كلمة :

- ..تثنائية .. نعم إنه كذلك .

- علاء ، هل تعرف مدلول تصرفاتك معي آخر ثلاث سنوات ؟ هل تعلم حقا ما أنت مقبل عليه ؟

- نحن شبه أبناء عم يا سالي ، فإذا ظهرت للنور مشاعر كمشاعرنا فلا بد أن تأخذ اتجاه واحد فقط ، لسنا بحاجة للاجتهاد في تأويله .

- إذن فأنت جاد ؟

- نعم ، أنا خير من يشعر بك ، و يقدر أنك فريسة لأوضاع أسرية

غريبة ، و يبدو لي أن طريقك للسعادة سيكون ممهدا معي للغاية .

أجابته سالي بابتسامة خرجت من أعماق وجدانها ، ثم عادت لتنهل رشفة أخرى من النسكافيه الذي قارب أن يكون باردا ، و تعمدت أن تغمس فيه شفتيها بشكل مبالغ هذه المرة لتزيد من كمية السائل المعلق بهما ، فما أن رآها علاء حتى هم بتكرار فعلته ، ليفاجئ بها تنحني للخلف بقوة لتتقي يد علاء ، مستخدمة لسانها لتسبقه بمسحهما، يغتاظ ثم يبتسم ، و تبتسم هي ابتسامة عريضة لنجاح خطتها في مداعبته و تأجيج نيرانه .

بدأت تتحول ابتسامتها لرعشة بسيطة في إحدى وجنتيها بعد أن انتقلت من مسار الذكريات المبهجة لمسار آخر ، و هو نهاية قاسية لطموح العاشقين ، كانا قد اتفقا على أن تتكرر مقابلاتهما بشكل دوري ، زاد بينهما التقارب و بدءا تجاوز مرحلة الاندفاع العاطفي لمرحلة التخطيط للمستقبل ، اتفقا سويا على أن يبدأ علاء بأن يصارح أباه برغبته في الارتباط بسالي ، و تقوم هي بدورها بعد الموافقة شبه المضمونة بمصارحة أبويها كذلك .

بدأ علاء بتنفيذ الخطة ، و قابلها في اليوم الثاني ليخبرها بالنتيجة، أنَّبتْه بشدة لعدم إخبارها تليفونيا ليلتها ، لكنه أفهمها بأن الأمر يحتاج إلى مقابلة شخصية لا لمجرد مكالمة تليفونية .

أصابت ركبتيها رعشة شديدة بمجرد أن بادرها علاء قائلا :

- أبي يريد أن يزوجني ابنة أحد أصدقاءه القدامى .

اختلست النظر لمن حولها لتتأكد من أن أحدا لا يرى الإرتعاشة التي تعاني منها ثم قالت :

- و بعد ؟

- حاولت معه مرارا أمس أن أثنيه عن تفكيره ، إلا أن كل محاولاتي باءت بالفشل ، لا أدري ماذا أفعل ، فأنا على يقين من أن العم محمود لن يبارك زواجنا دون موافقة أبي ، و لا يمكننا الزواج سرا .

شعرت سالي أنها مغلولة اليد و الإرادة ، فهمت تقول في انكسار :

- هل تعلم يا علاء أنني قد عزمت العزم على ألا أتزوج غيرك ؟ هل تعلم أنك لو تزوجت بأخرى ثم طلبت مني الزواج سرا لوافقت ؟ هل تعلم انك لو أمرتني أن أترك التعليم و أترك الدنيا بأسرها لأجلك لفعلت ؟

- أعلم يا حبيبتي .

- لا يا علاء ، أنت لا تعلم شيئا ، فلقد أصبحت تجري مني مجرى الدم .

قال و هو يحاول أن يهدئ من روعها :

- لا مانع من تكرار المحاولة مرة تلو الأخرى .

- حاول كيف شئت و لكني أعلم جيدا كم أنا محظوظة في هذه الحياة .

كان علاء محقا في مشاعره نحو سالي ، و لكن لا يمكن المقارنة بين حبه لها و بين التيار الجارف من المشاعر التي كانت تكنه له ، امتثل بعد فترة لقرار أبيه و تزوج من ابنة صديقه ، و التي قضى معها

بضع سنوات قبل وفاته يمكننا وصفها بالتعيسة ، فبعد أن رضخ لرغبة والده ظن أن السعادة ربما تأتي مع امرأة أخرى ، لكن غياب الحب عن العلاقة الجديدة و إن كانت رسمية ، تسبب في حالة من الكآبة لاحظها الجميع و في مقدمتهم أبوه نفسه ، كذلك اعتقد أن بوسع سالي الارتباط بشخص آخر ، أو حتى الزواج مباشرة ، و حينئذ ستكون الأيام كفيلة بأن تنسيها علاء و أيامه الخوالي ، و هو ما لم يحدث ، فلم يجد أي منهما ضالته في الارتباط بشخص آخر ، و صارت سالي بعد زواج علاء مفعمة الفؤاد خيبة و حسرة ، أدرك علاء و لكن بعد فوات الأوان أن رهانه كان رهانا خاسرا .

لم تنم زينب و هي مغمضة عينيها على المقعد في المستشفى ، إنها فقط تركت لخيالها فرصة للقيام برحلة إلى الماضي ، استغلت فترة غياب ولديها لإحضار كيس الدم لأختهما لكي تستحضر ذكرى أسوأ أيام حياتها ، أيام مرافقتها لزوجها فهمي في الكويت .

اعتادا على أن يمكثا هناك لعامين متتاليين ثم يرجعون لمصر لقضاء إجازة لا تزيد في الغالب عن الشهرين ، حياتها هناك بلا معنى ، تجلس في البيت لتربية ولديها التوأم ، و اللذان كانا سببا في مضاعفة المجهود المبذول من جانبها ، يأتي فهمي للبيت بعد قضاء أربعة عشر ساعة في العمل يوميا ، ما بين عمله الحكومي الرسمي ، و عمله الإضافي في مكتب خاص للمحاسبة ، حتى أيام الجمعة كان يذهب لعمله الإضافي ، زينب بلا أصدقاء ، فمن المعروف أنه من غير الممكن تكوين صداقات في الغربة ، حيث تقوم فلسفة الصداقة على توافر عدد من الناس الذين يجاورونك في مكان لتنتقي بكامل إرادتك من تصادق منهم ، و لكنك في غربتك تكون مضطرا لمعاشرة أناسا تم فرضهم عليك ، و لا تملك رفاهية الاختيار .

انقطع تقريبا اللقاء الحميمي بينها و بين فهمي ، فكان يتكرر على مسافات تمتد لأسابيع ، كذلك لا وجود للغة حوار بين زوجين يأتي أحدهما للمنزل لإلقاء نفسه على السرير أحيانا بدون تبديل ملابسه .

لم تكن في الأساس من أنصار السفر للخليج ، لكن ما إن رزقا بتوأم حتى زادت مصاريفهم بشكل غير محتمل ، فاضطرت للموافقة بعد

فترة من المقاومة ، في بادئ الأمر كان فهمي يعمل بالحكومة فقط ، لكن مصاريف الحياة هناك مرتفعة للغاية ، ليكتشفا بعد عام و نصف أنهما لم يدخرا شيئا يستحق العيش في حرارة تخشاها الشمس ذاتها ، ليقرر فهمي فيما بعد البحث عن عمل إضافي بواسطة أحد أصدقاءه .

أصبحت زينب أكثر تمرسا على رياضة الصمت ، حيث لا صديقة، لا جارة ، لا أقارب ، و تقريبا لا زوج ، مع من تتحدث إذن ؟ حتى جاءها فهمي ذات يوم ليخبرها أن سيد ابن عمته قد أنهى شهادة الدبلوم ، و باع أبوه قطعة من الأرض ليمكنه من السفر للكويت للبحث عن عمل ، و سوف يجيء للإقامة معنا لشهر أو اثنين على الأكثر حتى ينهي فترة تمرينه في العمل الذي وفرته له ، ثم ينتقل بعد ذلك للإقامة في السكن الخاص بصاحب العمل .

سألته زينب ابتداءً :

- أليس سيد هذا هو الطفل الصغير الذي رأيناه إبان زيارتنا لقريتكم في المنيا ؟

أجابها مستنكرا :

- أي صغير ؟ لقد كان هذا منذ ستة أعوام ، أما الآن فهو في الثامنة عشر من عمره .

- و هل يعقل يا فهمي أن يجلس معنا في منزل واحد ؟

- لا تقلقي يا عزيزتي ، فلقد دبرت كل شيء ، فسيكون بصحبتي طيلة اليوم إلى أن نأتي سويا ليلا ، و كما ترين أن البيت واسع و لدينا

غرفتان خاليتان و ليست واحدة فقط .

لم ترد بالإيجاب أو السلب ، فقرر التمادي في شرحه لتوضيح الأمر :

- أعلم يا زينب أنه وضع غريب ، بل و قد يبدو وضع شاذ ، و لكن اعلمي أن استئجار مسكن له سيكون بالغ التكلفة ، كما أنه لا يمكنه المبيت في السكن الخاص بالعمل الآن ، لقد بذلت مجهودا خرافيا لمحاولة إقناع مديري في العمل للقبول بوضعه تحت التمرين ، حيث أن خبرته و مؤهلاته لا يسمحان له بشغل تلك الوظيفة .

صمت برهة ، ليعاود :

- تبقى المشكلة الأكبر أنني مثلك صعيدي ، و عمتي و زوجها و كذلك جل العائلة يتصورون أنني أصبحت شريكا بحصة في بترول الخليج ، ولا يمكنني أن أتخلى عن قريب لي تحت أي ظرف .

وافقت زينب على مضض ، و انتظرت حتى قدوم الشاب الذي سيحل ضيفا عليهم لأسابيع ، علها تمر بسرعة و تعود الأمور أدراجها .

كان لتأخر ولديها لساعة و نصف الأثر في إتاحة الوقت الكافي لها لتذكر تلك الأيام التي ما كان يحلو لها عند تذكرها إلا أن تصفها بالأيام السوداء ، ثم أنهت شريط ذكرياتها لتقول :

- رباه ، هل من الممكن أن يُقتص من ذنب فعله أحد ثم تاب عليه من ابنته ؟ لا ، لا يمكن أن يكون الله ظالما ، فلسوف تمتد رحمته لتسعني و لتسع الجميع .

لم يمض وقتا كبيرا حتى أتى الولدان و بصحبتهما زوج من أكياس

الدم ، أخذتهما منهما زينب و أسرعت بهما لكبيرة الممرضات لتستوضح هل هما المطلوبان أم لا ، فلما علمت بأنهما المطلوبين ، هدأت بالا بشكل نسبي ، فقد زال نصف أسباب معاناتها ، و لكن يبقى النصف الآخر ، و الذي يبدو أن زواله لن يكون وشيكا ، حدثت نفسها :

- إني مرتعبة ، لو علم من أمري ما قد حدث ، لصارت فضيحة تزكم الأنوف جميعا .

من أهم أسباب عدم سعادة محمود في يوم الحفل أن سيارته لا تزال حبيسة مركز الصيانة لإصلاح ما حل بها من تلفيات جراء قيادة رشا لها ، فقد طلبت قبل عشرة أيام من أبيها أن يعيرها إياها لأنها تحتاج سيارة ذات حقيبة واسعة لتتسع للأغراض الكثيرة التي ابتاعتها لنزلاء دار الأيتام التي تزورها بشكل أسبوعي ، لكنها ما عادت من الدار بسيارة أبيها كما هي ، كان بها تلفيات دلت للنظرة الأولى على أن رشا هي المخطئة فيما حدث .

كان يتوجب عليها ألا تقود السيارة و هي تبكي بشده لتأثرها بمشاهد الأطفال الرضع في الدار ، كالعادة كلما ذهبت إلى هناك و رأت الأطفال ينادونها ب (ماما) عادت لتملأ البيت نحيبا ، و تجلس محتضنة ولدها لفترة كبيرة ، و كأنها تحمد الله أن جنبه مصير هؤلاء الأطفال ، و لكن هذه المرة بدأت وصلة البكاء مبكرا ، ففقدت التركيز الكافي للقيادة .

على الرغم من حالة الشجن التي تكون عليها ، كان خالد زوجها يطرب لتلك الحالة ، لأنها لا تكون أكثر رقة إلا إبان تساقط دموعها، فتعود تارة أخرى لخانة الأنثى ، و هو الأمر الذي كان يفتقده بشدة، حتى أنها لاحظت ذلك ذات يوم فألمحت إليه بظنها ، كان أكثر لؤما فأجابها بأنه من الواجب أن يحافظ على حالة التوازن النفسي لكليهما، و بما أنهما شخص واحد وُزِّعت روحه على جسدين ، فمن الضروري أن يتجه أحدهما للناحية الأخرى لتحافظ المركب على اتزانها ، قال :

- إذا حزنتِ يوما فلا بد أن تكتسي ملامحي بالبهجة ، حتى و إن كنت من داخلي أبكي دما لبكائك و ليس فقط دموعا .

كان ما أضحكها حقا ليس نجاحه في التخفيف عنها ، و ليس كذلك سعادتها بإحساسه المرهف تجاهها ، و إنما لأنها عجزت عن تفسير المشهد التي تراه ، رجل بملامح طفل ، كيف لطفل أن يكون منافقا ؟

تأثرها البالغ هذه المرة بسبب أنها و هي في طريقها لمغادرة الدار ، استوقفها طفل لا يزال يحبو ، تعلق بتنورتها بشدة رافضا تركها لترحل، تجاوبت معه مرتين فعدلت عن الرحيل لتجالسه فيرتمي في حضنها ، و لكن في الثالثة كانت قد أدركها الوقت ، فقررت أن ترحل ، لتجذب المربية الطفل فيزداد صراخه ، ثم تسرع رشا بإغلاق الباب خلفها ظانة بذلك أن ابتعادها عن مرمى صراخ الطفل ربما يهون عليها غلظة المشهد ، و هو ما لم يحدث بالطبع .

كان محمود وقت أن قدمت رشا للمنزل منشغلا مع ابنته سالي ، يدير معها حوارا بناءً على رغبة أمها ، لعلم أمل أن سالي إن كانت يوما لتبوح بأسرارها لم تكن تفعل هذا إلا لأبيها فقط ، فطلبت من محمود أن يحاول معرفة أخبار سالي مع الأطباء الذين تذهب لهم خُفية ، و الذين لا يعلمون عنهم شيئا ، و هل تذهب بصحبة زوجها بالفعل للاطمئنان على مسألة تأخر الحمل ؟ أم أنها تخدعهم ؟

حاول محمود مراوغة سالي قبل أن يبدأ معها بطرح الموضوع ، سرعان ما أدركت أنها بصدد استجواب و إن كان غير رسمي حول الموضوع المؤرق بال الكونتيسة أمل ، بادرت دون أن يفصح محمود عن كل ما لديه :

- أقسم بالله يا أبي أن الأطباء قد أجمعوا على أنني و حسام بخير،

و أننا يمكننا الإنجاب في أي وقت ، و أن نتائج التحاليل الخاصة بنا تقترب من المثالية ، و لكنها إرادة الله الذي لم يشأ بعد .

لم يخطر ببال محمود أن هذه الملامح الطفولية البريئة لقرة عينه ربما تتصنع الكذب ، بل و تقسم عليه ، فصدقها على الفور ، و أخبر أمها بذلك ، التي بدورها قالت أن كلامها يتطابق مع كلام حسام ابن أختها ، ولكن .. أين ملفات التحاليل و الأشعة الخاصة بهما ؟ و هل يعقل أن يحتفظ الأطباء بملفات المرضى دون إعطائهم نسخ منها؟

انتهت سالي من استجواب أبيها و صعدت مسرعة لشقتها في الدور الثالث ، كانت تريد أن تتجنب نظرة أحدهم لها ، أسرعت بصعود السلم و دلفت للداخل مغلقة الباب خلفها في عنف ، لم تبدل ملابسها أو حتى تخلع حذائها ، بل ارتمت على سريرها و هي تنام على بطنها لتنخرط في نوبة بكاء حاد .

دقيقتان و نهضت من وضعيتها لتجد بقعتان من الدموع قد غطتا موضع رأسها على السرير ، جلست لتفكر جيدا بمن المسئول عما آل إليه حالها ، هل هو المرحوم علاء ؟ أم حسام زوجها ؟ أم لعله والدها الحبيب الذي يكن لها حبا جما و لكنه شديد السلبية ؟ و ربما كانت أمل هي المسئولة .

هدأت أخيرا و قررت تطبيق نظرية جلد الذات ، فألقت باللائمة كل اللائمة على نفسها ، راحت تتحسس بطنها بيدها لتتساءل و نفسها :

- هل حمل الأنثى هو مجرد انتفاخ هذه البطن بجنين ينمو في أحشاءها فحسب ؟ أم أنه نتاج لحالة من الحب و الرحمة بين زوجين،

تتوج أخيرا بوجود عنصر مشترك بينهما ، يحمل من كليهما صفة أو أكثر ، ثمرة لرغبة جامحة لدى الزوجين لأن يتركا للإنسانية من بعدهما دليل مادي على أنهما كانا يذوبان عشقا ببعضهما .

ارتفع صوتها لتقول :

- إن كان الأمر كذلك ، فلا بد ألا تثمر هذه البطن أبدا ، فكيف أحمل طفلا من رجل لم يبال بعدم اهتمامي بتأخر الحمل ، لم يسأل نفسه يوما : لماذا لا تلح عليّ سالي في أن نذهب سويا للطبيب ؟ متى ستشعر برغبة أن تكون أما لطفل من صلبي ؟

جابت الغرفة ذهابا و إيابا بخطوات سريعة ، أحست بتسارع ملحوظ في دقات قلبها ، فقالت :

- لن تسكت أمي حتى تتمكن من الوصول إلى الحقيقة ، أنا أعرفها جيدا ، لن تكف عن البحث و التمحيص و رسم الخطط المتقنة للإيقاع سواءً بي أو بحسام .. ما العمل إذن ؟

جلست على الكرسي و قد أنهكتها خطواتها السابقة لتقول :

- إنه هو لا محالة .

ثم التفتت نحو المرآة للتأكد من أنها نفسها لا زالت موجودة ، لتكمل جملتها :

- نعم إنه هو ... المتر عاصم ..

حاول الحاج منصور ألا يكون حاد الطبع مع زوجة علاء بعد وفاته، حاول كثيرا كثيرا ، إلا أنه وجد نفسه على درجة من الحدة لم يصل لها من قبل أثناء حديثه إليها لأول مرة بعد وفاة علاء بقرابة الشهر .

ذهب منصور لبيت ولده لأول مرة ، طرقت يده الباب على استحياء، و كأنه يتمنى أحد أمرين : أن يقوم علاء بفتح الباب له ، أو ألا يقوم أحد آخر بفتحه فييأس و ينصرف ، لكن أمنيتاه كانتا أبعد ما يكون عن التحقيق ، فإن الموتى لا يعودون لاستقبال الضيوف ، كما أن مروة أرملة علاء ما كانت لتتأخر عن الاستجابة للضيف القادم لعلمها المسبق أنه الحاج منصور ، بعد أن هاتفتها أنيسة لتخبرها بموعد قدومه .

مروة هي الفتاة التي صمم منصور على إتمام زواجها بابنه علاء ، ابنة صديقه الحاج عبد الدايم ، كم كان منصور حانيا ودودا في تعامله مع مروة ، كان يعدها ابنته التي لم ينجبها ، و هو ما دفعها للتوقع بأن تعامله معها سيظل على نفس الشاكلة ، بل ربما يزيد ، لرغبته في تعويضها عما فقدت برحيل علاء ، و لكن تلك الجلسة كانت قد حملت لمروة ما كانت تتوقعه أبدا .

بمجرد أن دلف منصور لبيت ابنه حتى راح يعمل كافة حواسه لتتشبع ببقايا ولده الشهيد ، ترك أنفه تتلصص لاستنشاق آثار عبير علاء التي هي حتما متناثرة في المكان ، دارت عيناه يمينا و يسار باحثة عن أي دلالة تخبره أن هذا منزل ولده ، حتى أذناه ، تركها تتنصتان لذرى أحاديث بائدة ، كانت تدور بينهما ذات يوم .

جلس منصور يتحدث إلى مروة بعد رفضه تناول أي مشروب، كان

هذا بعد أن أمطر وجنة حفيدته بوابل من القبلات المبللة بدموعه ، كان يحرص على أن يقوم بمسحها فور سقوطها مباشرة ، لاعتقاده بأنها من فرط حرارتها ستقوم بحرق بشرة الطفلة البريئة .

بعد أن استعاد قدرته على التحكم بأعصابه ، تنهد منصور من صدر ضعيف ليبدأ تعليماته الصارمة لمروة :

- ما وقع يا ابنتي هو قضاء الله سبحانه و تعالى ، و نحن لا نملك من الأمر شيء ، و أنت لا تزالين في ريعان الشباب ، و من غير المعقول أن تظلي بلا زواج ، و كذل..

قاطعته بلهجة نفي التهمة عن نفسها :

- أي زواج تتحدث عنه يا عمي و لا يزال علاء حديث الوفاة ؟ و حتى بعد عشرات السنين ما أكنت لأفكر يوما بأم..

قاطعها هو هذه المرة :

- دعيني يا مروة أفرغ من كلامي ، انتظري حتى أضع أسسا للتعامل مع الوضع الجديد تكون ملائمة للجميع ، أردت أن أخبرك أننا لا نمانع أبدا في زواجك يوما ما ، كما لن نحرمك ابنتك أبدا تحت أي ظرف ، فأنت تعلمين جيدا مدى حبنا أنا و أنيسة لك ، و لكن كل هذا شريطة أن نتفق سويا على أمر واحد .

- و ما هو ذلك الأمر يا والدي ؟

- علاء لم يكن يعمل بمصلحة حكومية أو حتى شركة تابعة للقطاع الخاص ، لذلك فهو ليس من مستحقي المعاش ، صحيح أنه ترك لك ورشة سنقوم ببيعها و إيداع كامل ثمنها باسمك أنت و ليس باسم

ابنتك ، لتتمكني من التصرف في المال كيف شئت دون الرجوع للمجلس الحسبي .

- عفوا حاج منصور ، أليست ابنته شريكة في التركة ؟

- لا تنسي يا ابنتي أن الورشة كانت لعلاء بينما عقد ملكيتها كان باسمي أنا ، و سوف نذهب أنا و أنيسة بصحبتك للتنازل عن نصيبنا في باقي التركة لكما .

همت مروة بالوقوف لتترك منصور دون استئذان ، انطلقت مسرعة نحو غرفتها ، تفهم منصور الأمر خصوصا و أنها كانت تغالب دموعها التي ما لبثت أن خرجت من عينيها ممزوجة بصوت بكاء أجش و هي تنظر لابنتها التي أصابها اليتم مبكرا .

عادت مروة لتجلس في هدوء بعد أن اعتذرت لمنصور عما بدر منها ، لم يجبها ببنت شفة لانشغاله بضم حفيدته لصدره حتى آخر جهده ، أغمض عينيه غارقا في خيالاته الخاصة ، بعد أن كررت جملتها لإيقاظه من غفلته رفع رأسه ليستكمل حواره معها :

- كنت قد أخبرتك قبل أن تقومي يا ابنتي بأن هناك أمرا حتمي الحدوث لا بد من تحقيقيه لأنه لن يكون يوما محل تفاوض .

- أي أمر هذا ؟

- أعلم جيدا أنك من عائلة ميسورة الحال ، فأنا صديق والدك ، ولابد من أنه سوف يغدق عليك المال مراعاة لظروفك .

- بالفعل يا عمي ، لقد بادرني أبي بإعطائي مبلغا وفيرا من المال ، و كان هذا بمج..

قاطعها بسرعة :

- و هذا ما كنت أخشاه .

لم تستبين مروة من قوله مغزاه ، فراحت تقول :

- عذرا لم أتفهم الأمر بعد .

- أنا أطلب منك و بمنتهى الوضوح ألا يتم صرف مليما واحدا من أموال والدك على حفيدتي ، نظير تكفلي الكامل بمتطلباتكما للحياة .

- أتفهم جيدا يا عمي رغبتك في أن تعوض حفيدتك عن فقد أبيها .

قال و قد استحالت ملامحه لصرامة غير معهودة :

- يبدو أنك لم تعِ بعد جدية ما أطلبه منك يا مروة ، أنا أشدد على ضرورة عدم صرفَ أي أموال من أموال والدك على حفيدتي ، و لن أكرر طلبي هذا مرة أخرى .

دلت حدة منصور هذه المرة على أن في الأمر شيء ، فقالت مروة محاولة استيعاب ما يحدث :

- لا أدري بأي حق تريد أن تحرم طفلة من التمتع بمال جدها ؟ أوليس أبي بجدها أم أنني يخيل إلي ؟

تجاوز منصور لهجتها الساخرة ، فهو يعلم جيدا أن ما يطلبه منها ليس بالأمر السهل ، و أنه يحتاج الكثير من الإيضاح ، و هو الأمر الذي لا يستطيع أن يفصح عنه ، فاكتفى بالنهوض ليقبل حفيدته و يهم بالانصراف ، ليقول و هو في طريقه للباب :

- لن أسمح تحت أي مسمى بتجاوز تعليماتي يا مروة ، أظنك تستوعبين جيدا ما أقول .

أغلق الباب دونه و نزل درجات السلم على دفعات متتالية ، تخللتها فترات من الراحة ، اختلسها مستندا على سور السلم و هو يعالج سكرات الموت المعنوي الذي اغتاله بعد تبدل الأحوال برحيل ولده .

ركب سيارته و راح يفكر في الخطوة التالية ، كان ما قام به للتوءم مروة هو خطوة من ضمن حزمة قرارات كان قد اتخذها لإصلاح ما أفسده هو و ليس الزمان ، سبق هذه الخطوة فض الشراكة مع عبد الدايم والد مروة .

كان عبد الدايم رجلا ذو توجه سلفي ، رحل عن مصر للعمل في الخليج في أوائل التسعينات ، ليعود و قد كون ثروة كبيرة لا تتناسب مع المدة القصيرة نسبيا التي قضاها هناك ، حيث أن البقاء لتسعة أعوام لا تمكن المرء من تكوين العديد من الملايين إلا إذا كان يعمل خبيرا في مجال شديد التخصص ، و هو ما لم يتوفر لعبد الدايم ، فقد كان يعمل في إحدى المؤسسات الخيرية هناك .

بمجرد عودته النهائية لمصر قام بلقاء منصور ، الذي أبدى دهشته هو الآخر مما آل إليه حال عبد الدايم ، لكن الأخير صارحه بحقيقة ثروته ، و عرض عليه إن كان يريد مشاركته في مشروعه الجديد بالقاهرة ، حيث أن مثل هذه الأعمال تتطلب علاقات واسعة مثل التي يمتلكها منصور ، و هو ما يفتقده بالطبع عبد الدايم الذي فارق البلاد لبضع سنين .

راجعه منصور كثيرا قبل أن يوافق على العرض المقدم منه ، فقد كان يشعر بأنه إثما لأنه يخشى من اطلاع الناس عليه ، لكن عبد الدايم

الرجل الملتحي الذي غادر القاهرة و هو شخص متدين ليعود من الخليج أكثر تدينا ، حتى ذهب البعض لمناداته ب (مولانا) ، استعمل الحجج والبراهين التي كان قد تعلمها إبان سفره لإقناع منصور بشرعية ومشروعية ما سوف يقومان به ، فهذا النوع من النشاط رائج الشيوع هناك و الدولة تعلمه و ترعاه ، و من المؤكد أنهم أكثر تمسكا بتعليمات الدين الإسلامي أكثر مننا نحن المصريين .

ظلت الشراكة بينهما قائمة لعدة سنوات ، استطاع كلاهما خلالها أن يحصِّلا أموالا طائلة ، و هو ما دفع منصور للضغط على علاء بضرورة العزوف عن الزواج بسالي ، و قهره على الزواج من مروة ابنة عبد الدايم ، لضمان استمرار علاء كراع للمشروع السري بعد عمر طويل ، حيث لم يكن لعبد الدايم أبناء ذكور .

بعد موت علاء بفترة وجيزة ، و بعد فض الشراكة بينه و بين عبد الدايم ، قام منصور بعدة أمور كانت تبدو غامضة للكثيرين ، كان الأسطى بهجت وقتها خير عون له ، و إن كان بهجت ينفذ أوامر منصور على مضض ، حيث كان أكثر المتضررين من توقف نشاط منصور غير المعلن .

بينما كان بهجت هو العضلات المنفذة لرغبات منصور ، كان هناك شخصا آخر هو العقل المدبر للرجل لتنفيذ مبتغاه ، و هو أول من حضر لذهن منصور عند البحث عمن يساعده في المضي قدما في طريقه ، كان هذا الرجل هو من قرر منصور اللجوء إليه عقب نيته فض الشراكة ، حدث نفسه قائلا :

- لا بد من الاستعانة بتدابيره المبتكرة ، إنه المتر عاصم ..

لحسن حظ أميرة أنها ولدت لأبوين مثل زكريا و رقية ، و قد أحسنت الفتاة استغلال حظها لأبعد مدى ، أب يعمل كمدرس متمرس، ساعدها كثيرا في تحصيل دروسها ، و أم حنون أمدتها بكل ما تحتاجه من معونة لتكوين شخصيتها كأنثى .

كانا يعتبران أميرة ليست مجرد ابنة ، بل عطية من السماء لا بد من الحفاظ عليها بشتى الطرق ، خاصة بعد قيام رقية بجراحة استئصال الرحم إثر ورم أصابه بعد ولادة أميرة بعام ، فأصبحت آخر أملهم في الذرية الصالحة .

تفوقت في سنوات دراستها و توجت التفوق بنجاح و لا أروع في القسم الأدبي في الثانوية العامة ، آثرت دراسة التجارة باللغة الإنجليزية ، وهو ما شجعها عليه والدها ، حيث كان أضعف ما يكون أمام أي رغبة لابنته المدللة .

استمر التفوق حليف أميرة بعد التحاقها بالجامعة ، حتى أنها بعد ظهور نتيجتها بالترتيب الرابع على دفعتها في العام الأول لها بالكلية ، انهارت بالبكاء لإحساسها بالفشل ، راح زكريا يواسيها و يخبرها بجل سعادته لتفوقها ، و أنها في طريقها للتعيين بهيئة التدريس بالجامعة إذا حافظت على معدل تفوقها .

كان لأميرة اهتمامان فقط في الحياة ، دراستها و وليد ، بعد أن منيت بخيبة الأمل في المسار الأخير ، و تيقنها من أن وليد ليس لها ،

بدأت تتحول تدريجيا لمنحى مغاير لعاداتها في الحياة ، فقد أشارت عليها صديقاتها في الكلية بضرورة نسيان أمر وليد عن طريق خوض تجربة حب مع شخص آخر ، و هو الأمر الذي رفضته أميرة في بادئ الأمر ، حتى جاء يوما قررت فيه الاتصال بوليد هاتفيا للاطمئنان عليه - و لتصل رحمها- فما كان منه إلا أن رد بمنتهى السرعة على مكالمتها قائلا :

- أخيرا يا حبيبتي .

كاد قلبها يتوقف عن النبض من السعادة المفاجئة ، و التي استمرت لمدة ثانيتين كاملتين ، قبل أن يضيف وليد :

- ما كل هذا ؟ أخبرتني بأنك ستهاتفينني بعد عشر دقائق ، و الآن قد مرت ثلاثة عشرة دقيقة كاملة ، لم أكن أعلم أنك بهذه القسوة .

انتظر وليد أي إجابة على سؤاله قبل أن يعقب :

- حبيبتي أين أنتِ ؟

ردت أميرة و هي تغالب نحيبها :

- كيف حالك يا وليد ؟

قطب حاجبيه و هو يرد :

- عذرا ، من تحدثني ؟

- أنا أميرة .

تساءل بصوت خفيض :

- أميرة ؟ أي أميرة يا آنستي ؟

ضمت أميرة قبضتها بقوة و قد اغتاظت لسؤاله الأخير لترد مستنكرة :

- ألا تدري أي أميرة ؟

لم يرد وليد بأي كلمة ، لتنطلق قائلة في عصبية ملحوظة :

- أميرة زكريا ، هل تعلم شيئا عن زكريا و رقية ؟

اندفع وليد معتذرا :

- أميييييييييييييرة ، عذرا يا أميرة ، فلقد كن..

قاطعته بسرعة :

- لا تعتذر يا وليد ، فقط ظننتك قمت بتسجيل رقم هاتفي بعد أن تبادلنا أرقام هواتفنا في آخر لقاء لنا .

- عفوا أميرة ، يبدو أنني قد سهيت عن فعل هذا ، مؤكد أنه خطأي .

- لا عليك يا وليد ، أنا فقط أتصل للاطمئنان على خالتي أنيسة ، حيث علمت من والدتي بأنها كانت طريحة الفراش .

حاول وليد التخفيف من حدة فعلته ، و إن كانت غير مقصودة ، خاصة و أنه كان يدرك أن أميرة تروم الزواج به ، ليقول :

- لقد كان هذا منذ شهر تقريبا ، أما هي الآن فعلى خير حال .

قالت و قد أدركت أن حجتها المفتعلة قد افتُضحت :

- الحمد لله على سلامتها ، و لكني لم أعلم بالأمر إلا منذ قليل .

- لا عليك يا أميرة ، فلك الشكر على كل حال ، إنك حقا فتاة طيبة .

صمتت فترة لا تدري ماذا تقول ، ثم قررت إنهاء المكالمة :

- أتركك الآن يا وليد ، أبلغ سلامي لوالدتك الحبيبة .

- سلمك اللّه و حفظك يا أميرة .

أنهت المكالمة و راحت تجوب الغرفة ذهابا و إيابا لفترة ، ثم راحت تجرب الجلوس على كل ما يمكن الجلوس عليه في الغرفة ، مرة على السرير ، و أخرى على الكرسي الموجود بجوار السرير ، ثم على كرسي المكتب ، حتى المكتب نفسه لم يسلم من جلوسها عليه بعد أن أطاحت بكل ما عليه من أشياء و هي في أوج انفعالها .

راحت تحلل المكالمة بدقة متناهية ، بدأتها من آخرها ، حيث كانت تتكلم بصوت مسموع مع نفسها :

- سلمك اللّه و حفظك يا أميرة .. أهكذا يكون الوداع بين شاب وفتاة مثلي ؟

ثم ما هذا الذي يلقبني به ؟ فتاة طيبة ؟ هل لا زال ينظر إلي على أنني فتاة ؟ ألم ير بعد أنني صرت امرأة ناضجة ؟ ابنة العشرون عاما فتاة ؟ أأأأأأ .. أعني الثامنة عشر و بضعة أشهر .

صمتت لبرهة قبل أن تطلق ضحكة مبللة بدموع الحسرة لتستكمل ما تقول :

- إنه يكاد لا يعرف اسمي ، حتى بعد إخباري به سألني : أي أميرة ؟

إنه لم يتعرف من الأساس على صوتي ، رقم هاتفي الذي خصصته به لم يقم بتسجيله على هاتفه ، أي تجاهل هذا ؟

نزلت من على المكتب لتسير باتجاه النافذة فتفتحها و هي تقول بعينين مغرورقتين بالدموع :

- كفاك أسئلة أيتها الغبية أميرة ، لماذا تحاولين تجاهل أول كلام لوليد خلال المكالمة ؟ لقد تأخرت من كانت قد وعدته بإعادة التحدث معه لثلاث دقائق كاملة ، فما كان منه إلا أن فقد صبره ، و راح يحترق شوقا لسماع صوتها مجددا .

أدركت مؤخرا أنها قد بنت بيتا من الأحلام الكواذب ، فتناولت هاتفها لتتحدث و إحدى صديقاتها ، بعد تفكير قررت أن تحدث غادة لتطلب منها النزول فورا للقائها ، وافقت غادة بعد فترة من إلحاح أميرة، قابلتها ليكون يوما مفصليا في تغيير دفة حياة أميرة ..

بدأت أمل تنفذ ما كانت قد عقدت النية على فعله من مراقبة محمود، لقد كانت طيلة حياتها تراقبه بالفعل، و لكن بعد وجود منافستين لها - كما كانت تعتقد- كان لا بد من تطوير المراقبة كما و كيفا .

كانت تتركها أذناها كما يحدث في أفلام الكرتون ، لتذهب فتلتصق بمحمود بمجرد أن تسمعه يقول لفظة : آلو ، ناهيك عن زيادة دوريات التفتيش في هاتفه سواء عن الرسائل أو المكالمات بأنواعها ، واردة ، صادرة ، أو غير مردود عليها .

لسوء الطالع كان محمود يقضي أوقات أكبر في العمل هذه الأيام عن معدله المعتاد ، و كذلك زادت مكالماته الهاتفية ، و التي أصبح يجريها بالشرفة متعللا بضعف الشبكة داخل المنزل ، مما أثار حفيظتها وجعلها تتيقن من أن هواجسها ليست من نسج الخيال ، و إنما لها رصيد من الواقع يؤيدها و يدعم احتمالية حدوثها ، و لكن .. أين الدليل ؟ لا بد من وجود دليل لمواجهة واحد من بني الذكور الذين يجيدون التنصل من أفعالهم ، بل و يلقوا في كثير من الأحيان باللائمة على الزوجات اللاتي يصفونهن بأنهن عاشقات لافتعال أسباب للشجار .

نجح شيطان أمل في أن ينسيها - أو يجعلها تتناسى- أمرين هامين، الأول هو ما كانت هي نفسها تدركه بأن أي رجل يفقد أحد رفقاءه ممن يساوونه في العمر يعتبر أن هذا نذير شؤم ينذر باقتراب موعد رحيله هو ذاته ، و ثانيهما هو أن محمود بالفعل كان قد نجح في فتح مجال للتسويق للبضاعة صينية الصنع التي يستوردها ، مما زاد من أشغاله، و هما الأمران اللذان يفسران حالة الوجوم التي ظلت لا تفارقه هذه

الأيام ، و كذلك تزايد المكالمات الهاتفية و الأوقات الكثيرة التي يقضيها في شركته .

لغيابه أحيانا عن المنزل و الشركة لفترات ليست بالقليلة أثره في ازدياد شكوكها ، أين يذهب ذلك الجد المراهق ؟

كلما سألته عن أحوال عائلة المرحوم عبد الحي يجيبها إجابات مقتضبة لا إطناب فيها كقوله : الحمد لله ، أو أنهم لا ينقصهم شيء، فكانت تغتاظ لتحفظه في الإجابة ، لتذهب بسؤالها التالي نحو التخصيص أكثر ، فتسأله مباشرة عن أخبار أرملته ، فيجيبها أيضا بأجوبة من عينة : على ما يرام ، أو كان الله في عونها ، حتى سؤالها عن الساحرة الشريرة زينب ، لم يأت بالإجابة الشافية لفضولها .

تحول محمود من شخص يؤدي الصلاة في البيت ، و ربما تكاسل عن تأدية الكثير منها لانشغاله بأمر ما ، لمحمود الذي لا يترك فرضا إلا ليؤديه في المسجد ، أصبح للبرامج الدينية مساحة ليست بالقليلة من حصيلة متابعته للتلفاز ، عكس ما كان عليه سابقا ، لتقوم أمل بتأويل ما يحدث بأنه من الضروري أن يقترب الإنسان من ربه أكثر ليستجيب دعاءه ، تُرى ما هي أحلام محمود التي يرفع بشأنها أكف الضراعة لله ليهبه إياها ؟؟

حتى أنه ذات يوم نامت أمل إلى فراش المرض و هي جد مكدودة، فما كان من محمود إلا أن لازمها و رفض إصرار ابنتيه على القيام بما يقوم هو به ، كلما استطاعت أمل أن تحرك رأسها لتنظر صوبه ، وجدته ينظر إليها بعينين لا ينقصهما غير الدموع للتعبير عن بالغ تأثره

لمرضها ، فما يكون منها إلا أن تحدث نفسها و هي كليلة مجهدة بأنها تصدق لهفته عليها حقا ، و لكن إن كان هناك داع لهذه اللهفة فمن المؤكد أنه تأنيب الضمير لما فعله أو ربما سيفعله بها ، كذلك ربما كانت لهفته على سبيل ادخار رصيد من العشرة الحسنة لدى أمل ، لتكون شفيعا له يوم يقع معترفا بخطيئته الكبرى .

ذات يوم و بمجرد أن امتلكت مجددا عافيتها و استعادت القدرة على إعمال حاسة الشم ، لم تتوان عن استخدامها في البحث عن الدليل المفقود في ملابس محمود ، أسرعت بعدما نبهها أنفها لوجود رائحة عطر نسائي غير مألوف لديها تفوح من ملابس حودة ، راحت كعادتها تستعمل لهجتها الساخرة في توبيخه و هي تقول :

- لم تخبرني من قبل يا حودة أنك تحب هذا النوع من العطور ، ألم يكن الأجدر بك أن تبتاعه لي بدلا من استعمال أجساد الأخريات في تجربته ؟

نظر إليها هذه المرة و لم يبال كما كان يفعل سابقا ، بل ظل صامتا ليستخرج منها أعلى نبرة في صوتها و هي تزمجر قائلة :

- محمود .. أنا جادة فيما أقول ، ما الذي جاء بهذا العطر على ملابسك ، و بهذه الكثافة التي تدل على أنه لم يكن نتاج مصافحة فقط، بل عناق حار ، و ربما امتد لما هو أكثر من ذلك .

أجابها و قد احتفظ بنبرته و نظرته الهادئتين :

- لم أكن أعرف أنك تمتلكين القدرة على توقع ما حدث لمجرد إعمال أنفك فقط .

زاد هدوءه من انفعالها فانطلقت تقول :

- أكرر ، أنا جادة و ل..

قاطعها و لكن بنفس الهدوء :

- و أنا جاد أكثر منك ، بالفعل كل ما ذهب إليه خيالك صحيحا ، لقد عانقت امرأة ، و أنا أحبها من أعماق قلبي ، و طبعت كذلك قبلتين على وجنتيها ، و لن أخفيك سرا إذا ادعيت أنني في كثير من الأحيان أشعر بأنني أحبها أكثر مما أحبك .

لم تمكناها قدماها من الاستمرار في الوقوف ، فتحركت خطوة للخلف لتلقي بجسدها على أقرب مقعد في طريقها لتقول :

- أخيرا فعلتها يا محمود؟ كنت على يقين من أنك سوف تفعلها يوما ما .

سألها و قد بدأت نبرة صوته في التصاعد :

- كنت أتوقع منك أن تسأليني بالفضول المعتاد عمن هي تلك المرأة، و لكن ما دمت لا تريدين معرفتها فلن أجبرك على ذلك .

ألقى بجملتيه ليتحرك بعدها خطوتين باتجاه باب الغرفة ليغادرها، استوقفته قبل أن يكمل الثالثة ممسكة معصمه بقبضة يدها بقوة ، لم تتكلم بل تركت عيناها ليقوما بما عجز عن آدائه لسانها .

قرأ محمود رسالة عينيها جيدا ، فارتفع صوته و هو ينادي ابنته رشا بقوة سببت لأمل ارتعاشة بسيطة ، ربما لأنها لم تعتد أن تكون نبرة صوت محمود على هذه الشاكلة :

- رشا .. رشاااااا .

أقبلت رشا مسرعة و هي تقول بعصبية لكن بصوت خفيض :

– ماذا هناك يا أبي ؟ لماذا تناديني بهذا العنف و أنت تعلم أنني بصحبة صديقتي بالخارج ؟

أجابها محمود منفعلا :

– إذا أردت أن تتجنبي الإحراج ، فعليكِ استضافة صديقاتك في شقتك بالطابق الأعلى ، أما هنا في بيتي فلا توجهينني للطريقة التي أناديك بها .

رفعت حاجبيها مندهشة مما أصاب أباها لتقول :

– ما الداعي يا والدي لكل هذا الانفعال ؟ ماذا حدث ؟

يرد عليها :

– لست بصدد تلقي أسئلة الآن ، فقط احتضني أمك الآن و بقوة .

زاد ارتفاع حاجبيها هذه المرة و همت بالسؤال ،لكنه كرر الأمر ثانية و بلهجة أكثر صرامة :

– احتضني أمك بقوة يا رشا ، افعلي ما آمرك به .

نزلت رشا بهدوء لتجعل ركبتيها موضع قدميها للتمكن من احتضان أمل الجالسة على الكرسي ، و هي تسألها بصوت بالغ الانخفاض :

– ماذا هناك يا أمي ؟

يمكن القول بأنه بالرغم من أن شفتي رشا كانتا تقريبا ملتصقتين بأذن أمل ، إلا أن الأخيرة لم تسمع أي حرف من كلامها ، لطغيان حاسة الشم لديها على حاسة السمع .

ما أن دلفت بقايا رذاذ العطر الذي كانت تتعطر به رشا إلى خياشيم

أمل حتى تفهمت الأخيرة ما كان يرنو إليه محمود من هذه التمثيلية المتقنة ، فأمرت رشا بالانصراف دون أن تجيبها على سؤالها ، و تفرغت لتنظر لمحمود نظرة طفولية ثم أحنت رأسها لأسفل ، بعدما ألجمها الموقف عن النطق ببنت شفة .

انصرف محمود لعمل بعض الاتصالات الهامة في الشرفة ، فيما جلست أمل تفكر في كيفية الخروج من المأزق التي وضعت فيه نفسها ، قررت بعد فترة أن تعتذر له صراحة ، معتمدة على ما تلمسته منه إبان مرضها من حنان و اهتمام يؤكدا على أنها لا تزال تحتل الصدارة في قلبه ، لا شك أنه سيسامحها بقليل من الدلال و الخلاعة ، و ربما بما هو أكثر من ذلك حين يوصد دونهما باب غرفة نومهما .

كان بإمكان أي إنسان سطحي التفكير أن يعتقد بأن شيطان أمل سوف يبيت ليلته حزينا بعدما انتصر عليه محمود ، كما يحدث في دنيا البشر من استخدام الواسطة و المحسوبية في التعيين بالوظائف ، لا بد إذن أن عند الشياطين رشوة و محسوبية أكثر ، لذلك فإن الشيطان ذو العلاقات الأقوى هو من يتولى أمر غواية امرأة ، لأنه أسهل مرات من أن يعبث بعقل رجل ، لذلك كانت مهمة شيطان أمل ميسورة ، بعد أن أوحى إليها بأنه ربما ما كان عليه محمود من العصبية الملحوظة والصرامة غير المسبوقة ، ما هو إلا مران لما هو مقبل عليه ، فلا بد لمن أراد أن يعدد الزوجات أن يتحلى بقوة الشكيمة ، لا أن يكون إنسانا سهل المراس ، ليتمكن من السيطرة على الوحوش الضارية المسماة بالنساء .

ما زاد من فرصة سيطرة الشيطان على أفكارها ، أنها و هي في

طريقها لمحمود في الشرفة كانت تتلصص بنظراتها كالفأر لتتأكد من خلو البهو من رشا و صديقتها ، بمجرد أن تأكدت حتى قررت إكمال مسلسل التلصص ، و لكن هذه المرة بأذنها ، أقنعت نفسها بأن ما تفعله شيئا مشروعا لتضع اللبنة الأخيرة في بناء براءة محمود ، و ما إن اقتربت من الشرفة حتى سمعته ينهي مكالمته التليفونية و يتحدث بعدها لنفسه بحديث قصير و لكنه أجج مرة أخرى من غيرتها ، حيث ختم حديثه بذكر الرجل الذي يهرع إليه أفراد العائلة قبل اتخاذ أي قرار مصيري لهم ، فكان محمود يقول لنفسه :

- إذا كان الأمر كذلك ، فلا شك أنني بصدد زيارة عاجلة للمتر عاصم .

انفطر قلب أنيسة لفاجعة فقدانها لولدها الحبيب علاء ، ظلت طريحة الفراش فيما يشبه الغيبوبة لمدة أسبوعين فور سماع الخبر ، كان اهتمامها المفرط بضرورة الحفاظ على منصور من المتربصات الأخريات من النساء يطغى على اهتمامها حتى بأبنائها ، تمنت لو يعود بها الزمن للوراء لتظل محتضنة علاء و لا تفارقه أبدا .

بعدما أفاقت من غيبوبتها و استردت عافيتها نسبيا طلبت من النساء الحاضرات لمواساتها طلبا و لا أغرب ، توسلت إليهن أن يتركنها بمفردها ، حيث أنها في أمس الحاجة للعزلة الآن .

لم يسئهن طلبها لسابق رصيدها لديهن من حسن المعاملة و نقاء السريرة ، حتى من كن منهن قد أتين من أقصى الصعيد لأداء الواجب و الوقوف إلى جوار من لم تترك أحدا إلا و قد وقفت إلى جواره ، انصرفن في هدوء مقدرين حالة الأم الثكلى ، و كان من بين المنصرفات أمل ، التي انحنت بعد سماع رغبة أنيسة لتقبل رأسها و تقول :

– لن أثقل عليك يا حاجة أنيسة ، و لكن أريدك فقط أن تعلمي أن الأقدار التي حرمتك أن يكون لكِ ابنة ، كانت تدخر ابنة لك تدعى أمل ، كل مرادها في الدنيا أن تكون طوع أمرك لتنفيذ أي رغبة لك ، و ما أسعدها أمل أن تستقبل يوما مكالمة من والدتها أنيسة لتقبل إليها مهرولة ، فتكون تحت قدميها .

كادت ضلوع أمل أن تتحطم من شدة عناق أنيسة لها ، و هي تقول بصوت يفيض بالمرارة و الشجن :

– آاااااااااااااه يا أمل ، آاااااااااه يا حبيبتي .

انصرف الحضور حتى بقي بالبيت ثلاثتهم : منصور و أنيسة و وليد، كانوا يتحاشون أن تتلاقى أعينهم مع بعضها البعض ، لا يدرون لذلك سببا ، هم وليد بالانصراف متعللا بإنهاء ما لديه من أعمال متأخرة جراء الإجازة الطويلة التي أخذها بسبب الحادث الأليم ، بينما راح منصور ينتبذ مكانا قصيا يمكنه من الخلوة و قراءة القرآن ، فتدلف بعد ذلك أنيسة لغرفتها لتناجي ربها :

- أيعقل يا رب أن تقوم منتقبتان و ملتحي بتفجير قنبلة في أناس أبرياء تحت مسمى الانتصار للدين ؟

- أيرضيك يا رب أن يقوم من تشبه برسولك الكريم عليه أفضل الصلاة و أتم التسليم في إطلاق اللحية ، و كذلك من تشبهتا بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن في ارتداء النقاب بمثل هذه الأفعال ؟

- أمن الممكن أن يبيتوا ليلتهم و هم مرتاحون بينما أنا و غيري من الأمهات الثكلى يحترقن بنيران فقدان فلذات أكبادهن ؟

- أهذا هو الدين يا رب ؟

- أهذا هو الإسلام يا رب ؟

ثم سكتت لتحاول أن تغالب دموعها قبل أن تقول بصوت وجل يتقاطع معه نحيب عميق :

- اللهم إني راضية مستسلمة .. اللهم إني راضية مستسلمة ..

كررت قولتها مرارا و تكرارا ، و بدت بعد فترة و كأن اللّه سبحانه وتعالى قد أنزل سكينته عليها ، لتهدأ و يقف إدرارها لدموعها .

كعادة أي إنسان مكلوم بعد مصيبة ألمت به أن يقوم بإعادة ترتيب

أوراقه في الحياة ، قامت أنيسة بمراجعة سريعة لما قامت به سلفا و تريد أن تكف عنه ، بدأت بإنهاء الأمور التي كانت تستخدم فيها الأسطى بهجت سرا ، و كذلك كانت قد أعدت خطة لإصلاح ما يمكن أن تكون هي قد أفسدته بأفعالها .

تغير نمط حياتها بالكلية ، حتى أن أمل أكثر من يترددن عليها من الناس قد لاحظت غياب الناس غريبي الأطوار الذين كانوا يترددون على منزلها ، و بالطبع قل معدل تحجج بهجت بالذهاب إلى الحمام لقضاء حاجته ، حيث كان يجلس حزينا بعد أن جفت منابع الرزق الإضافي مرة واحدة من جانب منصور و من جانب زوجته .

بدأت أنيسة تزيد من زيارتها للصعيد ، السبب الأول بالطبع و المعلوم لسائر الناس هو زيارة قبر علاء ، و الآخر و الذي لا يعلمه سواها هو محاولة إرضاء ضميرها بشكل أو بآخر تجاه من أساءت لهن في يوم من الأيام ، و إن كن لا يعرفن عن الأمر شيئا ، فإن الله سبحانه يعلم كل شيء .

قبل بدأها في خطتها المزعومة لتصحيح المسار ، كانت قد بدأت أولى خطواتها بأن نوت الذهاب لكاتم الأسرار ، و الذي كانت على يقين من أنه سيساعدها و يخفف عنها حملها الثقيل ، و كسبت رهانها الذي راهنت نفسها عليه يوما و هي تحدث نفسها قائلة :

– من غيره الذي سينجح بإذن الله في حل تلك المعضلة .. إنه لا محالة المتر عاصم .

كان وليد الجالس إلى جوار والده الحاج منصور هذا العام يختلف شكلا و موضوعا عن وليد الأعوام السابقة ، لحية غير كثيفة و نظارة غير طبية كانا كفيلان بتغيير الانطباع الأول لمن يراه ، كذلك الإهمال الملحوظ في ملابسه ، لم يكن يرتدي ملابس رثة ، و إنما كانت ليست على نفس درجة التأنق التي كان يحرص عليها .

بدا و كأنه قد زهد متع الحياة ، الشاب ابن السبعة و عشرين ربيعا ، كان ذلك ملحوظا لكل من يعرفه ، في البداية ظن والداه أن ذلك ربما كان نتاجا لضغوط العمل حيث ازدادت مسئولياته بشكل كبير عن ذي قبل ، أو لعله مر بتجربة حب قاسية ، و لكن ما إن زاد الأمر عن حده ، وأصبح شيئا معتادا أن يُرى وليد على هذه الشاكلة ، حتى قررا مساءلته عن السبب الجوهري وراء هذا التبدل في سلوكه .

كان وليد شخصا يُشِع بهجة و سرورا لكن من يجالسه ، لا يخلو مجلس يرتاده من سيل من النكات أو المواقف الباسمة التي مر بها ، كان له خدين ضامرين أبيضين و عينين ترتسم عليهما البسمة باستمرار حتى دون أن يقصد ، يُعَد دربا من دروب الخيال أن يخرج من بيته دون أن يكون حذاؤه لامعا لدرجة ملفتة للنظر ، لا يقود سيارته إلا و بها فواحة معطرة للجو بعطر أخَّاذ ، حتى ما كان من الممكن أن يعيبه من أنه إلى حد ما لا يستطيع تحمل المسئولية لإحساسه بأنه الأخ الأصغر قد تبدل بوفاة أخيه ، فصار يجمع إلى جانب انطلاقة و مرح الشباب القدرة على تحمل المسئولية و قدرا موفورا من الوقار .

لم يحتفظ وليد منذ عدة أشهر إلا بالصفتين الأخيرتين ، لم يجب

والديه إجابة شافية لقاء سؤالهما عن تبدل أحواله ، كعادته كان يفضل الاحتفاظ بأسراره لنفسه ، و بالذات هذه المرة ، حيث كان من المستحيل مصارحة أبويه بما يشغل باله و يؤرق مضجعه .

بداية المشاكل في حياة وليد يمكن تحديدها بيوم أن أتته إحدى زميلاته في مكتب الديكور الذي يعمل به لتطلب منه طلبا لم يخطر له ببال من قبل ، جلست إليه نيرمين و قد شحب وجهها و تبدلت عيناها الجميلتان و اللتان كانتا أكثر ما يميزاها لعينين زائغتين خائفتين ، تملكهما الرعب من مصير مجهول تلوح بوادره في الأفق ، طلبت منه أن يلتقيها في الكافيه المجاور للشركة لأمر بالغ الخطورة ، حاول أن يؤجل الموعد لانشغاله ذاك اليوم ، إلا أن إلحاحها بل و توسلها كانا أقوى من أن يُقاوَما .

جلست نيرمين تحدث وليد بينما يتجه وجهها صوب النافذة لتقول :

- أنا أعلم أني أثقل عليك يا وليد ، و لكني على يقين من أن أحدا لن يستطيع معاونتي في محنتي كما ستفعل أنت .

لم يرد وليد ، بل انتظر حتى تنتهي من كلامها و إن كان يود أن يكون إيقاعها أسرع مما كانت عليه ، فقد كانت تأخذ قسطا من الراحة بعد كل كلمتين أو ثلاث و قد بدا عليها التردد و الخجل من إكمال ما هي مضطرة لإبلاغ وليد به ، فاستأنفت :

- مررت بأيام غاية في الصعوبة الأسبوع المنقضي ، كان هناك هاجسا ينال مني في صحوي و في نومي ، شعرت بأعراض تدل على أنه من الممكن أن يكون هناك ..

صمتت فجأة و هي تختلس النظر لعيني وليد ، الذي كان ممسكا

بكوب القهوة بينما يشير إليها بالاستمرار لتستكمل قائلة :

- كانت كل الدلائل تشير لأن هناك .. هناك حمل .

سعل وليد بشدة لوقوف قدر من القهوة المحتساة في حلقة ، أنزل الكوب من يديه بهدوء قبل أن يقول :

- من فضلك يا نيرمين ، أعيدي على مسامعي بهدوء ما قلتيه آنفاً .

أجابته بلهجة مفعمة بالندم :

- للأسف ما سمعته هو الحقيقة ، و قد انتظرت للقيام بعمل تحليل حمل قبل أن أخبرك ، قمت بذلك مرتين و أتت النتيجة بالإيجاب .

أحنى رأسه جانبا و كأنه غير مصدق لما يسمع ، و أربد وجهه و هو يقول :

- حمل بدون زواج ..

شبك بين أصابع يديه و أخذ يحرك ركبتيه كزنبرك الساعة ليتابع :

- و ماذا ستفعلين يا نيرمين ، ألم تأخذي حذرك لتجنب يوم مثل هذا ؟

زادت من نبرة التوسل في صوتها و هي تقول :

- أعلم يا وليد أنني أثقل عليك ، و لكن ما دفعني لمقابلتك و طلب مساعدتك أنني أعلم أنك لن تتركني وحدي أواجه مصيري ، بما عهدت منك من أصل طيب و أخلاق رفيعة و قلب عطـ..

قاطعها :

- أصل طيب و أخلاق رفيعة ، و ما فائدتهما في مشكلة كمشكلتك هذه ؟

- أنت تعلم يا وليد أنني من الإسكندرية ، و أنني أجلس بمفردي دون أهلي بعدما تحصلت على عملي في هذا المكتب ، بمعنى أنني لا أجد أخا أو أبا ليحمل عني همومي و يجيرني في مصابي .

نظر صوبها نظرة صارمة ، قال و قد أوشك صبره على النفاذ :

- لا تخدعي نفسك يا عزيزتي ، هل من الممكن أن تصارحي أباك أو أخاك بما أنت فيه الآن ؟ حتى و إن كانا يقيمان معك ليس في نفس البلد و حسب ، و إنما في نفس البيت أيضا ؟

انطلقت باكية لتقول :

- أرجوك يا وليد ، كل ما ستقوم به من توبيخ و لوم لفعلتي الشنيعة قمت به أنا بالفعل و قد فكرت جديا بالانتحار ، و لكني لم أُرِد أن أعالج الخطأ بخطأ أكبر ، لذلك أنا أتوسم فيك الفارس النبيل ، الذي لن يتوان عن مساعدتي ، فهل أنت فاعل ؟

هدأ نسبيا رغم علمه بأن من هي مثل نيرمين لم تكن و لن تكون يوما لتفكر بالانتحار ، لكنه لسبب أو لآخر قرر مساعدتها ، فأومأ أليها برأسه بعلامة القبول و إن كان على مضض ، لتستحيل ملامحها بمنتهى السرعة لملامح باسمة ، و إن بقيت بعينيها آثار دموع .

موهبة نيرمين كمهندسة ديكور ليست بالكبيرة ، بل على العكس كان الكثيرون ممن تعاملوا معها فنيا و لو لمرة واحدة يدركون أن تعيينها كمهندسة في مكتب للديكور له اسمه المعروف كهذا لا بد أنه تم بطريقة غير مشروعة ، ربما كان لديها ما يشفع لها من إمكانيات لم تتوافر لمن سواها من المهندسات الطامحات للالتحاق بالمكتب ، فهي لأول نظرة يلقيها عليها

أحدهم يدرك تماما أنها من فصيلة الثدييات ، كما كانت تمتلك عينان تجيد استعمالهما جيدا بين التبسم و الدلال و التوسل والمسكنة .

لم يكن وليد يعلم عن ذلك شيئا ، فكان يتعامل مع كل الناس بحسن نية ، و لكنه الآن أمام فتاة لجأت إليه و قد عقد النية على الوقوف لجانبها ، حتى بعد ما علم بحقيقة أمرها .

سألها وليد :

- هل أنت مدركة يا نيرمين للخيار الوحيد الذي أنت بصدده الآن ؟

أجابته و هي تحني رأسها في صغار أمامه :

- كنت أظنهما خيارين يا وليد .

زاد من صرامته ليكرر نفس السؤال ثانية :

- نيرمين ، هل تدركين جيدا أنه ليس أمامك سوى خيارا واحدا ؟

أجابت :

- أعلم ، و أعلم كذلك أنه من الممكن أن تنتهي خياراتي في هذه الحياة إذا حدث ما يكون أحيانا أثناء إجراء مثل هذه العمليات من فقدان حياتي بالكامل و ليس الجنين فقط .

انصاع وليد لرجائها بأن يبت في الأمر سريعا ، و قرر مقابلتها في نفس المكان بعد يومين على الأكثر ليبحث الموضوع بتروي ، طلب منها الانصراف لتتركه وحده يتدبر الأمر .

ذهبت فراح يقلب المسألة في جنبات عقله ، ليتخذ قراره بضرورة اللجوء لمن باستطاعته أن يفيدهما في مثل هذه الأمور ، نعم .. إنه هو ، سيذهب للقاء المتر عاصم .

كانت رحلة أنيسة هذه المرة مختلفة عن سابقتها لسوهاج ، عادة تذهب منفردة قبل ذلك ، كانت اليوم ذاهبة بصحبة منصور و وليد و عاصم ، فبمجرد علمهم بوفاة صباح أخت منصور و عاصم حتى تجمعوا ليذهبوا سويا لتوديع المرحومة التي ظلت طريحة الفراش للمرض لأكثر من عامين .

جلوس أنيسة إلى جانب وليد الذي يقود السيارة غير معتاد ، ولكن اضطر الحاج منصور للجلوس إلى جانب أخيه شبه المنهار لسماع خبر الوفاة ، الرعشة التي كانت تنتابه و حالة الوجوم المسيطرة عليه بعثت بقدر غير محدود من قلقهم من أن يلحق هو الآخر بأخته ليبيت ليلته في قبره .

لم يكن القلق وحده هو العاطفة المسيطرة عليهم ، و إنما كذلك الدهشة البالغة لسابق معرفتهم بأن المرحومة صباح كانت لها علاقة بعاصم تتسم بالفتور ، بل كانت أحب أخواته البنات لقلبه هي عائشة، كما أن عاصم ليس بالشخص البكَّاء ، لم ينسوا أنه يوم فقده لأبيه و من وراءه أمه لم يبكِ مطلقا ، فلأي سبب يكون على هذه الحالة ؟ لم يصرحوا بما يشغل بالهم من سلوكه الغريب ، فعلى أي حال ليس الوقت وقت فضول ، بل راحوا يواسونه جميعا ، حتى منصور الذي يشاركه مصابه ، تحول من مكلوم لشخص يواسي عاصم بكل ما أوتي من قوة .

وصلوا بالفعل بعد آذان المغرب ، ليخبرهم العمدة بأنه اتخذ و زوج المرحومة قرارا بتأجيل الدفن لأول ضوء من الفجر ، خاصة و أن برودة الجو ستحول دون أن تتأثر الجثة .

قرر العمدة أن يصطحب منصور و عاصم للذهاب لدواره للراحة ، بيد أن منصور تحجج بضرورة رؤية أختهما قبل أن يودعانها للأبد ، فيما ظل عاصم ملتزما الصمت واجما ، تركهما العمدة ليفعلا ما أرادا ، و لكن بعد أن انتزع وعدا من منصور بأن يحلا ضيفين على دواره ، مشددا على أن الكفر لم يتشرف بحضور منصور منذ ثلاثة أعوام ، و لم يأت عاصم منذ خمسة أعوام أيام حادثة المرحوم علاء .

وجدت أنيسة نساء البلدة في انتظارها ، و قد استعدين لطبع وابل من القبلات على النسق الصعيدي على وجنتي أنيسة ، كادت ملابسها أن تتمزق بعدما تصارعن على جذبها لتكون ضيفة إحداهن ، فوعدتهن بمجرد الانتهاء من مراسم الدفن و العزاء بأن تعودهن في منازلهن واحدة تلو الأخرى .

هناك وجه اختلاف آخر في زيارة أنيسة اليوم ، فلن تستطيع القيام بما كانت تقوم به في زياراتها السابقة عقب استشهاد ولدها ، لكيلا تلفت الأنظار ، خاصة لوجود زوجها و ابنها برفقتها في هذه الرحلة ، ولكنها قررت استغلال الأيام الأربعة التي ستقضيها في الكَفْر في ملازمة قبر علاء أكبر وقت ممكن ، للاستئناس به و مناجاته عن قرب .

ارتفع صوت صراخ عاصم في الحضور و هو ينهاهم عن التدخل في رغبته بلقاء أخته صباح منفردا ، حيث كانوا يحاولون إثناءه عن عزمه، و يقترحون أن يدخل بصحبة أخيه و أختيه جماعة ، و لكنه رفض مرة ، فزادوا من إلحاحهم ، لينفجر في وجوههم قائلا :

- دعوني و أختي ، ابتعدوا عن طريقي ، أحذركم بالابتعاد عن طريقي ، ألا تفهمون ؟

أشار إليهم منصور بالامتثال للأمر بيديه ، و قام بدفعه بلطف تجاه الباب فتحرك عاصم ببطء ، دخل و تقدم خطوتين ، نظر خلفه لمن يراقبونه خارج الغرفة ، أسرع نحو الباب مغلقا إياه ، ظل ممسكا بمقبض الباب ليتأكد من أن أحدهم لن يقتحم خلوته مع صباح ، اقترب منها ليزيح الغطاء عن رأسها ، قبلها بين عينيها و حدثها و كأنها تسمعه:

- لا أجد ما أقوله لك يا صباح ، كم سأفتقدك يا أختاه ، و لكني سأصلح ما أفسدته في حياتك ، لن أطلب منك مسامحتي على ما اقترفت في حقك ، فحمرة الخجل تمنعني من أن أطلب منك طلبا مثل هذا ، كما أنني موقن بأن من لديها قلبا كقلبك لا بد و أن تسامح ، بل لن تستطيع إلا أن تسامح .

أعاد تقبيلها ثانية ، اتجه نحو الباب ليخرج منه و قد ترك انطباع لدى الوقوف بالباب بمجرد رؤيته أنه قد هدأ نسبيا ، بل هدأ كثيرا ، نظر حواليه ذاهلا فيما تراخت ساقاه ، هرع الوقوف لإعانته على المشي ، قادوه ليذهب باتجاه الشرفة الكبيرة و يجلس منفردا ، هم زوج أخته فاطمة باللحاق به لمحادثته و التهدئة من روعه ، استوقفه منصور بأن جذبه من ذراعه قائلا :

- اتركه يا صالح ، اعتقد أن هذا هو عين ما يحتاجه الآن .

سأله صالح و قد أهمه أمره كثيرا :

- ماذا دهاه يا حاج منصور ؟ لم نرى المتر عاصم يوما على هذه الشاكلة .

- صدقني و لا أنا يا صالح ، فقط اتركه لعل الوقت يكون له تأثيرا إيجابيا على حالته .

قَلَّب المشهد على وجدان أنيسة ذكرى وفاة ولدها ، صحيح أنها لم تحضر الدفن و لم تأت من الأساس لسوهاج بعد دخولها في الغيبوبة فور سماع الخبر ، لكنها راحت تستحضر المشهد الذي كان من المؤكد مشابها إلى حد بعيد بمشهد اليوم .

راقبت صواني الطعام المعدة من قبل عائلات البلدة لتقديمها للمعزين ، النساء يحملنها فوق رؤوسهن بمهارة عالية و قد قمن بتغطيتها بقماش خفيف ، بينما انشغل شباب القرية في حمل و ترتيب الكراسي المعدة لجلوس المعزين ، أما عمال الفراشة فقد تسلقوا السلالم لخشبية لتثبيت مكبرات الصوت الضخمة في أعلى أعمدة الكهرباء المجاورة للمكان المعد للعزاء ، توسطت أنيسة الحاضرات من النساء اللاتي ارتدين ملابس الحداد السوداء ، ليجلسن منتظرات انتهاء الرجال من الدفن ، بعدما قام إمام المسجد الذي صلى على المرحومة صلاة الجنازة بالتأكيد كعادته على ضرورة تجنيب النساء الذهاب للمقابر .

أنهى الرجلان دفن جثة أختهما و توجها بصحبة باقي رجال القرية عائدين للمكان المقام فيه العزاء بجوار منزل المتوفاة ، اصطف مجموعة من أقرباء المتوفاة بمحاذاة بعضهم البعض لاستقبال الحضور، انفردوا بالوقوف دون سائر الناس ، و بطبيعة الحال كان من بينهم

أقرب الأقرباء من صباح منصور و عاصم أخواها ، لن يكون أحدهم مبالغا إن ادعى أن الاثنين قد صافحا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف شخص من القادمين من البلدة و البلدات المجاورة لتقديم واجب العزاء، لم يتجاوب عاصم مع أي قائل منهم بالبقاء لله ، لم يرد عليهم ، بل لم يسمعهم من الأساس ، حيث كان هائما في شجونه ، بعد أن رأى بنفسه ما آل إليه حال أخته بعد مرضها ، كان بيتها متواضعا ، ليس كبيتي أختيها المتزوجتين من رجلين ميسورا الحال نسبيا ، يبدو أن المرض قد نال منها و من زوجها ماديا بشكل كبير .

يحدث نفسه قائلا في صمت :

- الكل يرجوك يا عاصم لتجيرهم في مصائبهم ، فمن يجيرك أنت الآن يا متر عاصم ؟

كان قد بقي على موعد بداية الحفل أقل من ربع الساعة ، استغلتها رشا في استدعاء ذكرى يوم أن وهبها أبوها مبلغ نصف مليون جنيه ولأختها مثله .

لا تنسى أبدا نظرة زوجها خالد نحوها ، و قد اعتلت السرير واقفة وراحت تقفز لأعلى مرارا كلاعبات الجمباز متأثرة بفرحتها الشديدة ، و لما رأته ينظر لها و هو يراها لأول مرة كطفلة ، بادرته :

– لا تظن أن سعادتي الكبيرة هي لمجرد الحصول على المبلغ ، أو حتى لأنه سيمكنني من شراء سيارة و رحلة لأوروبا ، كما أعلنت سالي عن رغباتها منذ قليل .

سألها خالد بلهجة الخضوع التي تلازمه باستمرار حين يحدث زوجته :

– علام إذن تنصب جم سعادتك يا حبيبتي ؟

أجابته بعينين لامعتين و هي لا تزال واقفة على السرير ، بينما يرتفع صدرها و ينخفض بسرعة جراء ما قامت به منذ برهة من حركات أكروباتية :

– هل نسيت حلم عمري الذي ظللت لسنوات أحلم بتحقيقه ؟

سألها بخجل و ترقب خشية أن تلومه على نسيانه لحلمها :

– عذرا رشا ، أنت تعلمين مدى ضعف ذاكرتي .

لم تسمح لها السعادة الجمة التي تعيشها الآن بأن تبحث كسائر النساء عن سبب للشجار ، فتجاوزت نسيان خالد لحلمها لتقول :

– عما قريب يا زوجي الحبيب سوف تعلم ما أنوي القيام به .

قبل ثلاثة أعوام من حفل اليوم كان محمود قد نجح في تسويق شحنة ملابس ضخمة كان قد استوردها من تركيا ، يمكن القول أنه أغرق السوق بعلامته التجارية الجديدة ، مما مكنه من حصد ربحا تاريخيا ربما يصل صافيه لثمانية ملايين جنيها ، لتشير عليه أمل بأنه من الواجب إعطاء وحيدتيه رشا و سالي مبلغا من المال ربما كانا في حاجة إليه .

في بادئ الأمر ظن محمود أن زوجته ترنو لإعطاء كل واحدة عشرون أو ربما ثلاثون ألفا فوافق على الفور ، لكن ما إن أخبرته بأن المبلغ الذي في مخيلتها خمسمائة ألف حتى أبدى تحفظا شديدا و هو يقول :

- ماذا يا أمل ؟ مليون جنيها دفعة واحدة موزعة على ابنتاي ؟ ما السر وراء ذلك البذخ ؟

جلست أمل على إحدى فخذيه و هي تداعب شعره بيدها لتقول :

- بعد انتقالنا من المنيرة ، كنا قد صرفنا أموالا طائلة لإعداد هذه الفيللا لنا و لابنتينا ، لرغبتنا في بقائهما معنا بعد الزواج ، كما أن مرحلة التطوير لديكور و أثاث الفيللا كانت مرهقة ماديا بالنسبة لك، أضف إلى ذلك الركود الشديد الذي أصاب السوق بعد ٢٥ يناير ، ومن المؤكد أنه كان لك منه نصيبا و إن كان قليلا ، لذلك يمكننا القول بأننا الآن في أحسن حالاتنا المادية منذ فترة ، و أصبحت يا محمود من الموسرين المثقلين بالمال .

استقبل محمود تعليقها الأخير بأن أشار بكف يده تجاه وجهها ،

مفرجا بين أصابعه لدرء حسدها ، لكهنا أكملت حديثها دون تعقيب إلا ابتسامة خفيفة :

- فلا مانع إذن من إعطاء ابنتيك مبلغا يستطيعان من خلاله شراء سيارتان أو حلي أو ربما تدخرانه ، و كذلك إن كنت ترى أن أمهما تستحق هي الأخرى مبلغا من المال فلا مانع ، و إن كان أمر أمهما متروكا لك لتقيمه كيف شئت .

امتقع وجه محمود عقب القذيفة الأخيرة المنطلقة من حنجرة أمل، فهي كدأبها تضعه في اختبار تلو اختبار ، حيث لم تلزمه بإعطائها النقود ، كذا لم تحدد مبلغا من المال ، فاضطر محمود لأن يبالغ في العطاء ليبرهن لها على مدى تقديره لها ، مما دفعه للقول باسما :

- لو أردت أن أمنحك ما تستحقين لما تمكنت من أن أوفيك حقك ، لا بد إذن من إعطائك كل المال حتى دون ابنتيك و دوني أنا شخصيا .

ضحكت و تقلصت عيناها الجميلتان بفعل شدة الضحكة تجاوبا مع ذكاء محمود في التخلص من المأزق ، لتعاود القول :

- أنا لست جادة يا محمود إلا فيما يتعلق بأمر ابنتينا ، أما أنا فلا أريد مالا حقا ، بل يكفيني وجودك إلى جانبي ، ثم انقضت عليه لتحتضنه بعنف بليغ ، و هو يتجاوب معها بينما تسائله نفسه عن فعلها المفاجئ ، حدثته هواجسه بأن هناك أمرا ما بالغ الخطورة دفع أمل لعناقه بحرارة ، و لكنها هذه المرة كانت بريئة من اتهاماته ، حيث أن ما دفعها لعناقه فقط هو حنينها لهذا الشعور بين ذراعي من تحب حبا شديدا ، بل إنها و هي ملقاة في أحضان محمود كانت تسدد

اللعنات للتقاليد البالية ، و التي كانت تحول دون أن تصرح المرأة بحبها لزوجها، ربما من منطلق أنه أمر ممنوع على النساء ، أو لعل الأمر لتجنب أن يغتر الرجل فلا تتمكن المرأة بعد ذلك من أن تكون ندا له .

ما أسرع أن تأثر محمود بجلسة أمل على فخذه و ارتمائها في حضنه، فما لبث أن قام واقفا ليتناول هاتفه المحمول و يطلب ابنتيه لاجتماع عاجل ، نزلت سالي كعادتها منفردة ، و أعقبتها رشا بصحبة خالد و لكن بعد فترة ليست بالقليلة ، بدا على محياها و كذا زوجها أن مكالمة الوالد قد انتزعتهما من لحظات حميمية اختلساها لخلود ولدهما للنوم ، و هو ما أثار أمل لتبتسم ، بينما لم يلاحظ محمود ما تلاحظه النساء .

وقف محمود و أمل بما يشبه ما يحدث في المؤتمرات الصحفية لقادة الدول ، حيث كان محمود منتصب الظهر رافعا كتفيه يتحدث وكأنما يلقي خطابا سياسيا ، بينما تقهقرت أمل للوقوف خلفه باسمة بنصف خطوة ، بدأ محمود يقول :

- أريد أن أخبركما يا ابنتاي العزيزتين بأنني قد ربحت مؤخرا مبلغا لا بأس به ، و قد قررت ..

ثم التفت نحو أمل ليتابع رد فعلها بعد أن نسب القرار لنفسه، ليجدها تهز رأسها مشيرة إليه بالاستمرار في حديثه الذي لا يقابل منها بالرفض ، فاستطرد يقول :

- قد قررت أن أعطي كلتاكما نصف مليون جنيه ، و أنتما أحرار في التصرف بالمال الذي ستؤتيانه .

نسيت رشا أنها في حضرة والديها و أختها ، و التقت و خالد في قبلة عنيفة طبعتها على شفاهه تحت تأثير الفرح الشديد بالخبر ، إلا أن الأخير وكزها لتنبيهها لفعلتها ، فلم تنتبه أيضا بعد الوكزة ، بل همت لتواصل قُبلتها حتى دفعها بيده بعيدا مشيرا بطرف عينيه نحوهم ، لتقع عينيها على والدتها التي وضعت يدها على فمها لتحول دون خروج صوت الضحكة التي علت وجهها ، بينما خفضت سالي وجهها و قد ارتسم عليه مزيج من ملامح الخجل و الحسرة ، فيما كان محمود ضاما يديه لصدره على شكل مربع ليقول :

- هل انتهيت يا رشا ؟ هل بإمكاني استكمال حديثي ؟

لم ترد رشا بل احتفظت برأسها خفيضة ، فيتنهد محمود قائلا :

- إن أرادت إحداكما أن أعاونها فيما تنوي فعله فأنا رهن أمركما، هل لديكما أفكار الآن أم أنكما تفتقدان للتركيز الكامل ؟ خاصة أنت يا رشا ، يبدو أنك و خالد بحاجة للوقت لتستعيدا زمام السيطرة على عقليكما .

يرد خالد ببراءة :

- أما أنا فليس لي علاقة بهذا الأمر يا عمي ، فهي أموال رشا و هي حرة التصرف فيها كيف شاءت .

أسرعت سالي و هي ترفع سبابتها و كأنها وجدت الإجابة فتقول :

- أنا يا والدي أعرف جيدا ما أنوي عمله .

التفت إليها صارفا نظره عن رشا و خالد ليسأل :

- و ما هي نيتك يا حبيبتي ؟

- سوف ابتاع سيارة حديثة ، كما سأحول إقناع حسام بالذهاب لإسبانيا لقضاء عطلة بسيطة هناك .

أعاد بصره تلقاء رشا ليسألها :

- و أنت يا رشا ، ما تنوين فعله ؟

أجابت بهدوء على غير عادتها :

- سوف أقوم بعمل المشروع الذي طالما حلمت به يا أبي ، ألا زلت تذكره ؟

- نعم يا حبيبتي ، و لكن ألا ترين أن المبلغ الذي سيكون بحوزتك إن شاء الله مبالغا فيه ؟

- على العكس يا والدي ، فأنا أعتقد بأنه ربما كان غير كاف .

أراد فجأة إنهاء الحوار ليقول مسرعا :

- كما يحلو لكما ، فهي أموالكما و ليس أموالي .

انصرف تجاه غرفة نومه فتبعته أمل ، حتى إذا دلفا للداخل أغلق الباب دونهما ليستوقف أمل بكلتا يديه و قد جعل ظهرها ملصقا للحائط ، ليقول لها :

- إياك أن ترددي مجددا أنك تشعرين بأن رشا ليست سعيدة في زواجها .

لم يترك لها الفرصة لترد ، بعد أن ارتفع صوته و هو يقول :

- إن كانا يفعلان هذا أمامنا ، فأي شيء يفعلانه و هما بمفردهما ؟

قالت له في دلال :

- أتحقد على ابنتك و زوجها أيها الجد ؟

جذبها من شعرها لتتأوه برقة ، وضعها أمامه و دفعها للأمام بعد أن ضربها ضربة قوية - ليست بريئة - أسفل ظهرها ، بدا و كأنه قد تجمع لديه أحاسيس أخاذة من جلوس أمل على فخذه قبل قليل و ارتماءها في حضنه ، مع ما شاهده من قبلات ساخنة في بهو المنزل ، فقرر أن يستكمل النقاش مع أمل على إنفراد و لكن بطريقته هو .

أحست أمل بهياج مشاعر زوجها ، حاولت إثناءه عما ينوي فعله فقالت :

- محمود ، تمهل ، إن ابنتيك في الخارج .

وضع سبابته أمام شفتيه و قد ضمهما على شكل دائرة و هو يقول :

- هُسسسسسس .

ثم استمر في جذبها من شعرها ، و هي تدَّعي المقاومة ، لكن هيهات هيهات .

انصرفت سالي لشقتها في هدوء ، بينما راحت رشا تحدث خالد بضرورة المضي قدما و بسرعة لتنفيذ خطتها ، طرأت تفكر كيف تبدأ ، لتلمع عيناها و هي تنطلق قائلة :

- نعم ، إنه هو ، لا بد من سرعة الاتصال بالمتر عاصم .

ظل عادل لفترة كبيرة مترددا بشأن الخدمة التي طلبها من سميرة بخصوص التقرب من أمل للضغط على محمود للقبول بالشراكة ، لم يكن التردد بدافع الخجل من الأمر ، و لكن لعلمه أن سميرة شخصية عنيدة و مكابرة ، لن تتقبل الأمر بسهولة ، إلا أنه فوجئ بمجرد طرح الفكرة بموافقة فورية من سميرة ، بل و أرفقتها بجرعة من الحنان غير المفتعل طمأنته كثيرا لأن مناه في أيد أمينة .

كانت دهشته عميقة ، لكنه لم يشأ ليفصح عن فحوى صدره ، إنما حمد الله لتيسير الأمر ، و مضيا قدما سويا لرسم الخطة .

كان لدى سميرة الدافع القوي للقبول ، و الذي لا يعلمه عادل ، حيث أنها كانت تشعر بتأنيب الضمير لظنها في عادل أنه على علاقة بامرأة أخرى ، و ما إن تأكدت من عدم صدق معلوماتها حتى قررت أن تكفر عن خطيئتها بصورة أو بأخرى ، فما كان منها بمجرد إفصاح عادل عن مكنون صدره ، إلا أن أسرعت مجيبة ، بل و عاونت في وضع الخطة ، كما تفوقت و أبدعت في التنفيذ .

ذات يوم بينما كانت سميرة قد أنهت جولة التسوق بإحدى المولات، خرجت من البوابة لتجد عادل واقفا بصحبة امرأة متوسطة العمر، يتحدث إليها باهتمام أمام أحد البنوك الموجودة إلى جوار المول، وبعينيه نظرة حانية .

انتخبت سميرة مكانا يمكنها من مراقبة المذكور دون أن ينتبه

لفعلها، أنهى عادل حواره مع المرأة بأن أدخل يده في جيبه ليخرجها وبها رزمة من النقود ليعطيها لها .

استشاطت سميرة غضبا ، و ازداد وجهها اكفهرارا ، أيقنت أن هناك خيانة لا محالة ، جلست على مقعد أسمنتي بجوار المدخل ، كان معدا لراحة رجال الأمن ، بعدما شعرت بإرهاق في سائر بدنها من وقع المفاجأة ، ركب عادل سيارته و جلس هو الآخر يفكر دون أن يحرك السيارة ، كانت هي تفكر في اتجاه وضع خطة محكمة للإيقاع بعادل متلبسا ، أعماها غضبها عن ملاحظة أمرا هاما ، و هو أن عادل لم يفتل شاربه بيده كعادته دائما عندما يتحدث لأنثى ، بل كان كذلك مغلقا أزرار قميصه غير متباهيا بشعر صدره أمامها ، بينما كان هو مهموما لعدم قيام السيدة بأداء ما كان قد طلبه منها على الوجه الأكمل ، راح يسدد اللعنات للروتين الذي يحول دون حدوث أي أمر إيجابي في هذا البلد ، استمر في سيارته قائما بحفنة من المكالمات الهاتفية لمحاولة إيجاد حل للمشكلة ، لكن سميرة راحت تفسر ما رأته من انتظاره بالسيارة كل هذه المدة بأنه متأثرا لا محالة بألم الفراق ، فما أن ودعته حبيبته على أمل اللقاء قريبا ، حتى سلبته روحه فصار جسدا بلا روح ، فكيف لجسد بلا روح أن يقود سيارته .

تذكرت سميرة فجأة أن عادل يتصاغر أمام شخص بعينه ، كم من مرة شاهدته و هو يجلس ليستمع إليه دون أن يحرك رمشا كي لا يفوته لفتة من كلامه أو إشاراته ، كما كان يذكره بكل خير في غيابه و يخبرها

أنه محظوظ لوجود ابن عم له مثل ذلك الرجل ، قررت أن تشكوه لذلك الرجل عله يصلح أمره ، لم ترد أن تواجهه مباشرة ، لاعتقادها أنه سوف يحيك أكذوبة ماكرة يتبعها بأن يلقي عليها هي باللائمة آخر الأمر .

ساقه خياله بعد أن غُلّقت الأبواب أمامه للاستعانة بمن يثق بقدراته في التعامل مع مثل هذه الأزمات ، فقرر أن يهاتفه على وجه السرعة .

العجيب أنه في نفس اللحظة التي أقسمت فيها سميرة قائلة :

- و الله لأشكونَّك للمتر عاصم .

كان عادل هو الآخر يقول :

- لا بد من الاتصال بالمتر عاصم .

بعد أن خرجت أميرة للقاء صديقتها غادة ، كانت قد نوت على فعل أي شيء لنسيان كل شيء ، التقتها غادة في المنزل الذي تستأجره مع مجموعة من الطالبات المغتربات ، و اللاتي تململن من البقاء في المدينة الجامعية فقررن الانتقال للعيش سويا في منزل منفرد .

كن ست بنات من محافظات مختلفة ، من بينهن غادة ، التي ما إن تتحدث مع أحد حتى تراعي جيدا ألا تتساقط من فمها كلمات تدل على عدم قاهريتها ، لكنها و بحكم التعود لا تلبث أن يتسرب من فمها كلمة أو أكثر من لهجتها الأم ليبتسم من يحاورها بعد معرفته أنها ريفية ، مما كان يثير حفيظتها و يجعلها تشعر بالدونية ، و هو الأمر الذي لم يكن له أي مبرر إلا خيالاتها المريضة ، و أفكارها العنصرية المسبقة .

ذهبت غادة لفتح الباب عقب سماعها لرنين الجرس ، لتجد أمامها أميرة و قد بدا أنها تحمل أطنانا من الهموم ، فتحت غادة لها ذراعيها على مصراعيهما لترتمي بينهما أميرة باكية شاكية بكلمات غير مفهومة و بجمل غير مكتملة ، أخذت غادة تربت على ظهرها وتنصحها بالهدوء ، ثم جذبتها للدخول قبل أن تغلق الباب .

أشارت غادة لأميرة بالجلوس على أحد المقاعد الموجودة بالصالة ، لم تجلس و قالت لغادة :

- عذرا يا غادة ، هل يمكننا الجلوس في أي غرفة للحديث بمفردنا ؟

أجابتها غادة :

- على الرحب و السعة يا عزيزتي ، دعينا ندخل هذه الغرفة ، فإنها لي و لزميلتي حسناء التي لن تأتي قبل العاشرة مساءً .

تقدمت غادة أميرة و هي تدخل الغرفة ، لترتب بسرعة المكان الذي كان أشبه بشقق الشباب من حيث عدم الترتيب و الإهمال في وضع كل شيء دون مكانه ، حتى الرائحة كانت كغرفة المدخنين في أي مطار أو مستشفى ، لكن أميرة كانت في حالة لا تمكنها من رفاهية انتقاء المكان الأنسب لتجلس فيه ، فلم تهتم لذلك كثيرا حيث أن غادة كانت إحدى زميلاتها في الكلية ، و لم يكن لأميرة أي علاقة بالأخريات نزيلات هذه الشقة ، لجأت لغادة لأنها كانت ترى فيها الإنسانة المتمرسة في العلاقات العاطفية ، على عكس باقي زميلات أميرة بالكلية ، اللواتي كان اهتمامهن الأكبر ينصب على الدراسة .

لفراسة غادة دور كبير في تشجيع أميرة على المضي قدما في تقديم شكواها ، حيث أن غادة بادرتها قبل أن تنطق بكلمة لتقول :

- لست في حاجة يا أميرة لمعرفة أن مشكلتك تنتمي لنوع المشاكل العاطفية ، قصة حب لم تكتمل ، أو ربما حب من طرف واحد ، أليس كذلك ؟

أعاد استنتاج غادة دموع أميرة للجريان من جديد ، انتقلت غادة من المقعد المقابل لها لتجلس إلى جوارها فتحتضنها ، لتلقي أميرة برأسها على كتف غادة التي أخذت تتحسس شعرها و تقول :

- لا عليكِ يا حبيبتي ، كوني على يقين بأنه لا توجد مشكلة دون وجود حل لها ، اهدئي بالا حتى تقصّي علي تفصيلا ما يؤلمك ، وسأذهب الآن لإحضار شيئا لاحتسائه .

خرجت غادة من الغرفة و أغلقتها دونها ، لتخرج أميرة بدورها

ولكن باتجاه الشرفة ، أخذت تمسح دموعها بظهر كفيها ، ثم سمعت صوت الباب يُفتح ليعلن عن قدوم غادة حاملة صينية بها زجاجتان من المشروبات الغازية فتضعها على المنضدة لتلتحق بأميرة في الشرفة ، فتقول :

- هل تريدين التحدث بالشرفة أم نتكلم بالداخل ؟

- لا أدري ، كل ما أعلمه أني أريد التحدث على وجه السرعة .

هزت غادة رأسها من أعلى لأسفل مرتين لتُظهر لأميرة مدى تفهمها للموقف ، فتأخذها من يدها مجددا و تجلسها ، طالبة منها أن تقص عليها كل شيء إجمالا و تفصيلا .

راحت أميرة تحكي لغادة بداية العلاقة ، من إلحاح رقية عليها للإيقاع بوليد منذ أن كانت في السنة الثانية من دراستها الثانوية ، وكعادتها انصاعت لأمر أمها ، إلا إنها مع الوقت أصبحت تنفذ الأوامر بسعادة و طموح و ليس فقط لإرضاء والدتها ، و هي المرحلة التي سبقت المرحلة الأخيرة و التي يمكن القول أنها قد حدثت قبل عام من الآن ، و هي مرحلة التعلق بوليد لدرجة الجنون ، صارت مولعة به ، تتمنى أن تقضي ما بقي لها من نصيب في العمر بصحبته ، و انتهت من حكاياتها بالطبع بتلك النهاية الميلودرامية للقصة و التي حدثت منذ ساعة أو أكثر إبان تلك المكالمة الهاتفية المشئومة مع وليد .

أحسنت غادة الإنصات لحديث أميرة ، ظهر على وجهها بوضوح علامات التأثر لحال تلك الفتاة المسكينة ، أنهت أميرة كلامها حتى تنهدت غادة تنهيدة بليغة ، ثم أمسكت قبضة يدها اليسرى بكفها

الأيمن لتضع فوقها ذقنها بعد أن رفعت رجليها على المقعد لتجلس في وضعية التماثيل الفرعونية ، و بدأت حديثها قائلة :

– لن أبلغك يا أميرة عن مدى تعاطفي مع ما آل إيه حالك خلال الثلاث سنوات الأخيرة ، و لكن بعد أن قررت اللجوء إليَّ لا يمكنني إلا أن أصدقك القول ، و أنصحك بما هو مناسبا ، أو على الأقل ما أحسبه كذلك ، لذا عليك أن يتسع صدرك لما أقول ، و ألا تغضبي إن كنت تريدين الخروج مما اعتراكِ من آلام .

– تكلمي يا غادة دون مقدمات، فالأمر لا يحتمل مقدمات وديباجة.

قالتها أميرة و هي تتأفف مما هي فيه ، فأجابتها غادة :

– عزيزتي أميرة ، ما جاء في المكالمة به الكثير من الحقائق التي ربما كانت تصلح كبداية للانطلاق نحو عدم تكرار ما حدث ، أولا أنت بالفعل فتاة في التاسعة عشر من العمر إلا قليل ، كذلك وليد الملهوف بشدة ، بل اللاهث وراء سماع صوت حبيبته لا يفكر بك ، بل لم يفكر بك مسبقا ، إنه واقع تحت سيطرة أخرى ، و لن يستطيع التخلص من براثنها بسهولة ، لذا عليكِ أن تضعي هاتين الحقيقتين كأساس لتصرفاتك و تفكيرك مستقبلا ، و إن كانتا مؤلمتين بعض الشيء .

أنت كذلك يا أميرة فتاة بلا تجارب و لا خبرات سابقة تسعفها في إدارة مثل هذه العلاقات مع الشاب الذي تحبه ، ككيفية لفت نظره ، وكذلك الإيقاع به ، و من ثم السيطرة التامة عليه حتى يصل طواعية لأن يشعر بأن الحياة كل الحياة هي وجودك إلى جانبه ، و أخيرا مرحلة

أن تضعيه تحت الضغط الأنثوي العنيف الرقيق الذي يجعله يعمل ليلا نهارا ، و ربما يهجر الوطن بحثا عن أموال تساعده في الزواج منك ، ويأتي بعد كل هذا بمنتهى الاستسلام ليضع ما أفنى شبابه لتحصيله من مال أمام والديك لينال رضاهما عن زواجكما ، ومن الجائز أنهما بعد كل هذا تدللا و رفضا .

اتسعت حدقتا أميرة و هي تنظر بذهول لمعلمتها المتمكنة غادة ، كانت عيناها تنطق بالقول أنك يا غادة تستحقين أن تُلقَّبي بالأستاذة وسط زملائنا في المسائل العاطفية ، قرأت غادة نص الرسالة التي أرسلت بها عينا أميرة لها ، فساعدها ذلك على الاستمرار في توجيه نصائحها للبنت المسكينة ، و لكن أميرة قاطعتها بعد أن لملمت نفسها لتقول :

- ما كل هذا ؟ أمطلوب مني أن أخطط و أدبر لكي أحب ؟ هل هي معركة حربية ؟

تبتسم غادة بثقة لتقول :

- بل هي أكثر من معركة بكثير يا صغيرتي .

انفعلت أميرة و هي تقول :

- لا تقولي صغيرتي .

داعبتها غادة قائلة :

- و هو كذلك يا والدتي .

اغتاظت أميرة و لكنها لم تنطق بكلمة ، فراحت غادة تكمل محاضرتها :

- هناك طريقة من الممكن أن تكون خير معين لك لنسيان ذلك الوليد المتجاهل .

صمتت لتستفز فضول أميرة ، التي سألت بلهفة :

- و أي خطة تكون ؟

أجابتها :

- ملء حيز القلب بشخص آخر ، يطرد الشخص الأول شر طردة ، فكما هو معلوم أن قلب الأنثى لا يتسع إلا لرجل واحد .

انفعلت أميرة مجددا :

- أي عبث هذا الذي تقولين يا غادة ؟ هل تحب المرأة بمجرد الضغط على زر في قلبها ؟

تجاوزت غادة لفظ المرأة ــــ و ليست الفتاة ــــ بابتسامة عابرة، ولم ترد أن تعقب عليه حتى لا يزداد غضب المراهقة المسنة أميرة ، وأخذت تتابع حديثها :

- هل تعلمين يا أميرة أنك من جميلات دفعتنا في الكلية ؟ هل تدركين كم الغيرة التي تكنها لك الكثيرات من محدودات الجمال ؟ بل هل نما إلى علمك أن من ضمن التعليمات التي تصدرها الكثيرات من الفتيات المرتبطات عاطفيا بشباب من الكلية أن يتجنب هؤلاء الشباب مصافحتك أو إدارة حوار معك تحت أي مبرر ؟

- ألهذه الدرجة تكون الغيرة ؟

أجابتها و قد علا صوتها كثيرا :

- بل لأكثر من هذا ، و هو ما يعد مؤشرا إيجابيا لك .

سألتها أميرة :

- أي مؤشر إيجابي و أنا أعيش حسب كلامك بين زميلات تحقدن علي ، و تخشين إقامة علاقة معي ؟

- و ماذا تريدين منهن ؟

أجابتها سالي بلهجة حائرة :

- لا أعي ما تقولين يا غادة .

- أعني فليذهبن إلى الجحيم ، أهم ما في الأمر هو طابور المعجبين من الشباب ، الذين لا يتوانون عن فعل أي شيء من أجل نيل رضائك يا فينوس .

قالت أميرة :

- أتعنين أنه م..

قاطعتها بسرعة :

- نعم ، أعني أنه ممكن أن يكون أحد هؤلاء المولعين بك البديل لوليد .

بدأ الوجل يظهر جليا على محيا أميرة و هي تقول :

- و لكن .. و لكن يا غادة ، أنا لست من النوع الذي يقيم علاقة مع أحدهم دون وجود رصيد كاف من المشاعر تجاه ذلك الشخص ، سأفشل ، حتما سأفشل .

أجابت غادة :

- من المؤكد أن فشلك في علاقة ليس لها رصيد من المشاعر

الجياشة سيكون وقعه السلبي عليكِ لا يذكر ، قياسا بما أنت عليه الآن من الانهيار المعنوي .

أطرقت أميرة تفكر بوسوسة غادة إليها ، ثم استعادت طلتها الطفولية و هي تقول :

- لا لا ، من غير الممكن أن يكون هذا حلا .

تناولت غادة مبرد الأظافر الموجود على المنضدة المجاورة لتبدأ في تقليم أظافرها - أو كما كانت تتظاهر بذلك - لتتكلم بلهجة بدت و كأنها غير مكترثة بتصريح أميرة الأخير :

- لا توجد هناك مشكلة ، فأنا من أنصار ألا يقوم الإنسان بأي فعل إلا إذا كان مقتنعا ، بل مستمتعا بأدائه .

صمتت فترة ، فلما لم تتلق فيها من أميرة غير الصمت أيضا ، قالت بصوت خفيض :

- بمجرد أن تقرري خوض التجربة فعليك إخباري بمنتهى السرعة حتى لا تنجح إحدى المتربصات من زميلاتنا في خطف لؤي منك .

التفتت أميرة بشدة نحوها و هي تتساءل :

- أتعنين أن لؤي ضمن القائمة التيييييي ..

أجابتها :

- بل على رأس القائمة ، و بمنتهى الصراحة أرى أنه من غير المعقول أن ترفض واحدة الارتباط به ، أعتقد أنني في حل من أن أعدد لك مميزاته ، فأنا أدرك أنك ربما تعرفينها أكثر مني أيتها الماكرة .

قامت أميرة تتمشى ببطء و بخطوات قصيرة في الغرفة الصغيرة و هي تردد بصوت سمعته غادة جيدا :

- لؤي بدلا من وليد .. لؤي بدلا من وليد ..

دل تساؤلها لنفسها أن خطة غادة بدأت تؤتي ثمارها ، حتى أن أميرة التي كانت منذ أن جاءت لا تجف دموعها ، لها الآن عدة دقائق بدون بكاء أو نحيب ، فشجع ذلك غادة على إنهاء الحوار لتقول :

- فكري يا أميرة جيدا و لكن بسرعة .

بعد دعابة الحاج منصور في حفل العام الماضي و التي أطلقها في الظاهر لاستعجال قدوم الطعام ، و إن كان غرضها الأساسي هو إنهاء مناظرته مع عزت بشكل لا يسمح بأن يشعر الأخير بالحرج أمام الحضور ، لأن كل هدف منصور كان محاولة وضع عزت على الطريق الصحيح ، و ليس النيل منه و وضعه موضع سخرية أمام الجميع .

بعد هذا الموقف أنهت أمل جولتها التفقدية الأخيرة حول المائدة لتخرج لدعوة الجميع للاصطفاف حول مائدة الطعام ، متمنية لهم وجبة شهية ، في الوقت الذي هم فيه محمود يتقدم الحضور و هو يشير لهم بالتقدم مؤكدا على عدم رضائه و زوجته بأن يظل في أي طبق أي بقايا من الطعام .

أمسكت سميرة بيد ذئبها المتهور أدهم ليقف إلى جانبها ، أما زينب وزكريا فراحا يبحثان بعينيهما الموضع الغني بالطعام المفضل لديهما ليتخذانه مستقرا ، وقف عزت شاردا و إن حاول إخفاء ما يدور في خلده من أفكار ، فيما التصق عادل بمحمود ليتمكن من تسديد كم هائل من الثناء و الإطراء على حسن الضيافة و الطعام اللذيذ ، و مدى عظمة حرص محمود على تجميع الأسرة و صلة الرحم ، أميرة بدورها كانت تبحث عن مكان تكون فيه آمنة من نظرات الحضور و هي تراقب وليد بين الحين و الآخر .

بذل عزت قصارى جهده لمحاولة إخفاء ارتباكه عن الحضور ، علهم يعتقدوا أن ما حدث مجرد نقاش متحضر كان بوسع عزت أن يرد عليه ، و لكنه احترم سن و مكانة الحاج منصور فلم يرد ، إن كان

هذا ما يريد عزت تصديره للموجودين ، فإن الحقيقة هي أنه منشغل بشدة الآن ما بين عدة أمور ، أولها كان بحثه الدءوب في ذاكرته المشبعة بقراءاته العديدة في كتب الإلحاد لإيجاد أي حجة يُلجم بها منصور ، ثانيها تأثره الحقيقي بهذا التحدي ، حتى أنه كان يشعر بأن ولده لن يظهر حقا للنور إن نوى تسميته ب الله ، كذلك انشغال باله بضرورة الحفاظ على ثباته الانفعالي ، فقد كان منذ ربع الساعة فقط آخذا بناصية الحوار ، موجها إياه حيث يشاء ، و الآن تحول لأكثر الناس التزاما للصمت ، حاول جاهدا إيجاد ما يقوله لفتح حوار جديد من أي نوع و لكنه عجز ، فتمنى أن يسأله أي أحد عن أي شيء .

لم تستقر أمل في مكان بعينه طيلة الوقت ، فكانت دائمة الانتقال بين الوقوف لحثهم على تناول المزيد من الطعام ، كذلك لا بد من عمل استطلاع رأي حول جودة ما قُدِّم لهم ، لاستدراك أي سقطة غير مقصودة ، تدور بعينيها مراقبة الأطباق التي أوشكت أن تكون خالية لتشير إلى الخادمات بإحضار أخرى من المطبخ على وجه السرعة ، وقفت الخادمات في وضعية استعداد عسكري ، لا يصرفن نظرهن لأي شيء سوى متابعة سيدتهن ، و قد ارتدين الزي الموحد لهن و المكون من تنورة من اللون الكحلي تعلوها قطعة نصف دائرية من القماش الأبيض ، و الذي صنع منه أيضا غطاء لرأسهن ، و تحمل قمصانهن ذات الأكمام الطويلة المغلقة بأزرار نحاسية نفس لون التنورة ، و قد لبسن على مضض أحذية ذات كعب عال لإرضاء طموح أمل .

بدأت أمل جولتها بزكريا و زوجته لتقول لهما :

- لن أرضى أن تأكلا على استحياء كدأبكما كل عام ، لا بد أن تُجهزا على الطعام كله ، و إلا سأغلق باب البيت دونكما فلا أترككما تنصرفان أبدا .

كانت تحدثها نفسها و هي تخاطبهما : كم أنت منافقة يا أمل ، منذ متى و زكريا و رقية يأكلان على استحياء ، و لكنها مضطرة للقيام بما يسمى بالنفاق الاجتماعي ، فهو أحد أسس واجبات الضيافة في مجتمعاتنا الشرقية .

اكتفى كلا من زكريا و زوجته بهز رأسيهما في إشارة للتجاوب مع تعليمات أمل ، لم يعقبا نظرا لانشغال كل أعضاء الكلام لديهما من لسان و شفتين و أسنان بما هو أهم من الكلام .

تحركت لتتمكن من الحديث لمنصور قائلة :

- أما أنت يا حاج منصور فإن لك عقابا مضاعفا اليوم .

التفت إليها منصور و هو يقول :

- و ماذا جنيت يا أمل لتعاقبين شيخا مسنا مثلي ؟

قالت أمل :

- ألا تحب أن تعرف أولا ما هو العقاب ؟

يجيب منصور :

- بلى .

- هناك طعاما معد للحاجة أنيسة ، و بما أنها لم تحضر بصحبتكما أنت و وليد ، فمن الأحرى أن تتولى أنت تناول طعامها ، أي أنك ستأكل كمية مضاعفة اليوم ، و لن نرحمك أنا و محمود تحت أي ظرف .

يسأل منصور :

- و ما هو ذنبي يا ابنتي ؟

- أنت زوجها و لا بد أن تطيع أمرك ، و إن لم تفعل فعليك أن تقومها.

ضحك منصور و هو يقول :

- سأخبرها يا أمل بأنك تحرضينني عليها .

رفعت أمل حاجبيها و هي تقول :

- لا يا حاج ، فأنا لا أقدر أبدا أن أغضب سوسو .

انصرفت لتجد زينب كعادتها تأكل بهدوء ، لتقترب منها قائلة :

- لا يا زوزو ، لا يوجد في هذا البيت من يتبعون أنظمة الحمية ، لن أتركك حتى تأكلين بشراهة يا حبيبتي .

كانت أمل تتكلم و هي تضع يدها على خاصرة زينب ، كنوع من المودة، و لا مانع أيضا من التأكد أن الملعونة لا ترتدي أحزمة شد البطن حتى تبدو على هذه الدرجة من الرشاقة .

أجابتها زينب بنفس اللهجة الرقيقة التي طالما استفزتها :

- لا عليك يا عزيزتي ، أيصح أن يُعزم المرء في بيته ؟

سكتت أمل لثوان لتتمكن من ضبط أعصابها فتقول :

- مؤكد أنه بيتك يا زوزو ، و لكن هذا ليس مبررا لقلة تناول الطعام، كلي يا امرأة ، و إلا ..

ضحكت المرأتان قبل أن تسأل أمل عزت المجاور لزينب قائلة :

- ما بال الطعام اليوم يا عزت ؟ أعلم أنك رجل ذواق مما يجعل

الفضول يحثني على الاطمئنان منك على جودة الطعام .

وجد عزت ضالته ، أمل تفتح معه حوارا كان ينتظره كثيرا ، فقرر الإجابة بشيء من التفصيل ، راح يمدح الأصناف التي تناولها حتى الآن، و بالغ في وصفها بل وصف مكونات كل صنف على حدة ، ولكنه انتقد مؤخرا سلاطة الباباغنوج ، و اتهمها بأنها لاذعة إلى حد ما، فأخذت أمل الملاحظة لتحولها من كلام مسموع بواسطة أذنيها إلى نظرة حادة صوب خادماتها اللاتي اكتفين بالنظر لأسفل .

بعد انتهاء حوار أمل مع عزت ، استمرت أمل في المرور على الحضور دورة بعد أخرى ، فيما نالت من عزت خيالاته و هواجسه بشدة ، راح يقلب أفكاره في كافة الاتجاهات ، كان يريد أن يقفز من فوق طاولة الطعام ليطير إلى بيته فيضع أذنه فوق بطن زوجته المنتفخة كي يسمع نبض الجنين فيتأكد من أنه لا يزال على قيد الحياة ، كما كان يريد أن يسرع الخطى باتجاه مكتبته في البيت ، كان يريد تناول كتابين لقراءتهما بدقة مرة أخرى كي يحلا اللغز العالق في ذهنه الآن ، كان أحد الكتابين تحت عنوان : الله ليس عظيما لكاتبه كريستوفر هيتشنز ، و الكتاب الآخر يحمل عنوان : لماذا رفضت الماركسية للدكتور مصطفى محمود ، قرر أن يضع الكاتبين وجها لوجه ، لن يستسلم لحالة اللا حالة التي تنتابه الآن ، لا بد من حسم أمره ، و قد نوى بعد أن يقوم بمناظرته غير المعلنة تلك أن يلجأ لصاحب الرأي الصواب ، و الذي طالما أعجب برجاحة عقله و تفكيره المجرد المنطقي ، نعم إنه بصدد أن يجلس إليه ليحاوره ، إنه سيحاور المتر عاصم .

كانت رقية معذورة في سوء ظنها تجاه زكريا ، حيث أن الموقف الذي حدث من الشاب الذي أخذ يثني على أستاذ زكريا أثناء وقوفهم في الإشارة لم يكن الأول من نوعه ، فقد حدثت مواقف مشابهة له من قبل ، لا تنسى رقية وقت أن استوقفتهم في الشارع ذات مرة بينما كانا يترجلان سويا فتاة حسناء ، صافحت زيكو بحرارة جعلت خيال رقية يحدثها أن تلك الحرارة لا ينقصها إلا أن ترتمي القطة في أحضان أستاذها ، لكنها لا بد أن تكون قد سيطرت على مشاعرها لعدم إحراج زكريا أمام زوجته ، كذلك لا تنسى وقت كانت بصحبة إحدى جيرانها لشراء الخضار من السوق لتقابلهما امرأة عجوز فتصافحهما ، قبل أن تقوم جارة رقية بتعريف المرأة عليها قائلة :

- الحاجة رقية يا أم فاطمة زوجة الأستاذ زكريا .

لم تسمع العجوز الكلمة جيدا ، كررت الجارة إعادتها على مسامعها و لكن هذه المرة بشئ من القوة ، لتتهلل أسارير العجوز و هي تدعو له :

- اللهم بارك فيه و أوسع في رزقه نظير ما يقدمه لفتيات المنطقة .

قالتها العجوز و هي تتحرك في بطء شديد منصرفة لبيتها ، ارتسمت ملامح الحيرة على وجه رقية و هي تساءل نفسها :

- فتيات المنطقة ، أي أنها ليست فتاة واحدة ، ماذا تفعل يا زكريا من ورائي لفتيات حي كامل ؟

قامت رقية بالجلوس إلى ابنتها أميرة ذات يوم لتعاونها على عملية حسابية تؤرقها ، استدرجت زكريا فيما قبل لمعرفة عدد حصص الدروس الخصوصية التي يقوم بها أسبوعيا ، كذلك بعدها بفترة

أوقعته في الاعتراف بثمن كل حصة لكل طالب ، احتفظت بتلك المعلومات في ذاكرتها ، لتقوم بتحليلها فيما بعد ، أعطت الأرقام لأميرة لتعلم المحصلة التي يقوم بجنيها زكريا شهريا .

قامت أميرة دون أن تدري ماهية هذا الأرقام بعمل الحساب اللازم، لتخبر أمها بالناتج النهائي ، فتغير وجه رقية بعد سماع الرقم ، مما دفع أميرة لسؤالها :

- أماه ، ماذا أهمك؟ و ماذا وراء تلك الأرقام التي قدمتها لي منذ قليل ؟

لم ترد رقية أول الأمر ، بدا أنها غارقة في هم ثقيل ، مما دفع أميرة لإعادة السؤال ، و هي تدير وجه أمها ناحيتها بيدها ، فترد عليها الأم بهدوء و حزن :

- لا عليك يا أميرة ، ليس بالأمر شيء ، اتركيني أنت الآن فأنا بخير.

كان الإيراد الذي أخبرها به عزت يتجاوز بالكاد ثلثي الرقم الذي أخبرتها به أميرة ، مما جعلها ترسل خواطرها لأماكن بعيدةً بعيدة .

راحت رقية ترتب أفكارها من جديد ، طالت خواطرها كل شيء يمكن من خلاله الاستدلال على ما يقوم به زكريا و يخفيه عنها ، بدأت بالطبع بالمسألة النسائية ، لتجد أن كل الظواهر تبرئ الرجل من التهمة، فهو لا يزال يحافظ على معادل لقاءاتهما يوم الخميس دون تقصير ، وإن كان لها تحفظات على الكيف ، و لكنه أمرا طبيعيا بحكم تقدم السن ، كما أنه لم يثبت عليه تاريخيا تلبسه بالخيانة ، كذلك تخلو ملابسه باستمرار من الروائح العطرية الخاصة بالنساء .

قررت أن تطرق بابا آخر للوصول للحقيقة ، بأن تحلل سلوكه في الآونة الأخيرة ، لتجد أنه لم يغير شيئا البتة ، فمواعيد حضوره وانصرافه من البيت كما هي ، دعاباته السخيفة تنطلق من فمه بنفس المعدل ، لم يؤخذ عليه يوما الوجوم أو الشرود إلا عندما يتذكر أو يذكره أحد بمأساة ضياع أمواله ، حتى معدل استهلاكه للأحذية و الملابس لم يتغير ، مما يدل على عدم فعله لشيء جديد .

جلست تقول لنفسها : أنا أعرف جيدا بحكم العشرة الطويلة جميع السبل التي ينفق فيها زكريا نقوده ، كما أعلم كذلك مدى حرصه في الإنفاق ، أين إذن تذهب باقي النقود ؟

كانت رقية ممن يجودون بالظن الحسن بغير حساب ، و لكنها كانت معذورة أمام ما تعانيه من تكرار أحداث لا تفسير لها ، و ردود أفعال مريبة من جانب زيكو ، فصارت على غير عادتها مرتع للشكوك .

لا تنس وقت أن كانا يتناولان طعام الغذاء منفردين ، و كانت أميرة في الكلية ، جلسا كل على كرسيه و الطعام أمامهما على السفرة ، و كان إلى جوار كرسي زكريا يوجد النيش ، و رائحة الحمام المحشو بالفريك تشق طريقها عبر أنفه لمعدته رأسا .

يومها تشجعت رقية و بدأت تسأله عما طرأ عليه من تغير ، فراح يناورها و يتنصل من الإجابة ، فلما زادت من إلحاحها رد عليها بآخر إصداراته من النكات ، ليقول مبتهجا ، بل محاولا إخفاء ارتباكه :

– كلامك الكثير اليوم يا أم أميرة يذكرني بفيلم سينمائي قديم اسمه: ثرثرة جنب النيش ..

قالها و هو يشير للنيش بإصبعه ، و يضحك بقوة و هو يهم بالوقوف مغادرا المائدة ، ما لفت نظرها ليس ثقل دمه ، فهي معتادة على ذلك، و لكن كيف لزكريا الذي يفترس الحمام افتراسا أن يقوم بعد تناوله لواحدة فقط ؟ بل أنه لم يكملها .

في نفس الوقت الذي كانت فيه رقية مهمومة بمحاولة البحث عن أجوبة منطقية لأسئلتها ، كان زكريا هو الآخر مهموما بضرورة إيجاد من يستشيره في أمر متعلق بالزكاة ، حيث أنه خشي أن يستشير الحاج منصور الذي كان يعلم أنه سيشير عليه بدفع مبلغا أكبر ، لذلك فكر زكريا في اللجوء لشخص آخر يكون على دراية بحكم دراسته بأحكام الفقه ، و سوف يكون أرفق به من منصور في مسألة الإنفاق ، لذلك قال بعد أن جعل إبهامه يحتك بوسطاه فيصدرا صوتا للتدليل على العثور على ما كان مفتقدا :

- إليَّ بالهاتف لأتصل بالمتر عاصم .

أخذت أميرة نصائح غادة بعين الاعتبار ، حيث همت برسم خطة ليس للإيقاع بلؤي لأنه كان قد وقع بالفعل منذ فترة كبيرة ، و إنما لتفسح له المجال كي يعبر عن مكنون صدره ، ما إن تلمَّس لؤي من أميرة القبول حتى أغدق عليها عطائه من المشاعر و التي كانت أميرة في أمس الحاجة إليها لإصلاح ما أفسده وليد بداخلها .

استمرت العلاقة بينهما لأربعة أشهر ، سارت الثلاثة الأولى منها على هوى أميرة ، يجلسان فترات كبيرة سويا سواء بكافيتريا الكلية أو وسط الحدائق محدودة المساحة الموجودة بالجامعة .

لم يخل قلب أميرة بعد من الحنين لوليد ، قل نسبيا بفعل وجود لؤي في بؤرة اهتمامها لكنه ظل موجودا ، بعد ثلاثة أشهر حالمة بدأت أميرة تتحسس خطاها ، بعد أن راحت السكرة و جاءت الفكرة ، بدأت تنحي قلبها جانبا لتعيد إعمال عقلها فيما هي مقبلة عليه جراء تلك العلاقة الجديدة ، و هل من الممكن أن تحقق مبتغاها و مبتغى والدتها معا ، أي من الممكن أن تتمكن من نسيان وليد و كذلك اصطياد عريس لتضعه أمام أمها فتهدأ بالا ؟

كل المؤشرات كانت توحي بعدم تحقيق ما كانت ترنو إليه ، خاصة بعد أن تأكدت من أن طموح لؤي لن يتوقف عند مرحلة الجلوس وسط الناس و تبادل الكلمات فحسب ، بل لا بد من تبادل أشياء أخرى بعد الجلوس منفردين ، و يا حبذا إن كان هذا الجلوس في شقته التي كان يَعِدَها بأنها سوف تكون شقة المستقبل ، حاولت أميرة إفهامه أن حدوث هذا الأمر مستحيل ، و أنها إنما تجاوبت معه لاعتقادها بأنه يحمل

لها مشاعر صادقة ، و هو ما يتنافى ما طلبه الذي يصر عليه وبقوة، بينما حاول هو إقناعها بأن ما يطمح لتحقيقه اسمه ممارسة الحب، أي تحويل الحب النظري لحب عملي ، ضرب لها العديد من الأمثلة لزميلات لها تعرفهن بالاسم كن و ما زلن يسلكن نفس الطريق تحت مسميات مختلفة منها الزواج العرفي و المسيار و حتى بدون زواج .

وصل التفاهم بينهما لطريق مسدود ، فاتخذت أميرة قرار الانسحاب الفوري من العلاقة ، و هو القرار الذي لم تندم عليه للحظة بعد ذلك ، و لكن ما أصابها من إحباط مجدد كان له تأثير بالغ السلبية هذه المرة على حياتها ، غيرت من أفكارها للبحث عن أي شيء تنسى من خلاله ما تعاني منه ، راحت تبحث في وجوه زميلاتها اللاتي لا تفارقهن الضحكة لتتأسى بهن ، فوجدت أن من تركزن في الدراسة و المواظبة على حضور المحاضرات لسن بسعيدات ، و كذلك من ترتبطن بعلاقة عاطفية بائسات ، بحثت كثيرا كثيرا فلم تجد ضالتها إلا في غادة وزميلاتها ، قررت أن تحذو حذوهن ، أخذت تلازمهن في الكلية ، و تذهب معهن لشقتهن ، حتى أنه يمكن القول أن بعد مرور شهر واحد لم يكن من الممكن القول أنها جديدة على عالمهن ، بل صارت واحدة منهن ، مما أشعر غادة بالقلق عليها و تأنيب الضمير ، فحاولت ابتداءً أن تثنيها عن الاستمرار في هذا الطريق لافتقادها الخبرة اللازمة للتوقف عنه متى شاءت ، غير أن أميرة ذكرتها بأن نصائحها دائما ما تأتي معها بصورة عكسية ، و بدت مصممة على المضي في طريقها .

زادت تساؤلات زكريا و رقية لأميرة بشأن التغير المفاجئ الطارئ

على سلوكها ، زاد وجهها شحوبا ، أصبحت أكثر إهمالا في اهتمامها بهندامها و مظهرها العام ، نقص وزنها بشكل ملحوظ على الرغم من أنها ضاعفت كمية الطعام التي تتناولها ، كانت تأكل بنهم شديد، من الصعب الحصول على طعام في الثلاجة و أميرة موجودة بالبيت، ساعدتها نصائح رفيقاتها الجدد في أن تعلم كيف تتخلص من أي ضغط أو مساءلة أبوية .

جاء يوم ظهور نتيجة آخر العام ، لتبكي فيه أميرة مجددا كما بكت العام الماضي و لكن لعكس السبب ، فإذا كان سبب بكاؤها العام الماضي هو تفوقها دون الحصول على الترتيب الأول على الدفعة ، فإنه هذا العام للرسوب العنيف بدرجة ضعيف جدا ، و الذي لم يتوقعه أسوأ المتشائمين ممن يعرفونها جيدا .

بعد تجاوز مرحلة لوم الوالدين ، و أسئلتها الكثيفة حول ماهية ما أصابها ، جلست أميرة إلى نفسها مقررة اللجوء لشخص يساعدها في تجاوز مصيبتها دون أن يفتضح أمرها ، و بعد فترة تفكير ليست بالطويلة ، قررت أخيرا أن تذهب إليه ، قطعا هو .. المتر عاصم .

ديروط – نفس يوم الحفل

- و الآن يا شيخ حمزة ، قد قصصت عليك كل ما يلزمك معرفته عن عائلتي فردا فردا ، حتى أنني الآن أخالك تعلم عنهم أكثر مما أعلم أنا .

قالها المتر عاصم و هو يحادث حمزة إمام المسجد ، هذا الحوار الذي كانت له قصة لطيفة ، بدأت بجلوس عاصم بعد صلاة العصر ، لينزل حمزة عن منبره بعد الانتهاء من الخطبة ، فيجلس إليه و يسمع منه بدقة ، كان عاصم هو الراوي الأمين للأحداث ، بينما أفرغ حمزة عقله من أي شيء إلا تخزين ما يُروى من المحامي المحنك ، بدأت الحكاية بأحداثها على نحو متلاحق ، يمكننا تلخيصه في تلعثم الشيخ حمزة وهو ينهي خطبته بالدعاء و التضرع لله كالمعتاد ، كانت خطبة ولا أقسى على كل من تسول له نفسه الذهاب قُدُماً في معصية الله ، غنية بالوعيد لكل العصاة ، زاد من تأثيرها على الحضور ارتفاع صوت الشيخ حمزة بشكل ملحوظ ، ربما كان متعمداً لإيصال رسالة ما للمستمعين .

بعد بضع دقائق من بداية الخطبة وقعت عينا حمزة على رجل مسن يجلس في مؤخرة المسجد الصغير في مدينة ديروط بمحافظة أسيوط، كان مسنداً ظهره للحائط رافعاً إحدى ساقيه ليتمكن من الاستناد إليها، و تاركاً الأخرى لتنبسط أمامه .

ما لفت نظر الخطيب هو تأثر الحضور عن بكرة أبيهم ، فيما احتفظ هذا الرجل بابتسامته حتى نهاية الخطبة ، فحدثت نفس حمزة إياه بأن

يتكلم مع الرجل بمجرد أن يفرغ من خطبته ، فحتما لدى الرجل ما يقوله ، و صدق بالفعل حدس حمزة .

الرجل المسن يدعى عاصم ، المتر عاصم ، محامي من القاهرة جاء ليترافع في إحدى القضايا ، قام القاضي بتأجيلها لجلسة الغد ، ليضطر للمبيت في اللوكاندة المتواضعة الموجود بجوار المسجد .

عاصم أخو الحاج منصور حضر صلاة العصر و قرر البقاء في المسجد حتى يحل ميعاد صلاة المغرب فينصرف ، لكنه فوجئ بالشيخ يعتلي المنبر بعد الصلاة لإلقاء درسا دينيا فاستعد للاستماع ، حتى نزل حمزة لمحاورته قدم له نفسه تحت اسم مستعار ، بل و صارحه بذلك .

ما إن رأى عاصم الشيخ حمزة ذو الملامح شديدة البراءة مقطبا حاجبيه ، حتى حدثته نفسه بأن هذا الرجل نقي السريرة ، و لديه رغبة جامحة لأن يفعل شيئا ، فقرر أن يساعده و لكن بطريقته الخاصة .

كان الشيخ حمزة لا يزال شابا في أوائل العشرينات من العمر ، ذو وجه أبيض تظهر فيه الحمرة بوضوح سواء بفعل الخجل أو بفعل الغضب ، يرتدي عمامة رأس أزهرية ، دلت المتر عاصم دون سؤال عن تعليم الشاب الذي لن يخرج عن كلية الشريعة أو أصول الدين ، لحيته غزيرة في أماكن بعينها من وجنتيه ، بينما يغيب الشعر بالكلية عن أماكن أخرى تتوسط الأماكن الأولى ، و هو ما يعكس مدى رغبة الشيخ الصغير للتشبه برسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم .

علم عاصم جيدا أن الشيخ سيأتي لمحادثته ، فقد كان أكثر الحضور استحواذا على نظرات حمزة التي يوزعها بين الحضور .

يمكن القول أن بقاء عاصم من أساسه في المسجد هذا الوقت بعد صلاة العصر كان في الأساس للهروب من اللوكاندة التي تفتقد بشدة لأبسط قواعد النظافة و الراحة ، لذلك نزل عاصم للبحث عن مسجد للصلاة بحكم أنه له أربعة أعوام الآن يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد ، كما أنه في القاهرة حيث يقطن ، ليس من المعتاد إلقاء خطب بعد صلاة العصر ، إنما من الواضح أن الشيخ حمزة له مريدين يعجبون بعلمه ، و يملئون المسجد صغير المساحة الذي يقوم فيه بالإمامة، فالشاب حقا ذو علم غزير ، و يتمتع بموهبة ملحوظة في الخطابة .

استمع عاصم باهتمام للخطبة التي هزت أركان المسجد و انتزعت التكبير و التهليل من أفواه الجالسين ، كما انتزعت من أعين بعضهم أيضا قدرا وفيرا من الدموع ، عاصم الوحيد الذي لم تفارقه الابتسامة، كان قد أحس أن الشيخ حمزة بصدد إقامة محكمة تفتيش ينصبها في خياله للناس من حوله ، و كان شعوره صادقا .

ربما اعتبر حمزة وجود شخص باسم وسط مستمعيه دليل فشله في إيصال رسالته للناس ، فكن من المعتاد لديه أنه ما إن اعتلى المنبر، و أرسل قذائفه صوب العصاة و المذنبين ، أن يختلط صوته في مكبر الصوت بصوت نحيب الكثيرين و نظرات الوجل و الرعب في أعين آخرين ، لذلك جذبه بشدة ما وجده من رد فعل على وجه عاصم ، قرر بداية الأمر أن يتجه إليه مباشرة بعد الخطبة ، لكن احتفاظ عاصم بنظراته و ابتسامته استفز الشاب ليفقد التركيز أثناء الدعاء الذي

يختم به الخطبة ، ازداد تصميمه على الجلوس إلى الرجل ، لا بد أن وراء هذا الرجل أمرا ما ، هكذا تصور .

كان هناك وقتا كافيا قبل آذان المغرب يسمح لحمزة و عاصم بالحديث سويا ، شريطة توافر الرغبة لدى الطرفين ، ساعة و نصف تكفي لتبادل أطراف الحوار ، فرصة لا بد من اغتنامها ، ظروف المكان و الزمان لن يسمحا بتكرارها مجددا .

استعان حمزة في درسه بآيات الترهيب و أحاديث الوعيد لكل عاص مجرم ، أجاد تغيير نبرة صوته بين الارتفاع و الانخفاض ، نجح في الاحتفاظ بجذب انتباه الحضور طيلة فترة الدرس ، دلت مفرداته و تركيباته اللغوية التي استعملها على تملكه لناصية اللغة العربية ، فلم يخطئ تقريبا ، لم يرفع مفعولا به و لم ينصب فاعلا ، كان لحماسه الشديد في إلقاء الخطبة مدلوله على صدق مشاعره ، و كذلك على أن ما يخرج من لسانه من كلمات إنما تخرج مباشرة من سويداء قلبه .

أنهى دعاءه و نزل درجات المنبر و عيناه معلقتان بالمتر عاصم خشية أن ينصرف دون التحدث إليه ، حتى أنه سمح لأول مرة لبعض المريدين بتقبيل يده ، قبل ذلك كان يجذبها بشدة من أحدهم حين يهم بهذا الفعل ، لرفضه البات أن تتسلل إلى المسجد أفكار الكهنوت ، و لكن هذه المرة لم يكن يمتلك القدر الأدنى من التركيز الذي يسعفه لتكرار رفضه تقبيل يده ، حتى أسئلة الحاضرين الذين التفوا حوله للاستفسار حول بعض الأمور الفقهية ، على غير عادته كان يعتذر لهم و يطالبهم بإعادة

الأسئلة في وقت لاحق لوجود أمرا بالغ الأهمية عليه القيام به الآن ، كان يتحدث إليهم دون أن يراهم لأن عيناه لا تزالان منصرفتان نحو عاصم، الذي لا يزال بدوره يحتفظ بابتسامته ، و هو يرى حمزة يقترب منه شيئا فشيئا .

حرص حمزة بعد أن كانت لا تفصله عن عاصم سوى أربعة خطوات أن يتأكد من أن جميع مريديه قد انصرفوا عنه ، فلما تأكد من ذلك أسرع الخطى نحو عاصم ليقف أمامه صامتا لبضع ثوان ، قبل أن يقوم بإلقاء التحية عليه :

- السلام عليكم و رحمة الله و بركاته يا أستاذ ...

أجابه عاصم قائلا :

- حمدي .. أستاذ حمدي .

ظل حمزة واقفا و هو يرحب بالرجل قائلا :

- أهلا و سهلا يا أستاذ حمدي ، لا بد أنك لست من سكان هذه البلدة ، أليس كذلك ؟

أجابه عاصم :

- بلى هو كذلك ، و لكن ابتداء لا بد أن أخبرك شيئا حتى لا أكون قد ارتكبت خطيئة الكذب و في بيت من بيوت الله .

ألقى حمزة بسؤاله مباشرة دون مواربة :

- ماذا ورائك يا سيدي ؟

حدثه عاصم و هو يشير إليه بالجلوس :

- هلا جلست أولا حتى أتمكن من محادثتك دون أن تؤلمني رقبتي .

ابتسم الشيخ حمزة و هو يقول :

- عذرا يا سيدي ، فأنا اليوم مرتبك ، و لا أدري لذلك سببا .

قال له عاصم بدهاء شديد :

- مرتبك ؟ أتفعل كل ما فعلت آنفا و تكون مرتبكا ؟ ماذا تفعل إذن حين تكون في كامل تركيزك ؟

قطب حمزة حاجبيه و هو يقول :

- عفوا ، لم أفهم بعد مقصد كلامك .

- أعني أنك ما شاء الله ، اعتليت المنبر لتتحدث الفصحى بطلاقة، وبدرجة ربما يفتقر إليها بعض أعضاء المجمع اللغوي ، كما كان لك أسلوبا خطابيا و لا أروع ، لا تبخس نفسك حقها يا ولدي ، فلكل شيء حدود ، حتى التواضع ذاته .

اصطبغ وجه حمزة كعادته بحمرة الخجل التي تنال منه عقب كل ثناء يسدد إليه ، صمت قليلا ثم قال :

- لم تخبرني بعد بالشيء الذي تود مصارحتي به لتجنب الوقوع في رذيلة الكذب كما قلت للتو .

قال عاصم و هو يعدل من وضعية جلوسه :

- ذاك الشيء هو أن حمدي هذا ليس اسمي الحقيقي ، إنما هو اسم مستعار ، لرغبتي في ألا تعرف اسمي الحقيقي .

اندهش حمزة و هي يعقب :

- و ما يمنعك يا سيدي أن تخبرني باسمك الحقيقي ؟ أليس من حق المرء معرفة كنه من يتجاذب معه أطراف الحديث ؟

قال عاصم :

- بلى هو كذلك ، إنما لي حكمة من وراء ذلك سأخبرك بها لاحقا ، ولكني أعدك أن أصدقك القول في كل ما سأخبرك به الآن ، عدا الأسماء بالطبع ، بل سوف أؤثرك بكم وافر من الأسرار التي لم و لن أبح بها يوما لشخص سواك .

شخص حمزة ببصره إلى السقف ، خفض رأسه ثم سأل عاصم مندهشا :

- أهناك أسماء أخرى مستعارة غير اسم حمدي ؟

بدأ القلق يتسرب إلى محيا الشيخ حمزة ، فهو لا يعلم لماذا يشعر بأن الرجل صادق ، و يشعر كذلك بأن لدى الرجل ما يقوله ، بعض الهواجس التي لعبت بعقله كان لها ما يبررها ، فإن لهجة الرجل تدل على أنه من سكان العاصمة ، لم يره حمزة من قبل في المسجد أو في طرقات المدينة التي تتوسط صعيد مصر ، رأسه غير مغطاة بالعمة كسائر الحضور ، طريقته في التخاطب لها دلالتها على أنه جامعي لا محالة ، بل و يمارس مهنة تساعده في كيفية التعامل جيدا مع الأنماط المختلفة من الناس ، يديه خالية من التشققات التي تصيب من يعملون بالحرف البسيطة ، كذلك عميق تجاعيد وجهه دلت على تجاوزه ست عقود على الأقل من العمر ، بيد أن حمزة قرر خوض الحوار ، كانت نفسه تحدثه بضرورة الاستماع للرجل .

استفسر حمزة عن سر الابتسامة الدائمة التي كانت مرسومة على محيا عاصم ، قال بذكاء :

- لهجتك في الإطراء و المدح اللذين وصفتني بهما مشكورا تتنافى مع الابتسامة التي لم تفارقك أثناء الدرس ، و هو ما قد جعلني أشعر بأنها قد تكون ابتسامة سخرية من مستواي الخطابي .

قال له عاصم و قد فارقت الابتسامة وجهه احتراما لشعور الشاب المهذب :

- ما الذي دفعك يا ولدي لتكون هذا التصور البغيض ؟

قبل أن يرد عليه حمزة ، أسرع عاصم ليقول :

- أعذرني يا شيخنا العزيز إن كنت قد ناديتك بيا ولدي ، فأنت قطعا شيخا جليلا ، ولكني تزوجت قديما ثم انفصلت عن زوجتي لعدم قدرتي على الإنجاب ، لذلك ما إن رأيت إنسانا على خلق مثلك حتى تمنيت أن يكون ولدي .

أحنى حمزة رأسه قبل أن يقول :

- لا عليك يا سيدي ، فلي كل الشرف أن أكون ولدك ، و لكني أعلم جيدا أن لهجة أهل الصعيد من أمثالي لا تروق كثيرا لأهل القاهرة ، بل ربما اتخذها الكثيرون منهم كمادة للفكاهة و هو ما أوحى إلي بأن ابتسامتك ربما كا..

قاطعه عاصم :

- أبدا يا عزيزي ، فأنا من أصول صعيدية مثلك ، إنما كنت ابتسم لسبب آخر ، أظنه لم يخطر ببالك .

لمعت عينا الشيخ ببريق الفضول ، فهم عاصم يسأل عن السبب الحقيقي لتلك الابتسامة ، لكن عاصم باغته قائلا :

– هل تعلم يا شيخنا العزيز أنني كنت أتعجب من حكمة الله في خلقه ؟

قال حمزة :

– و نعم بالله ، و لكن أي جانب من حكمة الله قد لفت انتباهك في حديثي ؟

لمعت عينا عاصم هذه المرة و هو يقول :

– أنت تعلم بالطبع أن لكل كائن حي دورة حياة ، أليس كذلك ؟

أجاب حمزة :

– بلى ، أنا و إن كانت دراستي منصبة بالأساس على العلوم الدينية و اللغوية ، إلا أنني قد درست ذلك في المرحلتين الإعدادية و الثانوية .

تابع عاصم :

– هل تعلم أيضا أن الإنسان كذلك له دورة حياة كسائر المخلوقات ؟

ارتفعا حاجبا الشيخ حمزة ، تساءل بعينيه فقط دون إصدار صوت، ليؤكد له عاصم ما قاله :

– نعم يا ولدي ، للإنسان دورة حياة ، و إن كانت أكثر تطورا باعتبار أنه أفضل خلق الله ، فهي ليست قاصرة على تحديد موسم التزاوج و أطوار الحياة فحسب ، إنما ترتبط دورة حياة الإنسان في المقام الأول بقدرته على التعلم و التحكم بانفعالاته ، و هو ما لا يتمكن من رؤيته إلا العجائز من أمثالي .

يتساءل حمزة مجددا :

- هلا أبنت بشكل أكثر يا سيدي ؟

راح عاصم يشرح نظريته :

- يكون الإنسان طفلا ليس لديه علم أو تحكم بأفعاله، فيصير بعد ذلك شابا قد حصل العلم و لكن لا يمكنه التحكم بانفعالاته، ليصبح بعد ذلك رجلا رصينا يمتلك العلم و التحكم بانفعالاته و لكنه يفتقر للوقت الكافي للاستفادة من تلك الخبرات لانشغاله بمتطلبات الحياة وضغوطاتها، و أخيرا يصبح شيخا هرما يمتلك العلم و التحكم و الوقت الكافي لفعل كل شيء، لكنه أصبح لا يمتلك القوة الكافية لفعل أي شيء.

بفطنة شديدة ، استطاع حمزة استنباط مراد عاصم من تلك النظرية ، ليندفع قائلا :

- أظنني قد استوعبت ما ترنو لقوله يا سيدي ، أنت تريد تذكيري بأنني الآن في الطور الثاني من العمر ، علم غزير و افتقاد لآلية توجيهه بالشكل الأمثل ، هل صدق تخميني ؟ أم أن الأمر قد اختلط علي ؟

لم يجبه عاصم ، و لكنه ذكره بسؤاله السابق عن الحكمة وراء تقديم عاصم نفسه لحمزة تحت اسم مستعار :

- أيعقل يا شيخ حمزة أن يكذب الرجل في بيت اللّه ، و كذلك يصرح بكذبه لمن يحاوره صراحة دون حياء ؟ أيعقل أن يكذب شخص اسمه حمدي ؟

ضحك حمزة و قد أدرك أن للرجل رغبة في إدارة الحوار بالشكل

و بالترتيب اللذان يفضلهما ، فقرر أن يساعده في ذلك ، فقال مازحا بدوره :

- ألا يوجد بين كل من يسمون بحمدي شخصا واحدا يكذب ؟

ابتسم عاصم و هو يقول :

- و ما أدراني ؟ أنا لست بحمدي .

زادت ضحكة حمزة هذه المرة ، ليتابع عاصم حديثه قائلا بعد أن استحالت ملامحه فجأة لأقصى درجات الجدية :

- أنا أعمل محاميا في القاهرة يا حمزة ، محاميا متمرسا أزاول مهنتي لقرابة السبعة و ثلاثين عاما ، لدي مخزون من الأسرار يعجز المدونون عن حصره ، بحكم القسم الذي أقسمته يوم تخرجي بأن أحفظ أسرار الموكلين ، أصبح حفظ الأسرار رياضة لم أتخل عن ممارستها يوما ، مما جعلني قبلة الباحثين عن شخص يمتلك طريقا ذو اتجاه واحد لمرور الأسرار ، بمعنى تدخل الأسرار عبر أذنيه و لا تخرج أبدا عبر شفتيه ، لدي ما أقوله لك ، و أعلم تماما أنك تدرك هذا، و لكني سأستعمل نظرية جديدة في إيصال وجهة نظري إليك ، بأن أضع العربة أمام الحصان .

زاد اهتمام الشيخ حمزة ، بعد أن بدأت بوادر ما كان قد راهن عليه نفسه تلوح في الأفق ، فسأل باهتمام بالغ :

- أي نظرية هذه يا متر حمدي ؟

كان وقع اصطلاح المتر حمدي جديدا على مسامع عاصم ، فاندهش

أول الأمر قبل أن يدرك أن هذه في الأساس فعلته ، فابتسم و هو يشرح للشيخ حمزة ما يعنيه من كلامه :

– من المعروف أن الناس يدرسون أولا الجانب النظري ، ثم يذهبون بعد ذلك للتطبيق العملي ، لإثبات صحة النظرية ، أليس هذا ما يحدث؟

قال حمزة :

– بلى .

عقب عاصم :

– و لكننا الآن سنبدأ بالجانب العملي ، ثم ننتقل أخيرا للجانب النظري، و هو ما أراهن عليه في إيصال فكرتي إليك .

ظل حمزة صامتا ، و كأنه كان يخشى أن يرهق الرجل بكثرة أسئلته، قرر إفساح المجال للمتر حمدي ليسهب في شرح ما يريد ، وليكتفِ هو بالسؤال عند الضرورة الملحة فقط ، فتابع عاصم يقول :

– لأول مرة في حياتي سأفشي أسرار من أودعوني خباياهم ، ومن يكونون ؟ إنهم ليسوا بموكلين لدي في المكتب ، إنما هم أقربائي ومن تربطنا بهم صلة نسب ، أنا وحدي في هذا العالم الذي لدي تفصيلات كثيرة عن أسرارهم الإيجابية و السلبية ، سأقصها عليك الآن .

حدج عاصم حمزة بنظرة عميقة و هو يقول :

– لا بد لي يا ولدي أن أحتاط جيدا لعدم فضح من ائتمنوني على أسرارهم ، لذلك قدمت لك نفسي تحت اسم مستعار ، كذلك سأقدم لك كل من سأقص عليك قصتهم تحت أسماء مستعارة أيضا ، فلا

محمود اسمه محمود ، و لا عزت اسمه عزت ، كذلك زينب لها اسم مغاير تماما لاسم زينب .

أنا أثق بك ، و كذلك كل العوامل تساعدني في خوض التجربة معك ، فأنا أول مرة تطأ قدماي ديروط ، و أظنها الأخيرة ، و أنت تعيش و تعمل هنا و لا أظنك ستذهب يوما للإقامة في القاهرة ، و إن هممت بذلك فلا شك أنه أمرا يكاد يكون مستحيلا أن تعثر علي في زحام القاهرة ، وأنت لا تعلم حتى اسمي الحقيقي ، بمعنى أننا الآن اثنان يتحاوران سويا، سيكون آخر عهدهما ببعضهما أداء صلاة المغرب مع جموع المصلين .

سكت عاصم لبرهة قبل أن يعقب :

- هل تعلم أن تقريبا كل الأشخاص الذين سأحدثك عنهم في طريقهم الآن لحضور حفل سنوي بمناسبة عيد زواج محمود و أمل ؟ أو من يسميان مجازا محمود و أمل ؟ كذلك هل تعلم أنني أغيب عن الحفل للعام الثاني على التوالي ؟ و الملفت للنظر أن كل المدعوين تقريبا يتجنبون السؤال عن سبب غيابي ، نعم أنا أغيب لانشغالي بأعمال المحاماة ، أما هم فلا يريدون التواجد معي في مكان واحد ، لأن الإنسان بطبعه لا يود التواجد في مكان واحد بصحبة من تذكره رؤيته بماض أليم .

أدرك حمزة أن عاصم على وشك البدء بقص حكاياته ، فقال له في هدوء بعد أن أرسل نظراته للتأكد من خلو المسجد إلا من بعض المصلين، و عامل النظافة :

- هاتِ ما عندك يا سيدي ، أنا كلي آذان صاغية .

استرسل المتر عاصم – أو حمدي – في وصف كل شخصية يتحدث عنها بعمق ، كان يتعمد إيصال صورة معينة لذهن الشيخ حمزة، احتفظ ببعض الأسرار السلبية للبعض و الإيجابية للبعض الآخر إلى نهاية الجلسة ، لكنه تعمد الإشارة إليها على فترات متباعدة ، حيث كانوا جميعا يلجئون إليه في أوقات متفرقة .

التزم حمزة الصمت التام ، بينما راح عاصم يتشعب في قَصَصِه، كان يمتلك أسلوبا مميزا يتسم بالتشويق و التنوع ، لم يمل منه حمزة، بل كان يستمتع بكلامه .

كل ما كان ينتاب حمزة هو تغير ملامحه بعد كل موقف يحكيه عاصم عن أحد أفراد العائلة ، فمرة يضحك لموقف كوميدي يسمعه ، و مرة يحزن تأثرا لحزن صاحب الموقف ، و مرة تتهلل أساريره لقيام أحدهم بفعل حسن ، و أخرى يكفهر و يغضب لقيام آخر بفعل يغضب الله سبحانه و تعالى .

تطور الحوار في النصف الثاني من راوي و مستمع إلى راوي وراوي مساعد ، فقد تفاعل حمزة مع شخوص عاصم ، بل و بدأ يستنتج تصرفاتهم قبل أن ينطق بها عاصم ، ليقاطعه و يقول أن فلان هذا سوف يقوم بالفعل كذا في ذلك الموقف ، وفلانة هذه سوف تسيء التفكير تجاه ما حدث من زوجها فلان ، و هكذا ..

انتبه عاصم لتأثر حمزة بالقصص الواقعية التي يقصها عليه ، فقرر أن يختبر مدى وصوله للدرجة التي يريد أن يوصله إليها ، فسأله مبتسما :

- أراك يا حمزة قد كونت فكرة لا بأس بها عن أفراد العائلة ، هل تخميني في محله ؟

اندفع حمزة قائلا بحماس شديد :

- ليس هذا فحسب يا متر حمدي ، بل أستطيع الآن أن أدعي أنه بإمكاني استنتاج تصرفاتهم إزاء أي موقف يتعرضون إليه .

ابتسم عاصم ابتسامة ظفر ، فقد وصل حمزة بالفعل للمحطة الثانية ، و التي سيتغير فيها مسار القطار بالكلية ، فراح يقول لحمزة :

- وأنا أيضا أشاركك الرأي في أنك صرت تعرفهم خير مني أنا شخصيا ، حتى أنني بدأت أغار منك أيها الشيخ صغير العمر ، كبير المقام.

- أشكرك يا سيدي على حسن مقالك ، فأنا أقل من ذلك بكثير .

تابع عاصم :

- أريد منك يا شيخ حمزة أن تشرح لي انطباعاتك عن الجميع في عجالة ، فقد مرت ساعة حتى الآن ، و أظن أنه أمامنا قرابة نصف ساعة لإنهاء حوارنا قبل رفع الآذان .

أطرق حمزة يفكر هنيهة في الطريقة الموجزة التي يمكن أن يعبر بها عن انطباعاته عن شخصيات المتر حمدي ، هداه فكره لكونه يعمل إمام مسجد ، فلا بد أن يكون تقييمه للناس مبنيا على تقييم أعمالهم على مقياس الخير و الشر ، فاقترح على عاصم أن يقسم الأشخاص لفريقين ، فريق من الأبرار ، و آخر من الأشرار ، و أخبر عاصم بأن هذا التصنيف هو ما يجيده ، بحكم عمله .

تجاوب معه عاصم مرة أخرى و لكنه أراد أن يكون أكثر تحديدا، فاقترح على حمزة بقوله :

– ربما كنت تقصد يا شيخنا : فريق في الجنة و فريق في السعير .

أعجب حمزة بالاقتراح ، و زكاه بابتسامة منه ، ليتقدم عاصم خطوة أخرى في الحوار و يسأل حمزة سؤالا مباشرا :

– هلا أخبرتني إذن يا حمزة عن تفاصيل تقسيمك للأشخاص في كل فريق على حدة .

رفع حمزة عينيه تجاه سقف المسجد و هو يحاول تنشيط ذاكرته التي استنتج عاصم في أثناء تحاورهما أنها على درجة بعيدة من القوة، ثم هم يقول :

– كل عاص يا متر حمدي مآله إلى جهنم و بئس المصير ، بينما من انحرف عن المعصية و اتجه رأسا للالتزام فإن مصيره رحمة الله لا محالة .

قال له عاصم :

– لم أر في حياتي شخصا تتطابق أفكاري و أفكاره كما هو الحال بيننا يا ولدي ، يبدو أن هناك رابطا روحيا يجمعنا دون أن ندري ، ولكن كنت أريد منك تحديدا أكثر ، بأن تسمي لي الأشخاص الذين ينتمون لكل فريق ، معللا تقسيمك لهم بعنوان فقط دون الإطناب والاسترسال.

– أظن يا سيدي أن زان مثل أدهم و أبوه عادل في فريق السعير، بصحبة أمل المتسلطة المتغطرسة مع ابنتها رشا ، وربما اصطحبوا

معهما حاقدان ناقمان كرقية و زوجها زكريا ، و محمود الذي يتلون مع كل مسئول في البلد ، أما عزت الكافر الزنديق فله مكانة خاصة مع خليليه فرعون و هامان ، و كل هذا لا ينسينا سميرة المسرفة المنافقة .

استطرد عاصم مؤيدا :

- إذن هذا فريق السعير ، فما بالنا بفريق الجنة ؟

قال حمزة بلهجة تملؤها الثقة :

- فريق الجنة لا بد أن ينتمي له شخص متدين مثل منصور وولده وليد بصحبة أنيسة المرأة الطيبة المستسلمة لقضاء الله ، و سالي المقهورة الطيبة ، و أميرة التي رفضت الانصياع لرغبات لؤي الشاذة فحافظت على كرامتها و عفتها الأنثوية ، و كذلك زينب الأم الرءوم التي صبرت على متاعب الغربة و ضحت لأجل مصلحة أبنائها ،و كل هؤلاء تحت زعامة المتر حمدي بالطبع الذي يتطوع للسفر و الدفاع عن مساكين مجانا كما علمت منك سلفا ، كذلك لا يتوانى عن مساعدة من يلجأ إليه في أمر ما .

قال عاصم :

- عظيم إذن نحن متفقين فيما يتعلق بالتقسيم و أسبابه ، وهو ما يمكن أن يكون قاعدة للانطلاق نحو مزيد من التفاصيل حول كل شخص ، و التي ربما تؤيد وجهة نظرك حول كل منهم ، أو لعلها تغير من رأيك في الكل دفعة واحدة .

أدرك الشيخ حمزة ثانية أن عاصم كان يحتفظ ببعض المعطيات ،

و التي ادخرها للإفصاح عنها في الوقت المناسب ، فعلم أن المتبقي من وقت في الحوار ربما كان بالغ الأهمية ، فاستأذن عاصم قائلا :

– عذرا يا سيدي ، فلقد أرهق ظهري من الجلوس هكذا ، هل لي أن أجلس إلى جوارك لأستند بظهري إلى الحائط ؟

داعبه عاصم قائلا :

– أقبل أيها الشاب العجوز ، يا من تنتمي لجيل السمن الصناعي .

ضحك حمزة و هو يجلس إلى جوار عاصم ، قبل أن يقول :

– متر حمدي ، أظنك بصدد إلقاء قنبلة مدوية تغير من دفة الحوار للنقيض ، هل أنا مصيب ؟

احتفظ عاصم بهدوئه و قرر الإجابة على السؤال بسؤال :

– كنت أعلم يا ولدي أن حماسك بحكم صغر سنك سيجعلك تقفز للأمام خطوات عدة ، متجاوزا بعض الأمور الهامة في القصص الذي أخبرتك به منذ قليل ، ذهبت لتقسيم الناس دون أن تتروى في أمر ما ، فهل أنا مصيب هذه المرة ؟

– أي أمر تقصد يا سيدي ؟

قال عاصم بلهجة ساخرة :

– أنت أيها الفتى العبقري كانت ترتسم على وجهك تساؤلات عميقة بعد كل موقف كنت أحكي لك فيه لجوء أحدهم لي لأعاونه على تجاوزه، و لكني لم أشرح لك بعد عن تفاصيل تلك المواقف ، بل تعمدت أن أخفي تفاصيلها عليك لتسألني عنها ، فمثلا كان يتوجب عليك أن تسألني

عن سر ارتباك زينب في المستشفى ، و أي ذنب اقترفت وكانت تخشى أن ينتقم الله منها في ابنتها ، خصوصا أني قد أشرت في قصتي أنها لجأت لي أنا و صارحتني بالأمر كله لأعاونها على تجاوزه ، ولكنك كنت تتجاوز تلك المواقف لتمكنني من الاستمرار في الحكي ، كما أنك لم ترد أن تقاطع شيخا في سن والدك أو ربما جدك ، أعلم ذلك جيدا فهو الأمر الطبيعي الذي لا بد أن يصدر من إنسان على خلق مثلك يا حمزة، و لكن ..

سكت عن الكلام فجأة للفت انتباه حمزة الذي اختفت من وجهه علامات الثقة لتُستبدل بعلامات الحيرة و هو يقول :

- و لكن ماذا يا متر حمدي ؟

رسم عاصم على وجهه علامات التأمل ، كأنه يريد من حمزة التفكير معه بصوت عال ، ثم قال :

- و لكن كنت أتوقع منك أن تؤجل تقييمك للبشر بعد أن تسألني و تلح علي لمعرفة الأسباب من وراء تلك الزيارات و المكالمات الهاتفية التي كانوا يلجئوا لي خلالها ، فكل ما قصصته عليك حتى الآن ليس بسر ، بل هو معلوم لكل أفراد العائلة ، و لو سألت أي أحد منهم لأخبرك بما أخبرتك به منذ قليل دون زيادة أو نقصان ، و لكن ما يميز علمي أنا عن الباقين أنه علم بأسرار خاصة للغاية كما أشرت إليك بهذا من قبل .

أخرج حمزة جزءا من لسانه و هو يعض عليه بأسنانه ، قبل أن

يحني رأسه قليلا كأنه يريد تفادي التقاء عينيه و عيني عاصم ، التزم الصمت هذه المرة تماما ، فبادره عاصم قائلا :

- سأقص عليك يا ولدي كل شيء ، نعم كل شيء ، أرجو منك ألا تؤجل أي تساؤل آخر لما بعد ، اسأل بمجرد أن يحلو لك السؤال ، و أعدك ألا أكل و لا أمل من أسئلتك أيا كانت كميتها ، اتفقنا يا حمزة ؟

رفع الشيخ رأسه و هو يردد :

- اتفقنا يا سيدي .

- ما رأيك يا شيخ حمزة في أن نبدأ بمعسكر جهنم ؟ أعتقد أننا سنجد فيهم مادة خصبة للحديث .

قالها عاصم منتظرا الرد من حمزة الذي اكتفى بالقول :

- تفضل يا سيدي .

بدأ عاصم يجهر بما كان يسره ، فأنشأ يقول :

- حسنا ، لنبدأ بعائلة محمود ، فقد أخذ محمود على عاتقه القيام بأمر و لا أروع ، أعتقد أن الله سوف يثيبه عليه أعظم الثواب ، فقد كان يعنى بشدة بمسألة زواج اليتيمات ، كان ينفق عليهن بواسطة إمام مسجد كبير في منطقة المنيرة ، مسقط رأسه ، بل كان يتركهن أحيانا يتدللن عليه - كبناته بالطبع - حين يردن أن يطلبن شيئا إضافيا في جهازهن غير الأشياء الضرورية ، أظن أحيانا أن وابل الدعوات التي تنصب عليه من هؤلاء اليتيمات ربما كان سببا في ثقل ميزانه كما لو كان صحابي حارب و غزا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم .

أذكر ذات مرة حين سمعته أمل ينوي المجيء إلي ، كان وقتها مرتبكا للغاية ، بعد أن تلكأت الشركة التي كان يتفق معها لتوريد حاجيات الفتيات المقبلات على الزواج ، لتحدث أكثر من مشكلة لكل عروس منهن كانت قد ارتبطت بموعد استلام الجهاز لإتمام العرس .

جاءني ناقما على غياب القانون في البلد ، طالبا مني أي حيلة كانت للضغط على هذه الشركة للوفاء بمواعيدها ، و قد وكل لي الأمر بعد ذلك بتمامه ، حيث كان مشغولا بأعماله بشدة كما قد قصصت عليك من قبل .

أخالك الآن تعجز عن تصنيف محمود ، أو يمكننا القول بأنك لم تعد

على ثقة تامة كما كنت ذي قبل في مسألة وضعه في قائمة أهل السعير .

بينما لا يمكن أن نصنف رشا إلا تحت بند من شابهت أباها ، أتذكر حين أخبرتك يا حمزة بالمشروع الذي طالما حلمت به رشا ، و ما إن استحوذت على المال من أبيها حتى شرعت بالبدء في تنفيذه و أغدقت المال لإتمامه ؟

- نعم يا متر حمدي ، أذكر جيدا .

تابع عاصم :

- ما كان هذا المشروع يا ولدي إلا شراء قطعة أرض و بناء دارا للأيتام ممن هم في سن الرضاعة لرعايتهم ، فكانت تزورهن زيارة أسبوعية لتقوم بتلبية حاجاتهم رغم وجود الكثير من المنح و العطايا من سكان التجمع الخامس لنزلاء هذه الدار من الأيتام .

أنفقت المرأة الطيبة كل مالها ، نصف مليون جنيه على مشروعها الغالي ، كانت تستلف سيارة أختها و أحيانا أبيها للذهاب إلى أي مكان ترغبه ، فكانا يوبخانها أحيانا على عدم الاحتفاظ و لو بعُشر المبلغ ، لشراء سيارة قديمة مستعملة تسعفها في تحركاتها ، و لكنها كانت ترد عليهم بحزم و ثقة قائلة :

- لو عاد بي الزمن للوراء ، لاخترت القيام بما قمت به ، بل و لو ضاعف والدي المبلغ لقمت بالتبرع بالمليون جنيه غير منقوصة لرعاية هؤلاء الأطفال ، أنا أشفق عليكم حقا لأنكم لن تتمكنوا يوما من الشعور بما أحس به عقب كل زيارة لهؤلاء الملائكة الصغار ، أي فرحة و أي راحة بال .

نظر عاصم لحمزة و هو يقول :

- يمكنني القول يا بني أن هذا هو أحد أهم أسباب صبر خالد زوج رشا على حدة طبعها ، فهو أدرى الناس بها ، يعلم جيدا أن هذا الستار الحديدي يخفي وراءه قلبا و لا أروع ، و سريرة و لا أنقى .

كنت قد درست الفقه في كلية الحقوق ، و كذلك كانت لي مطالعاتي في كتب الدين بمختلف علومه ، أجد نفسي عاجزا عن وضع رشا في المكان الذي تستحقه ، فهي ربما قبعت مع المتغطرسين ممن قال في حقهم سيد الخلق أجمعين عليه الصلاة و السلام :

﴿لا يدخل الجنة من كان في قلبه وزن ذرة من كبر﴾ .

أو ربما فازت بجوار النبي في الجنة مصداقا لقوله :

﴿أنا و كافل اليتيم كهاتين في الجنة ، و أشار بأصبعيه السبابة و الوسطى﴾ .

أعاد عاصم النظر مرة أخرى لحمزة و قال بصوت متهدج :

- هل باستطاعتك أن تسعفني يا ولدي في تصنيف رشا بشكل صحيح ، أي هل ترى الآن بوضوح مكانها في الجنة أو النار .

لم يرد حمزة ، و لم يلح عليه عاصم في طلب الإجابة ، بل انتقل لطرف ثالث في تلك العائلة :

- و الآن يا حمزة ، هيا بنا لنرى سويا ثالث أضلاع مثلث الشر في العائلة ، و من تكون غيرها ، أمل المتسلطة ، و المتربصة دوما بزوجها ، والتي تحمل جم الحقد على المسكينة الطيبة زينب .

أعلم أنك تذكر جيدا وقت أن بدأت تشك في سلوك حودة ، فراحت

تقرر الاتصال بي لاستشارتي في الأمر ، و تعجبت وقتها أن يجحدها محمود و ينسى ما قدمت له و لأمه .

أما ما قدمته له فكان وقوفها إلى جانبه إبان محنة مادية ألمت به بعد الزواج بعامين ، كادت رشا وقتها أن تتسول الطعام من أقربائه لخلو جيب زوجها من المال بالكامل ، لم تمانع أن تقوم أنيسة جارتها في المنيرة بما يشبه الإنفاق عليهما ، بل و إمدادهما أحيانا بالطعام وقت انصراف أمل من عندها ، شعرت بالصغار لمرورها بموقف لم تعتد المرور به من قبل ، لكنها صممت على تحمل أي شيء برفقة زوجها ، كما أنها تجاهلت تماما ما صدر منه قبل عام أو يزيد من مناداته إياها بيا زينب أثناء أكثر اللحظات خصوصية بين الزوجين .

أما ما فعلته لأمه ، فهو أن محمود قد جلب والدته للعيش معه بعد تدهور حالتها الصحية ، كانت الأم الضاربة في العمر تتبول و تتغوط كالأطفال دون إرادتها ، ما كان من أمل إلا أن رعتها كوالدتها تماما، كانت أم محمود في هذه السن سليطة اللسان ، تسدد اللعنات لأمل ذهابا و إيابا رغم كل ما كانت تقدمه لها ، لم يصبها القرف يوما من فضلات حماتها ، لم تشتكِ لمحمود أبدا من تصرفاتها معها ، كما لم تمن عليه يوما بوقوفها مع والدته ، حتى أنه ذات يوم شعر محمود بإهانات أمه البالغة الموجهة لشخص أمل ، فشعر بالحرج أمامها لقيامها بما لا يتحمله بشر لأجلها ، فهم أي يعاتب أمه على ما صدر منها، لتنهاه أمل محذرة إياه بترك البيت إن صدر منه أي شيء نحو أمه .

ربت عاصم على ركبة حمزة الجالس شاردا إلى جواره و هو يسأله :

- إذا كان بر الوالدين يرتفع بالإنسان لأعلى الجنان يا شيخنا ، فما بالك ببر الحماة سليطة اللسان ، التي تعيش طفولتها المتأخرة ؟

سكت عاصم تارة أخرى ، ليراقب وقع أحاديثه على محيا حمزة، فوجده ذاهلا ناظرا للأمام دون أن يحرك جفنيه تقريبا ، فسأله في مودة :

- أتريد أن ننتقل لأسرة أخرى يا حمزة ، أم ربما لديك تساؤلات بشأن أسرة محمود ؟

قال حمزة بوجه طفولي خالص الملامح :

- أظن أنه لم يبق من هذه الأسرة إلا سالي .

يجيبه عاصم مذكرا :

- لا تنس يا ولدي ، فسالي في فريق الفردوس الأعلى ، و نحن الآن بصدد فريق الجحيم ، أليس كذلك ؟

يجيبه حمزة بإشارة من رأسه صعودا و هبوطا في إشارة لاتفاقه وقول عاصم ، يستكمل عاصم حكاياته :

- حسنا لننتقل إذن لزكريا و رقية ، ربما أدركناهما قبل أن يُزج بهما في قعر جهنم بسبب حقدهما على الآخرين .

اكتفى حمزة باختلاس النظر لعاصم دون تعقيب ، فقد أدرك فحوى تعبيره ، فترك الرجل ليكمل بصوت هادئ النبرات :

- بعد أن هم زكريا بالاتصال بي للمشورة فيما كان يطلب بشأنه قولا فصلا ، قمت بتلبية طلبه بأن استفتي أحد المشايخ بشأن الفتيا في الزكاة ، على أن أعاود الاتصال بزكريا لأخبره بما وصلت إليه .

كان الأمر في الأساس يتعلق بعمل سري يقوم به زكريا دون أن يعلم به أحد من ذويه ، حتى رقية زوجته ، مما دفعها للشك في سلوكه كما أشرت لذلك من قبل .

العمل السري الذي كان يقوم به زيكو، هو أنه كان يخصص ربع وقته في الدروس الخصوصية لإعطاء دروس مجانية لفقراء العباسية، فكان يستغني عن أجره بالكامل، بل ويعطي الملازم لطلبته بالمجان، كانت لديه عقيدة راسخة بأنه إذا أخفى ما يقوم به ضُوعِف له الأجر و الثواب من قبل الله سبحانه و تعالى، فقرر ألا تعلم شماله ما تعطي يمينه، حتى و إن كانت يمينه تلك هي زوجته الحبيبة رقية.

قرر يوما أن يستشير شخصا بشأن الزكاة ، هل يجوز اعتبار ما يقوم به جزءا من زكاة ماله أم لا ؟

و لأنه كان حريصا حرصا يقترب من البخل ، فقد قرر ألا يلجأ للحاج منصور ، و وصفه بأنه حنبلي ، و سوف يشير عليه بأن يعتبر ما يقوم به صدقة نافلة لا زكاة مفروضة ، و بذلك يستوجب عليه دفع الزكاة كاملة ، لذلك أوصاني باستشارة من أثق أنه أهلا للعلم ، ليفتني فأبلغ زكريا بدوري عن الآراء الفقهية العديدة ليختار أيسرها .

المدهش يا ولدي أنه و بعد أن أبلغته أنه من الممكن اعتبار ذلك جزءا من الزكاة، وجدته يرفض الأخذ برأيي، متعللا بأنه يخجل أن يتعامل مع الله بالورقة و القلم، وبالعمليات الحسابية، وأنه سوف يمضي في طريقه دون الدخول في حسابات الزكاة، فهو يراهن على أن الله تعالى أكرم منه، و لسوف يجزي زكريا لفعلته أفضل ما يكون الجزاء.

لرقية علل أخرى ، فهي تشعر بأن الآخرون ينظرون إليها بعد مصابها مع زكريا نظرة دونية ، لذلك تسرب الحقد إلى قلبها ، و إن كان يحسب لها أنها لم تجلس يوما في جلسات النميمة كما يحلو لكل بنات جنسها، فكان أي سر يتسرب إليها يتوقف على الفور عندها دون إمراره لغيرها، كما كانت خير معين لزكريا إبان الأزمة العاصفة التي كادت تذهب بعقله .

كذلك لم ترتكب رقية يوما أي نوع من الأذى تجاه أحد ، حتى من كانوا يؤذونها ، كانت تصبر و تحتسب ، و لا ترد أبدا على الشر بالشر .

لن أسألك السؤال التقليدي هذه المرة حول إعادة ترتيب أوراقك بشأن تقييمك لزكريا و رقية ، فلا زال أمامنا الكثير عن الآخرين ، لذلك أرى أن نقتحم مباشرة العائلة الملعونة ، عائلة عادل و زوجته سميرة و ابنه الشيطان أدهم ، هل أنت مستعد بعد يا حمزة ؟

- أجل يا متر حمدي .

رد حمزة و قد بدا عليه إنه يريد أن يتفوه بكلمات أخرى لكن حياؤه يمنعه ، شجعه عاصم قائلا :

- هات ما عندك يا حمزة ، لقد اتفقنا على ألا تؤجل سؤالا لما بعد حتى لا تنساه فيؤثر على استيعابك لما أريد أن أوصله إليك .

تشجع حمزة نسبيا و اندفع يقول مستنكرا :

- أي شيء يغفر لعائلة يحتسي ربها الخمر و يعيث في الأرض فسادا مع النساء ، و ابنه يتعاطى المخدرات بكميات كبيرة و يحذو حذو أبيه في مسألة النساء ، و الأم مسرفة تافهة متملقة ؟ عذرا يا متر حمدي ،

أعتقد أنه من الصعب التماس أعذارا لمن هم على هذه الشاكلة .

نظر له عاصم بهدوء و قال :

- أحسنت يا ولدي .

لم يعد الثناء من جانب المتر عاصم يروق لحمزة كما كان أول الأمر، بل أصبح يتوجس منه خيفة ، حيث اغتر حمزة أولا بثناء عاصم، ليكتشف فيما بعد أن كل ثناء يسدده له ، إنما يحمل خلفه قنبلة جديدة تعصف بأفكار الشيخ و تسفه حلمه ، فامتعض بعد الثناء الأخير ، و أتاح الوقت للرجل ليدخل في مجال الأسرة الموبوءة ، عله يجد لها مخرجا .

بدأه عاصم بالتأكيد على أن أفعال تلك الأسرة تضعها وبجدارة في الدرك الأسفل من النار ، لكن هناك جوانب أخرى لا يصح تجاهلها، لا بد من ذكرها لتتضح الصورة بشكل أكبر ، فذهب يقول :

- لم يؤت عادل الفرصة كاملة ليكون إنسانا مستقيما كسائر أفراد أبناء عمومته ، أعلم أنه ليس بالعذر الكافي ، و لكن لا بد من أخذ الأمر في الاعتبار ، ظننت يا شيخ حمزة من خلال تلميحي لإقامة عادل علاقات سرية متعددة مع النساء بأنه يزني بهن ، أليس كذلك ؟

يرد حمزة مندهشا :

- و أي شيء كنت تخالني أظن يا متر حمدي ؟

- ربما يا ولدي كان يتزوج بهن سرا ، لتجنب مواجهة زوجته الطروب سميرة ، و التي كان من الممكن أن تقتله حقا إن اكتشفت أنه وضعها في خانة القديمة .

قال حمزة :

- أتعني أنه كا..

قاطعه عاصم :

- نعم ، كان يتزوج سرا ، و قد فعلها ثلاث مرات ، آخرها الزوجة التي يحتفظ بها الآن مع سميرة ، و إن كان قد مبلغ من الملل منها مبلغا بدا و كأنه نذير شؤم ، يشير إلى احتمالية انفصالهما قريبا .

تنهد عاصم من صدر ضعيف قبل أن يتابع :

- هل تعلم أنه لم يطلق واحدة منهن أبدا إلا بعد أن تطلب هي الطلاق ؟ بل هل تعلم أنه كان يعطي من تنفصل عنه كامل حقوقها دون إجحاف أو غبن ؟

نظر لحمزة ليقول :

- نعم له تجاوزاته من حيث النظر لأي أنثى ، كذلك كان مولعا بالحديث إلى صديقات سميرة ، لكنه لم يزن قبل أو بعد الزواج .

خلتك ستسألني إن كانت المرأة التي ضُبط من قبل سميرة و هو متلبسا معها أمام البنك واحدة ممن تزوجهن دون علمها ، أم أنها صيد جديد ؟

رد حمزة :

- بالفعل ، كدت أن أسألك عن ذلك الموقف المشبوه .

يرد عاصم :

- كان لدى عادل مشكلة لتعثره في تعليمه مقارنة بأقرانه من أبناء العائلة ، غالبا ما ينتج عن هذه العقدة كراهية و حقد للآخرين ، بينما في حالة عادل تحولت العقدة لطاقة إيجابية مفيدة للآخرين .

سأل حمزة :

- أي طاقة هذه ؟

- يعكف عادل منذ أحد عشر عاما على أداء أمرا طيبا للغاية ، حيث يجوب العديد من المدارس لمعرفة أسماء الطلاب غير القادرين على دفع مصاريف التعليم ليتكفل هو عنهم بالأمر ، كان في البداية يقوم بالأمر بنفسه ، بعد عامين كان عدد من يسدد عنهم كان قد تضاعف عن ذي قبل ، فقرر الاستعانة ببعض من يثق بهم لمعاونته على قضاء الأمر ، كانا شخصين ، شاب من أبناء المنيرة يعرفه عادل و يعرف أباه، و سيدة كانت تعمل في أحد المولات ، و كان هو السبب في تعيينها ، أرادت أن ترد له الجميل أكثر من مرة ، فما أن قرر استعمالها في هذا الأمر ، رحبت بشدة ، و كانت خير عون له على ذلك .

ذات يوم ذهبا للبنك كعادتهما لسحب المبلغ المطلوب سداده لمجموعة كبيرة من الطلاب ، أخبرته و هما بالبنك أن هناك مشكلة في السداد متعلقة بأمور روتينية و تعنت من بعض مديري المدارس ، أنبها لعدم إخباره بالأمر من قبل ، أعطى لها النقود ، و هو ما رأته سميرة أثناء خروجها من المول ، بالرغم من علمها بالأمر كله ، لكنها تحت تأثير الشك في أمر عادل نسيت شكل المرأة التي كانت هي بنفسها سابقا تعطيها الأموال اللازمة عندما تأتي لتأخذها من البيت بناء على تعليمات عادل .

اتصل بي عادل و هو في قمة الانزعاج ، يسدد اللعنات لكل متسبب في حالة الروتين المرضي الذي ينخر في أوصال الدولة ، سألني بالله أن

أعينه على إنقاذ مستقبل هؤلاء التلاميذ ، فقمت بطمأنته ، و وعدته أن أجد الحل في غضون يومين على الأكثر .

أما سميرة فقد كانت في أول الأمر هي المحرض لقيام عادل بهذا الفعل ، لم تكن تتوقع أن يتمادى في الأمر و بكل هذه الكثافة ، حتى بعد ركود أعماله في الأعوام الستة الأخيرة ، كان دخله يقل بشكل ملحوظ ، فيما يتزايد معدل إنفاقه على الطلبة المحتاجين .

سميرة كانت كذلك هي من صممت أن تُثني عادل عن أعمال التهريب التي كان يقوم بها أيام عمله ببورسعيد ، هددته و شددت التهديد بانسحابها من حياته فور علمها بالأمر ، ظلت وراء عادل حتى رجع عما كان يفعله .

لا ينسى أدهم أبدا يوم أن كان ابن الثالثة عشر بصحبة والدته يجوبان محال الملابس في مصر الجديدة ، وجدت أمه بجوار أحد المحال عقدا من الماس ، من هي مثل سميرة تعرف قيمته جيدا ، ما إن وجدته حتى شهقت بشدة قائلة لولدها :

- أترى يا ولدي ، لا بد أن ينفذ حكم الإعدام في من ضاع أو سقط منها هذا العقد ، إن ثمنه كفيل بحل مشاكل حي بأكمله .

تأملته جيدا لتجد به كسرا بإحدى الدوائر الذهبية الصغيرة المكونة للسلسلة الكبيرة التي تحمل فصوص الماس ، لتحدث نفسها : لا بد أنه سقط من المسكينة دون أن تدري .

يتذكر أدهم دائما أمانة أمه و حكمتها في التعامل مع الأمر ، حيث قامت بإعطاء رقم هاتف زوجها لأكثر من صاحب محل ، لإعطائه

لإحداهن إن ادعّت أن العقد لها ، أخفت العقد عن أعين الجميع واشترطت على من تقوم بهذا الادعاء بأن تصف العقد و بدقة أولا قبل إعطائه لها .

بعد أربعة أيام ، تلقى عادل اتصال من امرأة ، حاول مغازلتها أول الأمر ، و لكن بعد علمه بأمرها مرر الهاتف عبر أدهم لسميرة التي حدثتها و دعتها لأن تحضر للبيت لأخذ ما فقد منها بعد أن تيقنت أنه ملكها .

يبدو أن هذا الموقف قد انطبع في ذاكرة أدهم ليستدعيه يوم أن وجد حقيبة في إحدى الكافيهات التي كان يجلس فيها مع إحدى الحسناوات، بتفتيشه للحقيبة وجد مبلغا يقارب المائتان وثمانون ألف دولار، بالحقيبة ما يدل على صاحبها، فأجده يطرق بابي ذات صباح قائلا :

- صاح الخير متر حمدي .

فأجيبه :

- أدهم ؟ ماذا جاء بك في هذه الساعة المبكرة ؟ هل حدث مكروه لوالديك ؟

ابتسم و هو يرد :

- أبدا، كلاهما بخير، و أنا كذلك، ولكن هناك أمرا ما أردت معونتك فيه.

قلت له :

- إن هذا ليوم أَغَر ، أدهم في بيت عمه حمدي .

لاحظت أنه يتلفت يمينا و يسارا قبل أن يسأل ساخرا :

- أمن عادتك أن تستقبل ضيوفك على السلم يا عمي ؟

ابتسمت له و أنا أجره بعنف للداخل و هو يصيح :

- لا أدري لماذا يتعامل معي الجميع بعنف ؟

داعبته قبل أن أدعوه للجلوس :

- و لم لا تقل أنك الذي اعتدت على التعامل بنعومة مع الآخرين من فرط تعاملك مع القطط أيها العربيد ، أريد أن أرى لك صديقا ذكرا واحدا قبل موتي يا ابن عادل .

ضحك و استأنف يقول :

- لا أدري ما أحسسته ، و لكني أتخيل أن كلمة يا ابن عادل على وزن يا ابن كذا ، إنها قطعا تخرج من فمك بنية السباب .

ظل يضحك بشدة ، فعلمت أن نوع المخدرات الذي تعاطاه قبل أن يهم بالمجيء إلي كان جيدا نوع ما ، فقلت له :

- أي ريح طيبة يا أدهم ؟ و ما الذي تحمله في يدك ؟ و لماذا تتلفت حولك كمن أتى فعلا فاضحا و يخشى متابعة أعين الناس ؟

انخفض صوت ضحكته و إن كانت لا تزال مستمرة و هو يقول :

- ثلاثة أسئلة دفعة واحدة يا متر حمدي ، اترك لي نصف ساعة لأتخير أيسرها فأجيبك عليه .

لتنطلق ضحكته عالية مرة أخرى ، قبل أن يوقفها فجأة بعد أن سمعني أقول :

- أعتقد أنني لدي كم وافر من الماء المثلج ، ربما أسعفني في إيقاظك أيها الأبله الصغير .

اندفع يقول :

- انتهى الأمر يا متر ، سأحدثك بجدية تامة ، افتح هذه الحقيبة لتنظر ما بداخلها أولا ، ثم نرى كيف سنبدأ حوارنا الجدي .

هممت بفتح الحقيبة و أن أنظر إليه لأجد بها المبلغ المذكور ، ارتفع حاجباي و أنا أسأله :

- ما هذا يا أدهم ؟

جاوبني بمنتهى البرود :

- إنه ورق العنب اللذيذ، لم أشأ أن أتذوقه منفردا فأتيتك لتتناوله معي.

نفس الضحكة بنفس القوة صدرت عن المدعو أدهم ، أوقفها بمنتهى السرعة بمجرد أن رمقته بنظرة حادة ، تحدث بجدية بسرعة أكبر ليتجنب أي رد فعل عنيف مني ، فانطلق قائلا :

- إنها حقيبة نسيها أحدهم في المقهى الذي كنت أجلس فيه .

أجبته ساخرا :

- بصحبة إحداهن .

خفض رأسه و لم يرد ، فعاودت السؤال :

- و ما الذي جاء بك إلي ؟

جاوب بهدوء :

- أردت أن أعيدها لصاحبها و لكني لا أدري ماذا أفعل .

رددت عليه و أنا أقلب في جنبات الحقيبة :

- و لكني أرى أنه من السهل الوصول لصاحبها ، فبالحقيبة أوراق تدل على هويته .

أجاب :

- نعم ، و لكني غير خبير بمثل هذه الأمور ، و لا أريد أن أضع نفسي في مشاكل .

- أتريد نصيحتي يا فتى ؟

قال :

- إلي بها .

أجبت :

- عليك بالذهاب لقسم الشرطة و عمل محضر بالواقعة ، فهناك إيصال من الشركة التي سددت المبلغ لصاحب الحقيبة يدل على أن المبلغ المصروف منها هو ذات المبلغ الموجود بالحقيبة ، و هو ما ينفي شبهة أنك قمت بأخذ جزءا منه ، كذلك يمكنك حينئذ أن تطالب بأخذ حقك القانوني ، عُشر المبلغ أيها المحظوظ .

تحولت ملامحه للجدية و هو يقول :

- و لكن ذلك ليس من حقي يا عمي ، إنها نقود صاحبها و لا يعلم أحد إلا الله أي طريق سينفق فيه هذه النقود .

لم أستطع أن أمنع عيناي من إرسال نظرة إعجاب صوبه ، فقلت في سرور غير خاف :

- لا مانع إذن من التنازل عن حقك ما دمت تجد غضاضة في أخذه،

و لكن لا بد من ذهابك أنت ، لأنني لو ذهبت مكانك لتعرضت لأسئلة لا يمكنني الإجابة عليها .

بدأ أدهم يقتنع بنصيحتي ، فقررت أن أكملها حتى آخرها :

– و لكن عليك أولا أن تفيق من هذه الحالة التي أنت بها ، لكي لا ينقلب فعلك للخير ، إلى قضية تعاطي أيها الأبله .

نظر لي نظرة تتناسب مع وصفي إياه بالأبله ، فوجهته قائلا :

– ادخل الحمام و ضع رأسك تحت الماء البارد ، بينما سأقوم بعمل فنجانين من القهوة المركزة ، لتحتسيها ثم تنصرف .

وجدته يهمهم بكلمات غير مفهومة ، فسألته ماذا يقول ليجيبني :

– أقول أنكم عائلة من البخلاء ، أي قهوة هذه دون أن تدعوني لتناول الإفطار أولا .

وكزته و هو يمر من أمامي ليتعثر و أنا أقول :

– لديك في الثلاجة ما يمكن أن تتناوله للإفطار ، خذ منها ما شئت يا ابن عادل .

مازحني قبل أن ينصرف للحمام :

– أتسبني ثانية ؟ أتقول لي يا ابن عادل مرة أخرى ؟ سامحك الله يا متر حمدي ، فلن أرد عليك .

وصل القسم لعمل اللازم، اكتشف قبل قليل من إنهاء الإجراءات أن جيبه عامرا بمخزون المخدرات النصف أسبوعي الذي يتعاطاه، يدق قلبه بعنف خشية الإمساك به وتفتيشه، لم يكن من المعقول تفتيش شاب جاء لإرجاع مبلغا يتعد الأربعة مليون بالعملة المحلية.

هل لاحظت يا ولدي أنني لم أندهش بشدة من الوقف النبيل الذي صدر عن أدهم ، علما بأنه يتنافى مع سلوكه العام في الحياة ؟

رد الشيخ حمزة :

- نعم ، أنت تتكلم عنه و كأن هذه عادته ، لم تفرط في المبالغة في مدح صنيعه ، بل لم تستعمل لغة الجسد في إيصال المعلومة إليَّ بشكل من التضخيم .

قلت له :

- ما صدر عن أدهم سابقا تجاه فتاة مجهولة لا يعلمها يجعلني أكف عن الاندهاش لأفعاله الإنسانية التي أصبحت معتادا عليها .

سأل حمزة و قد بدا عليه أنه يتوق لمعرفة الإجابة :

- أهناك مواقف أخرى مشابهة لما قصصته عليّ للتو ؟

- رن هاتفي ذات مرة بعد منتصف الليل ، لأجد سميرة تتصل بي و هي شبه منهارة ، هدأت من روعها لأستوضح الموقف ، أخبرتني أن ولدها طريح الفراش في أحد المستشفيات بعد اعتداء مجموعة من أصدقاءه عليه بالضرب المبرح ، سارعت للذهاب للمستشفى ، حيث أن حادثة كهذه لا بد أن يصاحبها فتح تحقيق جنائي .

أفاق أدهم فأمرت النيابة بأخذ أقواله حول ما حدث ، قص عليهم حقيقة الأمر ، و هو أنه أثناء تجوله و أصحابه بأحد الشوارع

الجانبية المظلمة نسبيا بالمعادي ، لما انتصف الشارع أو كاد وجدوا فتاة تسير مسرعة ، تنظر يمينا و يسارا بخوف ، بدا و كأنها ضلت طريقها ، أو أنها لأول مرة تهبط حي المعادي ذا الشوارع المتشابهة ، و

التي يخطئ أحيانا سكانها في معرفة أي شارع يريدون ، راود أربعتهم الفتاة عن نفسها – حسب قول أدهم – لتتأبى و تمتنع مرارا ، حاول أدهم أن ينهرهم عن فعلهم ، و لكنهم أكدوا له أنهم يعرفون جيدا كنه من تمشي منفردة في هذا الهزيع من الليل ، ما إن صممت الفتاة على المقاومة حتى أدركوا أنها لن تتجاوب معهم طواعية ، فاقترح أحدهم أن يهموا بإرغامها بالقوة على طاعة أمرهم ، وافق اثنان بينما رفض أدهم بشدة ، مما دفعهم لمحاولة الضغط عليه لتغيير رأيه ، أو على الأقل تركهم يقومون بما يريدون و يكف هو عن فعله ، لكنه قرر أن يتصدى لهم و يدافع عن الفتاة ، فتكاثروا عليه و هو يقاومهم ، لينهالوا عليه بالضرب المبرح تحت تأثير الجرعات العالية من المخدرات ، فتستغل الفتاة الموقف لانشغالهم بالمعركة الدائرة لتهرول لأقرب شارع كبير فتنجو من الذئاب المتواثبة .

علا صوت المعركة حتى توافد الناس من كل حدب و صوب ليمسكوا بالجناة ، الشيء الإيجابي أن والد الفتاة التي كانت قد فقدت الوعي ، بمجرد وصوله صمم على مصاحبة أدهم للمستشفى لشكره ، و لتشهد ابنته في حقه ، و لم يخش كما هو المعتاد نظرة المجتمع لابنته و أقوال القائلين .

بعد أن استرد أدهم عافيته و غادر المستشفى ، زرته مجددا في منزله ، و حدثته منفردا :

– ماذا دهاك يا أدهم حتى تفوت فرصة مثل هذه ؟ أتترك الدجاجة دون تلقيح أيها الديك الحنون ؟

رد مندهشا من كلامي :

- إنها رفضت يا متر حمدي .

سألته :

- و هل هناك فرق ؟

أجاب منفعلا :

- نعم ، إنه اغتصاب ، تدمير لسمعة الفتاة و ربما دفعت حياتها ثمنا، سواء بفعل المغتصبين للتخلص منها ، أو بأن تنتحر يوما للتخلص من الفضيحة .

إيه يا حمزة ، أعلم أنه لا يمكنني مهما حاولت أن أغفل ما يقوم به هؤلاء العصاة ، عائلة عادل ، و لكن يمكننا الآن بعد استيضاح الكثير من الحقائق أن نقوم بترحيلهم من قعر جهنم إلى مرتبة أخف عذابا ، انتظارا لأن يتغمدهم الله برحمته بأن يتوب عليهم في الدنيا فيكفوا عما يقترفون ، أو ربما سامحهم في الآخرة ، لا أحد يردي .

ثم نظر فجأة لحمزة قائلا :

- أتدري أنت يا ولدي .

يجيب حمزة :

- بالقطع لا .

تظاهر عاصم بنسيان عزت آخر عنقود العصاة فهم يسأل الشيخ قائلا :

- هل فرغنا بعد من القائمة الملعونة أم أنني نسيت أحدهم ؟

ظهر الغضب بوضوح على وجه حمزة الذي انطلق يقول :

- هل نسيت الكافر عزت ؟

تظاهر عاصم مرة ثانية بتذكره المذكور فقال :

- آاااااااااااااه ، عزت ، كيف أنساه و هو من هو .

أعلم جيدا أنه من غير المقبول أن أتبنى الدفاع عن عزت بعد أن ألحد جهرة ، حتى و إن كانت مهنتي هي الدفاع عن الناس ، و لكن أريد أن أبدأ حديثي عن عزت بسؤال لك .

- اسأل يا متر .

سألته مستوثقا :

- كم مرة بكيت من خشية الله ؟ سواء و أنت تصلي أو عندما تقرأ القرآن ؟

سكت حمزة قليلا و أجاب بحزن عميق :

- للأسف يا والدي ، لقد قست القلوب ، فلم تعد تخشع لذكر الله كما ينبغي ، نعم أبكي أحيانا و لكن على فترات غاية في التباعد .

ربت عاصم على كتف حمزة و هو يقول :

- أهنئك على صراحتك يا شيخ حمزة ، فهذا هو المتوقع منك يا شيخنا الجليل .

امتقع وجه حمزة و هو يحدث نفسه : مدح آخر يا متر حمدي ، لا شك أن لديك مفاجأة أخرى .

بدأ عاصم كلامه بهدوء :

- كان اندهاش ندماء عزت في محله بعد سماعهم لنحيبه و هو يغلق الباب دونهم ، هل تعلم سر بكاءه ؟

أجاب حمزة :

– أنَّى لي أن أعلم يا سيدي ؟

تابع عاصم :

– كانت تنتاب عزت على فترات نوبات تأنيب ضمير ، فيتوضأ ليسمك بالمصحف فيقرأ بخشوع يفتقده الكثير من الناس ، و كان لسورة مريم تحديدا مكانة خاصة في قلبه ، ما إن يهم بقراءتها حتى لا يتجاوز بضع آيات لتنطلق كل جوارحه بالبكاء و ليست عيناه فحسب ، لم ينقطع حتى في عز إلحاده عن صيام رمضان كما أخبرتك ..

هم حمزة بالمقاطعة ، إلا أن عاصم قد استوقفه بيده فيقول مسرعا :

– أعلم يا حمزة ما ترنو لقوله ، أن كل عمل ليس تحت مظلة لا إله إلا الله فهو عمل أبتر غير مجد ، و لكني أحدثك عن إنسان مر بظروف قهرية ، ضل طريقه بسببها – و إن كان لا يوجد أي مبرر للإلحاد – لكن ربما كانت بذرة الخير و الإيمان بداخله لم تمت بعد ، و هو ما تلمسه أخي منصور ، حيث قرر أن يحول مسار عزت الجدلي من أن يجادل الآخرين فيفحمهم أو يغلبونه ، إلى أن يجادل نفسه ، فإن كان باحثا عن الحقيقة فلا بد من أن الله سيهديه لها ، و إن كان من عشاق الجدل البيزنطي فلا فائدة منه البتة ، و أنا أظن أن عزت كان من النوع الأول .

سأله حمزة بشغف :

– و ما الذي يدفعك للاعتقاد بأنه كذلك ؟

– لأنه يا ولدي جاء لي ذات يوم بعد المناظرة الشهيرة ، كان قد علم بأنني في أحد الأقاليم و سأغيب لثلاثة أيام على الأكثر ، فانتظر مجيئي

لأجده على رأسي يطلب المقابلة ، دعوته للدخول قبل حتى أن أستريح من السفر ، لأجده عصبيا موتورا لأبعد الحدود ، هممت بإحضار مشروبا لنحتسيه ، ثم أتيت لأجده قد هدأ شيء ما ، سألته :

- ماذا هنالك يا عزت ؟ يبدو لي أن الأمر خطير ، فأنا لم أعهدك من قبل على هذه الحال .

أجاب و هو يحرك جميع جسده على الكرسي من شدة التوتر :

- أرأيت ما فعله بي أخوك يا متر حمدي ؟

أجبته بصدق :

- لا أدري حقا يا عزت ، و لكن مبلغ علمي أنك و منصور على علاقة و لا أفضل .

أجاب و هو لا يزال يتحرك على الكرسي كما لو كان يجلس على صفيح من تحته نار :

- و لا أفضل ، فعلا و لا أفضل .

ليسكت ثانيتين ثم يقول :

- إنه جعل مني أضحوكة في حفل محمود و أمل الذي حضرناه منذ ثلاثة أيام ، لقد جعلني ليس مادة للسخرية فحسب ، إنما جعلني السخرية ذاتها .

حاولت أن أهدئ من روعه ، فناولته المشروب و أنا أقول :

- اهدأ يا عزت و قص علي بترو ما حدث .

دفعت يده بالكوب نحو فمه و هو ينظر إلي ، فتناول رشفة منه ، ارتعدت ذقنه من شدة انفعاله و هم بالكلام :

- يريد الحاج منصور مني أن أسمي ولدي المنتظر ب اللّه .

انتابني الصمت للحظة قبل أن أنفجر ضاحكا ، هم عزت بالوقوف لينصرف جراء ضحكتي الساخرة ، فجذبته من يده بسرعة مع تقديم وابل من الاعتذارات ، جلس مرة أخرى بعد أن تقبل اعتذاري وتجاهل بقايا الضحكة التي جاهدت بشدة للقضاء عليها .

سألني بعد أن هدأنا جميعا ، هو من انفعاله و أنا من ضحكتي :

- ما الذي يضحكك يا أخا منصور ؟ أيرضيك ما فعله بي ؟

بذلت هذه المرة مجهودا خارقا لمنع الضحكة من الظهور ، حتى أنني قد نسيت آلام السفر و آثاره على رجل مسن مثلي ، فقلت له بهدوء :

- أقول لك ثانية يا عزت ، اهدأ و قص علي ما حدث بشيء من التفصيل .

بدأ بحكي ما قد حدث ، استشفيت من كلماته أمرين هامين ، أولهما أن ما يؤرقه بشدة هو شكله أمام الناس و ليس انسحاقه أمام حجة الحاج منصور ، و ثانيهما هو أن ما قام به منصور كان له بالغ الأثر في فكر عزت ، نعم شعرت جليا بأن الرجل على شفا تغيير مسار تفكيره قريبا ، بل و قريبا جدا ، و لكن تبقى المشكلة أنه كبير الاعتداد بنفسه ، ما يمكنني الجزم به هو أن عزت تجاوز الآن مرحلة من يتأرجحون بين الشك و اليقين .

لا أخفيك سرا يا ولدي أن عزت حتى الآن لم يعلن تبرئه من أفكاره الشاذة ، و لكن نفسي تحدثني بأن هناك ليس فقط بارقة أمل ، و إنما أمل كبير في أنه على أبواب الهداية ، هل تعلم أن آخر عهده بالكلام في

مثل هذه المواضيع كان تلك الليلة منذ عام بالتحديد ؟ هل تعلم أن أول ما قام بفعله عقب أن أتته الممرضة بابنه ليحمله عقب أن ولدته أمه أن خر لله ساجدا حامدا و معددا نعمه عليه ؟ بل هل تعلم أنه قد أحرق كل الكتب التي كنت تبث السموم في أفكاره ، و التي أهداه إياها الشيطان المسمى بأستاذ وحيد ؟

و الآن سأصطحبك يا شيخ حمزة لنطالع أهل الجنة السبعة و الذين سميتهم لي بنفسك لنرى هل هم أهل لنيل شرف ترشيحك لهم لتبوء تلك المكانة أم لا ؟

ما رأيك بأن نبدأ بعائلة منصور ؟

أشار إليَّ بيديه إشارة الموافقة ، فهممت بالبدء في الحديث .

جلس عاصم يحكي لحمزة أمر عائلة منصور كاملة ، حاول أن يفك له بعض الطلاسم التي علقت بذهنه عن بعض الغموض الذي كان يعتري سلوكهم أحيانا ، كأعمال أنيسة السرية ، و نشاط منصور الاقتصادي الخفي ، و حتى ما طرأ على وليد من تغير ملحوظ في السلوك .

اهتم الشيخ بشدة بأمر تلك العائلة ، فهو يريد الاطمئنان على من وضعهم على رأس قائمة الداخلين إلى الفردوس الأعلى ، هل لديهم ما يمكن أن يغير نظرته النهائية لهم ؟

أنشأ المتر يقول :

– و الآن يا شيخ حمزة ، علينا أن نستكشف بعض أسرار عائلة أخي منصور ، كنت قد أخبرتك عن رفضه البات لمسألة زواج علاء نجله الراحل من سالي ابنة محمود ، و أظنك تع..

قاطعه حمزة :

– أعرف بالفعل أن الأمر كان يرتبط كذلك بمصالح تجمع منصور بصديقه عبد الدايم ، تلك المصالح التي جعلته يجبر علاء على الزواج من مروة ابنة الرجل ، كذلك كنت قد ألمحت يا متر حمدي أن تلك المصالح كانت تتسم بالسرية ، و لا يعلم أحد من أمرها شيئا سوى الأسطى بهجت .

اطمئن عاصم على أن حمزة لا يزال في كامل تركيزه فذهب متابعا :

– مكث عبد الدايم ردحا من الزمان في منطقة الخليج العربي، تلك المنطقة التي تخضع بالكامل لمنظومة الفكر السلفي ، بعض المنتمين لهذا الفكر ذهبوا لتحليل الربا و لكن ببعض التحايل ، و هو أمر يستوجب

الشرح بشيء من التفصيل ، لأنني على يقين من عدم معرفتك به ، حيث أن في بلادنا هنا يكون الاقتراض إما ربا أو قرضا حسنا ، لا ثالث لهما ، أما هناك ، فالأمر واسع الانتشار ، بل يوجد محال منتشرة في كافة الشوارع تمارسه على نطاق غير محدود ، فقام مع الوقت بعض المغتربين الذين أدركوا بعد فترة من مكثهم هناك أن الرواتب التي يحصلونها ليست كافية لتحقيق الثروة و رغد العيش ، اللذان كانوا يُمنُّون النفس بتحقيقهما قبل اتخاذ قرار السفر .

استأذن حمزة و هو يسأل باهتمام :

– عفوا متر حمدي ، أهناك مَن مِن الممكن أن يحلل الربا ؟

أجابه عاصم :

– نعم ، هناك الكثيرون في جزيرة العرب ، البعض منهم أئمة مساجد كما هو الحال معك .

– كيف بالله عليك أن يتم أمر كهذا في بلاد تحتضن مهبط الوحي ، و أي منطق ينتهجون في سبيل تمرير تلك الأفكار الشيطانية ؟

سأله عاصم :

– من الأولى يا ولدي أن تفهم الآلية التي تتم بها المعاملات الربوية هناك أولا ، و من ثم يتضح لك كل شيء بعد .

أجاب حمزة بغضب جلي :

– تفضل يا سيدي .

تابع عاصم قائلا :

– عند ذهابك لأحد المحال التي تمارس ذلك النشاط أو لأحد

البنوك للاقتراض ، فإن من يحدثك يخبرك بأنك سترد قيمة ما اقترضته خلال خمسة أعوام ، و يجعلك توقع على إيصالات بنفس قيمة المبلغ الذي اقترضته .

قاطعه حمزة مسرعا :

- و أين الربا إذن ؟

قال عاصم :

- لا تتعجل يا ولدي ، فإن من شروط الاقتراض أن تقوم مثلا بشراء شحنة من القمح من المكتب الذي تقترض منه بسعر التجزئة ، ثم بعد ذلك بدقيقة واحدة يعيدوا هم شرائه منك بسعر الجملة ، و ..

قاطعه مجددا :

- أي أن فارق السعر يكو..

يقاطعه هذه المرة عاصم :

- يكون هو فائدة الربا ، بمعنى أن المقترض يشتري القمح بسعر التجزئة مثلا عشرون ألفا ، ليعيد بيعه لهم بسعر الجملة و ليكن اثنا عشر ألفا .

أوقف عاصم كلامه لينظر لحمزة الذي زاغ منه بصره و هو يقول :

- ليكون فارق الثمانية آلاف هو الفائدة على المال المقترض .

أجابه عاصم :

- أصبت ، و اعلم كذلك أن هذه العملية هناك تأخذ أشكالا عديدة، تدور كلها حول نفس المعنى .

نظر حمزة تجاه عاصم بحدة و هو يقول :

- لا تخبرني يا متر حمدي أن أخاك قد شارك عبد الدايم في تلك الأعمال لن أقول المشبوهة ، بل سأصفها بالملعونة .

تأثر عاصم و هو يقول بصوت أسيف :

- صدقا يا ولدي أنني قد جادلته فأكثرت جداله فيما يتعلق بهذا الأمر ، إلا أنه كان يرى أن عبد الدايم الرجل المتدين ذو العلم الغزير لا بد أن يكون أحوط مني في الإلمام بالأمور الفقهية ، بل قال منصور نفسه لي أن عبد الدايم ظل ما يزيد عن الشهرين يحاول إقناع منصور بالمشروع ، و منصور يتأبى بشدة ، إلى أن أفلح الإلحاح في العبث بعقل منصور الذي شاركه أخيرا لبضع سنوات ، يعدها منصور الآن أسوأ سنون عمره ، حتى أنه كان يقول : أحمد الله أنه توفى علاء ولدي قبل أن يعلم حقيقة نشاطي مع عبد الدايم ، فقد كنت على وشك أن أبلغه ليكون عونا لنا بعد ذلك .

يقول الشيخ حمزة :

- هناك تبادل منفعة لا محالة .

- نعم يا حمزة ، رجل معه أموال كثيرة يريد أن يستثمرها ، و أمامه صديق يثق في أمانته ، و لديه علاقات ضخمة و سمعة طيبة ، ثم تتلاقى فيما بعد رغبة رجل لديه بنتان بلا أبناء ذكور مع رغبة من لديه ذكران دون أنثى ، ليتصاهرا فيضمنان ارتباط مصالحهما للأبد .

قال حمزة و هو شارد الذهن :

- ليدفع علاء و سالي الثمن .

كرر عاصم وراءه نفس الجملة :

- ليدفع علاء و سالي الثمن .

قال حمزة و قد تمكن الحزن من ملامحه :

- أكمل يا متر حمدي .

راح عاصم يقول :

- كان الأسطى بهجت هو من يقوم بتحصيل الأقساط من المدينين، ويذهب بها ليوردها لعبد الدايم في الشقة التي كانت مقرا لأعمالهم في منطقة السيدة زينب، يغدق منصور عليه المال شريطة أن يظل لسانه صامتا، و هو الأمر الذي كان يجيده بهجت، و ربما كان أحد أهم مميزاته.

بعد وفاة علاء ، أعاد منصور ترتيب أوراقه تماما فيما يتعلق بشراكته مع عبد الدايم الذي صمم على الاستمرار في نشاطه اللعين، انفصل منصور تماما ، و حاول رد الأرباح التي حصلها من الناس إليهم، بالطبع من استطاع الوصول إليه منهم ، و استعان بي في إتمام ذلك ، و راح يشدد على أرملة ولده بألا تقوم بالإنفاق بتاتا من أموال أبيها على حفيدته ، دون أن يوضح لها ما السبب وراء هذا التشديد .

بذل منصور كل ما في وسعه لتصطبغ توبته بصبغة التوبة النصوح ، آملا في أن تتسع رحمة ربه له .

أما بهجت الذي بلغ حزنه على موت علاء مبلغا ربما يساوي حزن والديه ، ليس لحبه الشديد للمتوفى ، و إنما كما أخبرتك أن دخله قد تأثر بشدة من القناتين اللتين كانتا مفتوحتين عن آخرهما ، قناة عاصم و قناة أنيسة .

فهم حمزة بمجرد ذكر عاصم لاسم أنيسة أنه سينتقل لقصتها الآن، بعد أن فرغ من قصة منصور ، الرجل المرابي التائب ، فسأل عاصم بهدوء حذر :

- و ما بال الحاجة أنيسة هي الأخرى مع المدعو بهجت ؟

- كانت أنيسة ترى في زوجها منصور كل المواصفات التي تجعله مطمعا للكثير من النساء ، سواء قبل أو بعد الزواج منه ، كثيرا ما كان يترامى لسمعها أن نساء البلدة في الصعيد يحسدن أنيسة على الاستئثار بالرجل ، و يرين أنها غير أهل له ، قررت أن تحاول الحفاظ على زوجها المرموق ، كانت تعلم مدى انتشار أعمال الدجل و الشعوذة في أرياف الصعيد ، فقررت بعد زواجها أن تهاجم أولا لتحافظ على شباكها نظيفة ، قررت أن تبادر من تعلم أنهن يحقدن عليها بأن تستعين عليهن بالساحرات و المشعوذين للنيل منهن ، لم تترك بابا علمت أن وراءه من يستعينون بالجن إلا و طرقته ، و كان مِن بين مَن تستعين بهم الرجل و المرأة ذوا المظهر الموحش ، و اللذان رأتهما أمل في شقة أم علاء ، و غيرهما الكثيرون ممن هم على نفس الشاكلة .

أفاقت أنيسة من غفوتها بعد أن أفاقت من غيبوبتها التي أعقبت علمها باستشهاد ولدها الأكبر، وجدت أنها ذاهبة نفسها حسرات على ولدها ، توقفت تماما عما كانت تقوم به من أعمال السحر والأذى، بل حاولت أثناء رحلات عديدة للصعيد أن تصلح ما قد تكون أفسدته، فكانت دائمة الزيارة للنساء اللواتي كن يقبعن في القائمة السوداء لديها لتعتذر إليهن دون أن تفصح عن سبب اعتذارها، و كذلك تحاول

مراقبة أحوالهن، و مدى تأثير ما كانت تقوم به تجاههن على حياتهن.

يبقى في تلك العائلة وليد ، تنطق شواهد عدة بأن الشاب على درجة مقبولة جدا من الالتزام ، حتى بعد أن أنهى دراسته واقتحم مجال العمل و تكوين الشخصية الحقيقية .

لعل مما يحسب لوليد أيضا عدم تخليه عن نيرمين عندما لجأت إليه ، و أظنك تؤيد أن موقفه هذا يتسم بالمروءة رغم أن الفتاة غير أهل لذلك .

قال حمزة :

- بكل تأكيد .

ليقول عاصم بدوره :

- بينما أرى أنا أنه لا فضل لإنسان قام بأي فعل و هو مضطر للقيام به.

تساءل حمزة :

- أتعني أنه قام بما قام به تحت سيف الحياء من أن يرفض طلبها ؟

ضحك عاصم و هو يقول :

- لا ، بل أقصد أنه كان شريكا بالنصف في هذا الابن غير الشرعي.

حرك الشيخ رأسه ببطء ليلاقي وجه عاصم فيتأكد بواسطة عينيه من صحة ما سمعته أذنه ، وجد عاصم يشير له برأسه علامة التأكيد و هو يقول :

- نعم ... نعم يا شيخنا الجليل ، إن الجنين الذي تم التخلص منه كان لنيرمين و وليد .

بادر عاصم حمزة قبل أن يهم بالكلام :

- دعني أكمل لك حقيقة ما حدث ، بعد تعيين وليد في وظيفته كمهندس ديكور بعام و نصف ، أتت للشركة نيرمين طالبة التعيين ، وسرعان ما تحقق مرادها ، سرعة تحقيق المراد كانت لأسباب أنثوية أكثر منها أسباب فنية .

كانت نيرمين تتسم بالكرم المفرط ، فلم تبخل بدلالها و رقتها وضحكاتها الخليعة على أحد الزملاء يوما ، و هو ما دفع المهندسين الزملاء لتكوين فكرة عنها بأنها فتاة لعوب ، فقرروا التعامل معها تحت مظلة هذا الانطباع ، كان بينهم شخص يتسم بالسذاجة ، ليس له خبرات تذكر في ميادين التعامل مع الإناث ، اشتمت نيرمين رائحة الفريسة فراحت تنصب شباكها للإيقاع به .

يمكننا القول أن الإيقاع بالمذكور لم يكلفها الجهد الجهيد ، فقد صار يذوب عشقا و يكتوي بنارها بمجرد أن يفترقا ، و مما زكى استمرار العلاقة أنها كانت ترضي غروره الرجولي ، فكانت تتعمد أن تكون طوع أمره ، فبمجرد أن وجهها يوما لضرورة عدم لبس البنطال الضيق بشدة ، و الذي كان يراهن البعض على أنها ارتدته و هي في الصف الثاني الإعدادي و لم تخلعه حتى الآن فصار جزءا من جسدها ، حتى أخبرته بأنها أحرقته و لن تعود لارتداء مثله أبدا ، كذلك وعدته بارتدائها الحجاب بمجرد ارتباطهما بشكل رسمي .

تمكنت كذلك من إقناعه بأن كل ما يتردد عن سمعتها في الشركة ما هو إلا مردود أحقاد هؤلاء الرجال الذين كانوا يخططون للفوز بها ، بعد إدراكهم أن قلبها قد سُلِبَ منها و ذهب لوليد الحبيب ، قرروا

الانتقام منها و من وليد بطريقتهم الوضيعة ، و استسلم وليد بالطبع لادعاءاتها، يشعر تجاهها بخضوع كلي ، فلم يكترث بما يقال سواء بالألسنة أو بالعيون .

توطدت العلاقة بينهما حتى صار يزورها في شقتها التي تستأجرها بشكل أسبوعي ، و لكن دون أن يكون للشيطان الذي يكمل ثلاثتهما أي دور ، يبدو أن في عالم الشياطين من يتكاسلون عن أداء عملهم على ما يرام كما هو حالنا نحن البشر ، و لكن بعد فترة تنبه إبليس للأمر، فقرر تغيير ذلك الكسول بشيطان محنك، استطاع من أول جلسة له معهم أن يحيلهما من حبيبين عذريين إلى ما يشبه الزوجين، فكان نتاج تلك المحاولة الناجحة ثمرة صغيرة تعبث في أحشاء نيرمين.

تغير وليد بعدها من ناحية نيرمين بشكل ملحوظ ، لكنه لم يقطع العلاقة بشكل كامل بعد ، كان سبب تغيره ليس فقط أنها سلمته نفسها، و إنما اكتشافه أنه لم يكن أول حظها في حياة جنسية سعيدة ، كان الثاني ، و ربما الثالث ، أو لعله الرابع بعد المائة ، لا أحد يدري ، لم يقتنع حينها بالمبرر الذي ساقته له بأن ما اكتشفه من عدم عذريتها كان نتاج حب قديم مع ابن خالتها الذي وعدها بالزواج قبل أن يهاجر لإيطاليا ويتملص من وعده .

استمر وليد قرابة الأسبوعين حائرا، لا يستطيع اتخاذ القرار المناسب بشأن تلك العلاقة، فدموعها الملتهبة التي كانت تنال من قميصه و هي مرتمية في أحضانه باكية نادمة على ما صدر منها كانت تزج به في اتجاه أن يسامحها ، و لكن عقله لم يتقبل المسألة تماما، إلى

أن جاء يوما تنامى فيه إلى مسامعه وصف أحد المهندسين لشقة نيرمين وصفا دقيقا و كأنه كان يقيم بها، بل و اختلف معه زميله في تحديد لون الستائر الموجودة في البهو، لتثبت صحة رأي الأخير، مما عنى لوليد أن نيرمين تقيم في ما يشبه البنسيون ، و لكن كل رواده من الرجال.

بدأ يحلل كل ما كان يحدث أمامه و يرفض قلبه تصديقه ، حتى تأكد أن التصميمات الهندسية التي كانت تقدمها نيرمين لرؤسائها كانت تكلفها ثمنا باهظا ، كانت على استعداد دائم لدفعه شريطة الحصول على نتائج طيبة ، فقرر إنهاء العلاقة ، و لم تفلح كل توسلاتها بشأن إعطائها فرصة أخيرة لتدافع عن نفسها ، حتى جاءته كما أخبرتك

من قبل لتخبره أنها حبلى بولي العهد ، ليقوم وليد بدوره باللجوء إليَّ ، لأدله على ما يتوجب عليه فعله :

- متر حمدي ، السلام عليكم .

فأجبته :

- عليكم السلام و رحمة الله و بركاته ، ما هذا ؟ أول مرة يدق تليفوني ليظهر رقمك يا وليد ، عل الأمر خير .

- متر حمدي أريد رؤيتك بأسرع ما يكون .

فرددت عليه قلقا :

- أنت تقلقني بلهجتك يا وليد ، ماذا هناك يا ولدي ؟

- سوف أخبرك بكل شيء فور أن ألقاك .

- هلم إلي وقت شئت يا وليد .

يسأل وليد :

- هل من الممكن أن ألقاك بعد قليل ؟

أجبته مرحبا :

- على الرحب والسعة .

قمت بتخمين الوقت اللازم لمجيئه لمكتبي ، لكنه لم يستهلك سوى نصف الوقت ، وجدته أمامي و قد علت وجهه غبرة ملفتة للنظر ، بعد أن أجلسته التزم الصمت قليلا ، ثم وضع كوعيه على ركبتيه و تناول رأسه بيده ، هم يقول دون أن يضيع المزيد من الوقت :

- أخطأت مع إحداهن و هي الآن حبلى .

لفت نظري أكثر من المفاجأة طريقته في إلقاء عبارته المقتضبة ، سكتت لبرهة قبل أن أهم بنصحه استوقفني ليقول :

- أعلم كل ما تنوي قوله يا عمي ، بداية من اندهاشك ، ثم الانتقال لتوبيخي ، و ما يعقبه من نصائح بالتفكير في الزواج منها لإصلاح فعلتي الإجرامية ، و أخيرا تحذيري من احتمال وجود كارثة تهدد حياة الأم إذا فشلت عملية إجهاضها .

راقبت حركاته و سكناته و هو يتكلم و قد بلغ اليأس منه مبلغه ، فقمت بالرد عليه :

- و ماذا جاء بك إذن لعمك يا وليد ، وأنت على علم مسبق بكل ما سوف أقوله لك ؟

أجاب و هو ينظر لوضع قدميه اللتان كانتا تتحركان بسرعة صعودا و هبوطا و كأنهما قد تم توصيلهما بمحرك :

- إنها عاهرة يا عمي ، أخطأت قراءتها في أول الأمر ، لأكتشف بعد

ذلك أنها فتاة للجميع ، و أنا ألجأ إليك اليوم لعدم معرفتي بالأطباء الذين من الممكن الاستعانة بهم للتخلص من تلك المشكلة ، فهل باستطاعتك أن تساعدني ؟ فقط تساعدني دون توجيه اللوم المتعارف عليه في مثل هذه الحالات ، فأنا لا أحتمل أن يضاعف لي إنسان الكرب بالزجر و التوبيخ .

ظهر جليا من خلال انفعاله و وصفه إياها بالعاهرة أنه كان قد أحبها بالفعل ، و من يدري ، لعله لا زال يحبها ، فتاة طروب متمرسة تلقي بشباكها على شاب بلا ماضي ، تخصه دون سواه باهتمامها ليصير فيما بعد طوع أمرها .

ربتت على فخذه و قلت له بلطف :

– اطمئن يا وليد ، و لا تجعل تلك التجربة المريرة تنال منك ، أنت لا تزال صغيرا ، و لسوف تتلقن دروسا من الحياة الواحد تلو الآخر ، فيجب أن تكون على استعداد دائم للاستفادة من تلك الدروس على الشكل الأمثل ، و لا تدعها تغير من نظرتك للأمور .

وضع حمزة بدوره الآن كوعيه على ركبتيه و تناول رأسه بيده ، مما دفعني في التمهل في سرد قصة سالي ، عزفت عن نيتي في الانتظار بمجرد أن طالعت ساعة الحائط المعلقة إلى جانب المنبر في المسجد، و التي دلت على أن الوقت يداهمنا ، فقررت أن أبدأ في الكلام دون استئذان حمزة :

– حتى سالي يا حمزة ، دفعتها همومها لزيارة مكتبي هي الأخرى، بعدما دفعتها عزلتها و صدمتها بالفراق أولا عن علاء ، ثم فقدانه

شهيدا بعد ذلك ، لفعل أشياء لم يكن من المتوقع أن تصدر منها ، أضف إلى ذلك العامل الأهم ، و هو الزيجة السخيفة التي تورطت فيها باقترانها بالمدعو حسام .

لجوء سالي لي كان يختلف عن لجوء الآخرين ، فقد كانت مسألتها على قدر ما تثير الشجن بداخلي ، انتزعت مني ضحكة قوية ، ربما لم أطلقها منذ أيام شبابي الغابر .

أتت سالي لتسألني عن إيجاد حل قانوني لتجنب أن يُساءَل أحد من أهلها قانونيا عقب انتحارها .

تأففت بشدة لضحكتي المدوية التي أعقبت قولها ، اكتفت بخفض رأسها لأسفل كعادة الأطفال ممن يصغرونها بعشرين عاما ، حاولت التوقف عن الضحك احتراما لمشاعرها ، نجحت في ذلك و أحلت صوتي لنبرة جدية و أنا أقول :

– إذا هم الأطفال الأبرياء من أمثالك يا سالي بالانتحار ، تاركين لنا الباقين من البشر الأشرار في عالمنا هذا ، لصح الخبر أن الساعة أصبحت وشيكة الحدوث .

ابتسمت برقة و امتنان لإطرائي ، فتشجعت لأقول لها :

– ما الذي يدعوك يا ابنتي لأخذ أو حتى مجرد التفكير في قرار على هذه الدرجة من الخطورة؟ أي انتحار هذا يا سالي الذي تنوين القيام به؟

أجابت مندفعة :

– أرجوك يا عمي ، أنا أحمل فوق أكتافي ما تنوء الجبال عن حمله

من الهموم ، فهممت بالتفكير بالانتحار لأستريح منها ، و أرجو أن تشير علي كيف أحقق ذلك دون أن أؤذي الآخرين .

بعد أن تركتها تمر بالمراحل الطبيعية التي يجب أن تمر بها وهي على هذه الحالة ، من البكاء أولا ثم دعوتها لتناول مشروبا ، ثم مداعبتها قليلا بما يشبه النكات ، حتى استدراجها أخيرا لإدارة الحوار على الشاكلة التي أصبو إليها :

- أخيرا ابتسمتِ يا سوسو ، كنت أظن أنني سأفشل في انتزاع تلك الابتسامة منك أيتها العنيدة .

زادت ابتسامتها الحيية ، فقلت لها :

- أأخجلك أن أدللك بنفس الاسم الذي يدللك به الولد حسام ؟

حول سؤالي ابتسامة سالي اللطيفة لضحكة عنيفة مدوية ، ضحكة تؤكد على صدق نظرة الجميع لها كطفلة ، حيث أن قوة الضحكة لا يمكن تصور خروجها مِن فم مَن جاءت لتخبرني بنيتها للانتحار ، ولكن طريقة نهايتها للضحكة فسرت لي سر قوتها و هي تغالب خروج دموعها ، فتركتها لتنتهي تماما قبل أن أقول :

- مهنتي الأساسية كما تعلمين يا حبيبتي هي المحاماة ، لكنني سوف أتقمص دور الطبيب النفسي الآن ، فأستمع لك جيدا ، شريطة أن تصدقيني القول و تثقين بي إلى أبعد الحدود .

عاودت الضحكة من جديد و هي تمسح عيناها بيدها لتقول :

- أين إذن الموسيقى الهادئة ؟ ثم لماذا لم تَدْعُني لأن أرتخي تماما

على السرير المعد لراحة من يبوحون بأسرارهم من المرضى ؟ بل أين السرير أولا ؟

بدأت الضحكة الأخيرة في التلاشي شيئا فشيئا ، و أنا أتابع دون أن أنطق بكلمة ، حتى بادرت بالقول :

- آسفة يا عمي ، أنا جد آسفة لما صدر مني .

أجبتها :

- و هل تعتذر البنت لأبيها أيتها الساذجة ؟

ابتسمت بخجل واضح ، فرحت أسألها :

- هل تثقين بقدرتي على مساعدتك يا سالي ؟

أجابت :

- و أي شيء ألجأني إليك يا متر حمدي إلا ثقتي فيك .

قلت لها مستنكرا :

- لا ، أنا لا أعني قدرتي على مساعدتك في الانتحار أيها اللئيمة ، إنما قدرتي على مساعدتك في تجاوز ما أنت فيه من الهموم .

حافظت على ابتسامتها و هي تقول :

- صدقني يا عمي ، أنا ضحية لمجموعة عوامل لو تراكمت على كاهل إنسان لأردته قتيلا دون استعمال أداة مباشرة للقتل .

- لا بد أن تعلمي يا ابنتي أن أهم شيء يمكن أن يكون سببا في أن يعجز الإنسان عن إصلاح فشله هو الركون لنظرية أنه مظلوم من الجميع ، لا بد أن تخرجي نفسك و بسرعة من خانة الضحية ، التي يبدو و كأنك صرت تستمتعين بالبقاء فيها .

ظلت صامتة ، فقررت سؤالها عن سبب ضحكتها عقب أن قمت بندائها بيا سوسو :

- أخبريني أيتها الماكرة ، لماذا كنت تضحكين بملء فيكِ بينما كنت أدعوك ب سوسو ؟

تلونت ملامحها هذه المرة بالحزن و هي تتنهد بعمق قبل أن تقول :

- لأنك ظننت أن هذا الاسم هو ما يدللني به حسام .

فقلت لها :

- من الواضح من كلامك أنه قد اختار صيغة أخرى لتدليلك .

انفعلت و هي تقول :

- إنه لم يفكر بالأمر من الأساس .

قلت متسائلا :

- أتعنين أن عشرتكما التي قاربت على العامين و نصف العام تخلو من أي تدليل أو مداعبة ؟

ضمت كفيها بينما تركت إبهاميها في وضع رأسي و هي تلوح لي بعلامة الجودة دون أن تنطق ، فقلت لها :

- هل تريدين القول بأنني أحسنت التوقع ؟ و أن ما أقوله أمرا واقعا و ليس خيالا ؟

نطقت أخيرا بلهجة تغلفها الحسرة :

- يا عمي .. يا عمي .. يا متر حمدي ، مرحلة التدليل هي المرحلة الأخيرة التي يسبقها مرحلة الكلام أساسا ، و التي بدورها يعقبها

مرحلة الإحساس بالآخر ، حتى نصل أخيرا لما تريد منه أن يفعله من تدليلي و الشعور بي .

انطلقت أقول :

- ألا خيبة الله عليك يا حسام ، تزوجت من امرأة بارعة الجمال ، يحسدك الجميع على الفوز بها ، لتهملها على هذا النحو .

انتظرت لثوان قبل أن أعقب :

- و لكن يا سالي ربما كانت مشكلة تأخر الإنجاب هي الحائل بينكما ، أنا لا أريد أن أتطرق لما يزعجك ، و لكني قد نويت أن أساعدك بأي طريقة .

التزمت الصمت مرة أخرى و هي تنظر لأسفل ، لأقرر أن أتمادى في الحديث عن هذا الموضوع أيا كانت العواقب ، فسألتها :

- ماذا عن رأي الطب في مشكلتكما يا ابنتي ؟ قد علمت من محمود أنكما تذهبان للطبيب مرات عدة ، و أنه طمأنكما على أن المسألة مسألة وقت ليس إلا ، لخلوكما من أي مانع طبي للإنجاب ، هل ما أخبرني به أبوك هو الحق ؟

قالت بلهجة ساخرة :

- امممممم ، يمكننا القول أنه الحق ، و لكن بعد تغيير بعض الحروف في بعض الكلمات .

ارتسمت على وجهي علامات التساؤل ، فقرأتها سالي قبل أن تجيبني :

- أعني أن نقول : أنكِ تذهبين بدلا من أنكما تذهبان ، و كذلك

لنقول : مرة واحد بدلا من مرات عدة .

- هل لا يبالي حسام بالذهاب معك لمتابعة الأمر ؟

قالت منفعلة مجددا :

- يا عمي إن الأمر لا يشغل باله على الإطلاق ، أنا التي ذهبت بعد فترة قصيرة من زواجنا للطبيب لإيجاد وسيلة منع حمل مناسبة لأستخدمها .

قاطعتها :

- ماذا ؟

قالت :

- نعم ، منع حمل ، فكرت كثيرا باستخدام وسيلة تكون مضمونة، ولا يمكن أن يعثر عليها أحدهم ليوبخني ، فلم أجد إلا استخدام الحقن التي تُعطى كل ثلاثة أشهر ، و لكني علمت أنها غير مناسبة لبعض النساء ، فقررت الذهاب للطبيب لإجراء التحاليل اللازمة ، و لحسن الحظ أنها جاءت لتخبرني بأنه بإمكاني أن أستعمل الحقن دون أدنى خوف .

ارتفع صوتي دون إرادتي و أنا أقول معترضا :

- لحسن الحظ ؟ أي حظ حسن تعتقدين أيتها المجنونة في أن تمنعي نفسك رزقا أرسله الله لك ؟ هل تعلمين كم من رجل و امرأة أفنوا عمرهم بحثا عن طفل و لم يفلحوا ؟

اندهشت سالي من الحدة التي ظهرت فجأة في أسلوبي في الحوار، سرعان ما تذكرت عدم قدرتي على الإنجاب ، فالتمست لي العذر ، فراحت تقول في هدوء :

– لا يجوز يا متر حمدي أن تحمل الأنثى إلا ممن تحب ، و بما أن الموتى لا يتزاوجون و لا ينجبون ، فحتما سأظل دون لقب ماما طيلة حياتي .

أدركت من كلامها أن هناك أمرا غائبا عني ، فقررت سؤالها عنه ، لتجيبني بشكل غير مباشر :

– أكنت تخال أني مريضة نفسية تشعر بأن الجميع يضطهدها ؟ إذن سأحول تخيلك هذا ليقين ، سوف أقص عليك ما كان من أخيك وابنه لتحكم أنت بنفسك حكما عادلا .

أنهت قصتها مع علاء حتى أعقبتها بقولها :

– لقد تفرق دمي بين القبائل ، علاء يتخلى عني ، و أبوه يجبره على ذلك ، و أمي لا تهتم لأمري ، أما زوجي فلا يراني أمامه من الأساس .

صمتت هنيهة لتستكمل :

– طالما ظننت أن علاء سوف يطاردني و لو بمكالمة تليفونية يبث خلالها شعوره بالندم على انصياعه لأمر أبيه ، لسوف يقسم على أن شوقه إليَّ قد أرق مضجعه ، لكنه منذ آخر لقاء لنا قد نكص عن ملاحقتي و لو بسؤال عن حالي .

أعقبت بصوت ينم عن الهزيمة :

– حتى أختي ، كنت أشعر كثيرا أنها تريد إغاظتي بتقبيلها لزوجها أمامي أكثر من مرة ، نعم ، كانت تريد أن تقول لي أنك أيتها الجميلة لا تثيرين في زوجك مشاعره الرجولية ، أما أنا فأقبل زوجي أمامكِ ، لا يبق إلا أن تستنتجي أنت ما يحدث بيننا بمجرد أن نختلي ببعضنا البعض .

لمعت عيناها فجأة قبل أن تقول :

- حتى ما كنت قد أعددته لأنتقم منها نجحت في تجاوزه دون أدنى خسارة ، بل جنت من وراءه مكاسب عدة .... ملعونة أنت يا رشا .

- أي انتقام هذا الذي تعنين يا سالي ؟

سألتها لتبادر بالإجابة :

- كنت قد نجحت في أن أوقع بينها و بين خالد أكثر من مرة ، منهم مرة كان لها وقعها الشديد على مشاعرهما تجاه بعضهما البعض ، وبالطبع لم يشك أحد في أمري ، فكيف لسالي التافهة الطيبة الساذجة أن تقوم بمثل هذا ، كانا قد أوشكا على الطلاق بفعل خطتي ، لكن حب خالد الجارف لها و كذلك حبها له مكناهما من أن يتمهلا ثم يتجاوزا الأزمة ، فصارت علاقتهما أكثر حميمية و أكثر نضجا .

لم أستطع التخلص من دهشتي لما أسمع منها ، فقررت الهرب من هذا الموضوع لموضوع آخر ، حتى لا أكره الشيطان الجالس أمامي ملتحفا بعباءة ملاك .

راحت تتمتم بكلمات تندب فيها حظها لعدم طلاق رشا ، مسحت على جبينها و وجهها بيدها ، بينما كان بصرها متعلقا باللاشيء ، فقررت سؤالها :

- و لكن قبل أن تقرري استعمال الحقن لتجنب الحمل ، كان هناك فترة من الممكن أن تحملي فيها في بداية الزواج ، أليس كذلك ؟

أجابت بمنتهى منتهى السخرية :

- إذا كان معدل اللقاء العاطفي بين الزوجين في شهر العسل هو مرة

كل أسبوع ، فما بالك بباقي شهور العمر ؟

قلت لها :

- إذا كان لا يمكننا التمتع بالحياة كما ينبغي ، فهذا لا يعني أن نهجر حياتنا بالكامل .

نطقت ساخرة مما أقول :

- أهي حقا حياة ؟

تجاوزت المعنى لأرد بدوري :

- ابنتي ، اخلعي رداء حياتك البائسة ، و هلمي لبدء حياة جديدة ، لا ضير من المحاولة .

لم أتلمس أي استجابة لردودي التقليدية ، فقررت الهجوم و لكن بحذر ، نظرت لها محذرا :

- ابنتي ،هل تعتقدين أن روحك و روح المرحوم علاء بإمكانهما الالتقاء في الجنة ، هناك في العالم الآخر ؟

أجابت بنبرة فارقها الصبر :

- ماذا ؟ أبعد كل هذا تُحْرَمُ سالي كل شيء حتى في آخرتها ؟

أجبتها قائلا :

إذن فعليك أولا بالبحث عن مكان روح علاء قبل أن تشدي الرحال إليه بالانتحار .

سألت :

- ماذا تعني يا متر ؟

أجبتها بلهجة حنونة :

- أعني أنك لا بد أن تدركي أن مكان علاء الآن كشهيد حتما هو الجنة ، و لكن تبقى المشكلة أن الجنة لم تُعَد لاستقبال المنتحرين ، و هو ما يقف حائلا دون لقائكما الذي تأخر كثيرا .

دخلت سالي مسرعة في نوبة بكاء حاد ، كاد أن يدمي قلبي حزنا لأجلها ، فقد أدركت أنني أخطأت الفهم عندما وصفتها بيني و بين نفسي بالشيطانة مرة ، و أخرى بالزوجة الخائنة التي تحرم زوجها أبسط حقوقه في أن يُنادى يوما باسمه مسبوقا بكلمة بابا .

أدركت أنني أمام مريضة نفسية ، قدحت زناد فكري ، ليتمخض عن فكرة اقترحتها عليها ، كان لها فيما بعد أثرا طيبا للغاية على سلوك ونفس سالي ، أقنعتها بضرورة الذهاب لطبيب نفسي ، و سوف يكون الأمر سرا بين ثلاثة أشخاص : أنا و هي و الطبيب ذاته ، رفضت أولا حتى أفهمتها أنها يمكن أن تدعي أنها تذهب لطبيب أمراض النساء ، لمتابعة مسألة تأخر الإنجاب ، و بالتالي لن يفتضح أمرها ، و لن يصفها أحدا بالجنون .

ابتسم حمزة و هو يضع خده على راحة كفه و هو يقول :

- و الآن ، إليَّ بزينب يا متر حمدي .

ابتسمت بدوري و أنا أقول :

- نعم لا بد من أن نطرق باب زينب الآن .

زينب يا ولدي مرت بتجربة بالغة المرارة ، بسبب غباء زوجها فهمي، الذي اصطحبها معه و ولديه للكويت .

إهمال غير محدود منه تجاهها ، كانت زينب تعتقد أن فهمي لا

يتغشاها إلا ليكافئ نفسه فقط على إنجاز فَعَلَهُ ، علاوة مثلا في راتبه، مكافأة من مديره لإجادته في العمل ، و هكذا ، كان يحتفل دائما في غرفة نومه باعتلائه زينب ، لكن تبقى المشكلة أن مثل هذه المكافئات والعلاوات لا تتكرر كثيرا ، و هو ما يعني أن يتأخر اللقاء بين زوجين لم يمضيا سوى ستة أعوام في زواجهما لأسابيع بأكملها .

كانت زينب تعتقد أن الأمر لا يمكن اعتباره مشكلة ضخمة ، وإن كان قد أثر بالسلب عليها ، فتجاوزته و لم تقف عنده كثيرا ، لكن فهمي كان لا يجيد التفاهم باللسان كما يجيده باليد ، لذلك كان حل أي خلاف بينهما هو الاعتداء بالضرب على زينب ، التي كانت تجلس بعد كل مواجهة لتبكي بشدة دون أن تجد من يواسيها في غربتها .

أعني أنه من المعروف أن الزوج لا بد أن يكون زوجا و أبا و أخا ، أما الأخيرة فكان يجيدها ، أخ يحميها و ينفق عليها ، و لكن غياب الزوج كزوج ، و كذلك عدم قدرته على تقمص دور الأب الحاني هو لب الأزمة.

من الممكن أن تستمر الحياة ، أم تربي ولديها و تتفانى في عطائها تجاههما كما هو الحال غالبا ، و لكن أن يأت لها الأحمق فهمي بشاب يقيم معهما ليملأ الفراغ الأبوي و الزوجي الذي تركه بمحض إرادته ، فهذا هو عين الغباء .

ابتسم حمزة و هو يقول :

– متر حمدي ، لا تخبرني بأن ما يدور في خلدي هو الحق .

أجبته :

– نعم زوجة خائنة ، و لكن تمهل يا شيخ حمزة حتى استفيض ، بدأ

الأمر بإحضار فهمي لسيد قريبه للإقامة في المنزل ، شاب ابن الثامنة عشرة عاما ، لا يتكلم كثيرا ، يطيل النظر لأرضية الغرفة ، يبدو أنه كان يلتزم بوصية أمه قبل السفر بضرورة التزام كل ظواهر الأدب مع العائلة التي سيقيم معها .

مع الوقت بدأ سيد في الاندماج مع أسرته الجديدة ، فكان يقضي معظم الوقت مع فهمي في العمل ، و لا يأتي إلا قبله بنصف ساعة ، بدأ يتكلم مع زينب و يداعب ولديها ، بدأ يتجرأ في طلب الطعام بنفسه بعد أن كان ينتظر أن يُدعى إليه ، كانت الأمور تسير على ما يرام كما خطط لها فهمي ، حتى بدأ النذل بتغيير نيته تجاه زوجة قريبه ، أدرك من خلال ما يراه أنها بحاجة لزوج و أب ، فبدأ بتقمص دور الأخير ، كان يحنو عليها و يواسيها عقب اعتداءات و إهانات فهمي المتكررة ، بل أنه يوما اشترى لها عطرا ليعتذر لها بالإنابة عن حماقات قريبه تجاهها ، صبر و صبر ، لم يتعجل الأمر ، كان يريد أولا أن ينال ثقتها ، كما أن الفترة الزمنية المتاحة له للانفراد بها قصيرة ، ذات يوم حضر مبكرا عن ميعاده المعتاد ، ليجدها غارقة في دموعها ، كان يعلم أنه لا يوجد أضعف من الأنثى أثناء بكائها ، فأخذ القرار بأن يتلمس طريقه نحو هدفه .

فاجأها أولا بعد أن دخل دون استئذان ، لم تكن عارية و لكنها كانت ترتدي ملابس البيت الخفيفة ، تنطوي ملابسها على جسد غض ، رأته فأسرعت بمسح دموعها و هي تقول :

- سيد ؟ ما الذي جاء بك مبكرا اليوم ؟

كانت تتكلم و هي تتحرك نحو غرفتها مستخدمة يديها كغطاء لصدرها الذي كانت تظهر بوادره ، و لكنه جذبها من يدها بقوة قبل أن تتأوه و تنظر له فتقول :

- ماذا تف..

قاطعها و كأنه قد صُدِم لرؤيتها تبكي ، ليبادرها القول :

- بل أنت ما الذي يبكيك بكل هذه الحرارة ، أخبريني بسرعة فأنا على استعداد لفعل أي شيء لأجل إسعادك ، أعلم أن فهمي قد اشتط في معاملتك سبا و ضربا .

نجحت في انتزاع يدها من قبضته و هي تقول بينما عاودت السير مسرعة نحو غرفتها :

- لا شيء ، أنا لا أبكي .

جذبها هذه المرة من خصرها و هي تنظر إليه غير مدركة أن من يصغرها باثني عشر عاما ينظر إليها كأنثى ، و ليست كأم لولدين فحسب ، تملصت منه و هي تقول :

- ماذا دهاك يا سيد ، هل جننت ؟

قرر حملها لضمان عدم إفلاتها منه ، و هو يزمجر بأصوات غلفها غضب و عنفوان شهوته المتأججة :

- أنا أعلم الناس بمعاناتك مع هذا الخنزير الذي تعاشرينه ، و أنا من استطيع إعطائك كل ما تريدين من حنان نظري و عملي ، أتفهمين.. نظري و عملي .

أعملت كل أطرافها لمحاولة التملص من بين يدي الفتى اليافع القوي،

كانت تبكي وهي تستحلفه أن ينبته لوجود ولديها بالداخل ، كما أنها زوجة قريبه ، و لكنه تقريبا لم يسمع أيا من كلامها لانشغاله بتقبيل كل ما كان يمكن أن يقبله منها ، حتى شعر بأن مقاومتها قد بدأت تتلاشى ، و أن بكائها قد ازداد عن ذي قبل ، بدأ يتركها تهبط بهدوء من بين يديه دون أن يتوقف عن تقبيلها ، لتجد نفسها بعد أن هبطت للأرض حبيسة بين صدر الفتى أمامها و الحائط خلفها ، هنا فقط تجاوبت معه تماما ، بل كان هو من يذكرها بين الحين و الآخر بوجود الطفلين النائمين حتى تتحكم في صوتها خشية إيقاظهما .

بعد أن انتهيا ظلت صامتة لثوان ، كأنها كانت تستوعب ما قد فعلته للتو ، انطلقت باكية بشدة ، راح سيد يربت على كتفها ، فدفعته بعنف و هي تصرخ به ليتركها ، راحت تسدد له سيلا من الشتائم و اللكمات و تقذفه بحمم الغضب و الوعيد ، قام مسرعا ليرتدي ملابسه ، فيما ذهبت هي لتقول :

– سأقتلك أيها الوغد ، سأقتلك يا سيد .

هرولت باتجاه المطبخ ، فأتبعها ليرى ما تنوي فعله ، ليفاجأ بإحضارها سكينا و هي تتقدم نحوه ، أسرع بالتوجه نحو باب الشقة و فتحه ليخرج منه سريعا ، و يكمل ارتداء ما تبقى من ملابسه و هو يهبط درجات السلم .

جلست زينب على الأرض بعد فرار سيد غير مصدقة لما حدث ، انتبهت بعد أن هدأت قليلا لوجود جرح غائر لا يزال ينزف دما من يدها اليسرى ، ألقت السكين لتقبض بكفها الأيمن مكان الجرح لوقف

النزيف ، تركت رأسها لترتطم بشدة من الخلف عدة مرات مع الحائط الذي كانت تستند إليه بفعل الندم .

كانت كلما ذكرت سقطتها الوحيدة ، حدثت نفسها قائلة : كم كنت ظفرا هينا سهل المنال .

اختفى سيد من حياتها بعد ذلك اليوم، وقد تحجج لفهمي بتركه المنزل و كذلك العمل الذي كان قد أوشك على استلامه بأنه قد مل من طبيعة هذا العمل ، و أنه سوف يعمل في مكان آخر بصحبة بعد الأشخاص ممن تعرف عليهم من أبناء بلدته، لم يمض شهرين حتى تم ترحيله لمصر بعد تلبسه بالاتجار بالمخدرات، لم تسأل عنه زينب ثانية، و كذلك لم يذكره فهمي أمامها لخجله من قريبه تاجر المخدرات.

جاءت لي زينب ذات يوم و جسدها كله تنتابه الرعشة ، استقبلتها لتقص علي ما قد حدث منذ عشرة أعوام ، أخبرتني أنها تواجه مشكلة قاتلة بشأن هوية ابنتها الحقيقية ، فطلبت منها الهدوء لتقص علي مشكلتها ، فراحت تقول :

- اكتشفت يا سيدي أن ابنتي شذا لها فصيلة دم مغايرة لفصيلة دمي ، فتذكرت ما كان من فعلة سيد النكراء ، كنت قد نسيت الموضوع وتبت إلى الله من فعلتي ، و لكن الموقف دفعني للخوف الشديد أن تحمل ابنتي فصيلة دم غير فصيلتي أو فصيلة أبوها ، فهي في هذه الحالة حتما ستكون ابنة هذا النذل .

سألتها :

- و ما فصيلة دم طليقك ؟

أجابت :

- لا أعلم ، لم أهتم يوما بمعرفة مثل هذا الأمر .

قلت لها :

- في كل الأحوال معرفة فصيلة الدم ممكن أن تنفي نسب شذا لفهمي ، و لكن ليس بالضرورة أن تثبت انتسابها له .

رأيت الحيرة في عينيها ، فرحت أدلها قائلا :

- هناك الآن يا زينب مراكز خاصة لتحليل ال دي إن إيه ، لإثبات صحة نسب أي طفل لأبيه ، ما عليك إلا أن تقومي بإحضار شعيرات من رأسي فهمي و شذا ، و إرسالهم لأي معمل محل ثقة ، و لسوف يخبرونك بالنتيجة في سرية تامة .

زادت حيرتها و هي تسأل :

- و كيف أحصل على شعيرات من رأس طليقي يا متر حمدي ؟

ظللت أجوب الغرفة ذهابا و إيابا لمرتين و أنا أشبك يداي خلف ظهري ، جلست على الكرسي أنقر المكتب بسبابتي متفكرا قبل أن يتفتق ذهني عن فكرة جيدة ، فأسرعت أخبر بها زينب :

- اسمعي يا زينب ، إن شذا لا تزال طفلة ، و هي كسائر البنات في مثل عمرها تكون شديدة التعلق بأبيها ، اسمحي لها أن تبيت معه عندما ينزل لقضاء إجازته بمصر ، وأخبريها بأن هناك أمرا حتمي الحدوث ، و هو أن البنت إذا قصت شعيرات من رأس أبيها و احتفظت بها ، فإن أباها سيعود حتما و سريعا ليقيم معكم من جديد في البيت ، و لكن عليها أن تقوم بهذا في سرية تامة أثناء نومه ، و بمجرد أن تحضر لك

الشعيرات حاولي أخذها منها دون أن تدري، و أبدليها بأي شعيرات أخرى.

- و لكن فهمي على ما أذكر لن يأتي لمصر قبل شهرين على الأقل .

قلت لها :

- اصبري يا زينب ، فإنك صبرتِ قبل ذلك أعوام ، ما الضرر إذن من الصبر لشهرين إضافيين .

قالت و قد أعياها التعب :

- ليتني أستطيع السفر لفهمي الآن فانتزع منه الشعر انتزاعا ، إذن لأمكنني أن أجد لمضطربي مدى أو نهاية ، ماذا لو علم فهمي بما حدث، سينتقم يوما مني و لو على سبيل البصق و الازدراء .

مر أكثر من ثلاثة أشهر على هذا اللقاء ، لأجد أن باب مكتبي قد اقتُحِمَ اقتحاما لتدلف زينب منه ، بينما تلاحقها السكرتيرة لمنعها من الدخول دون إذن ، أشرت للسكرتيرة بالانصراف ، ما أن أغلقت الباب حتى جثت زينب على ركبتيها و تناولت يدي لتقبلها ، ثم رفعت وجها لأعلى لتتمكن من النظر إلي ، كانت تبدو و كأن ما أرقها قد أُمحي أثره، فراحت تقول :

- لك جم الشكر بعد الله يا متر حمدي، لن أوفيك حقك مهما فعلت لك .

استنتجت وقتها أن نتيجة المعمل جاءت بما تهوى نفس زينب، فسررت لذلك ، جذبتها لتنهض و أنا أقول :

- الشكر لله وحده يا ابنتي .

قالت بعد أن وقفت :

- أي شكر و أي حمد ، لقد سترني و أنا عاصية ، وطمأنني على صحة نسب ابنتي .

كانت السنين التي قضتها زينب في تأنيب الضمير على فعلتها خير عقاب لها ، حتى أنها داومت بعد ذلك على قيام الليل خاشعة لله حتى يومنا هذا ، على الأقل مرتين أسبوعيا ، لم تتحجج بالظروف التي دفعتها لارتكاب جريمتها ، لكنها قررت التوبة و سارت في تحقيقها على أكمل وجه .

لم ينتظر حمزة أن انتقل لآخر شخصية في العائلة ، و لكنه سألني و هو مهموما :

- أي كارثة يا متر حمدي جاءت بها أميرة هي الأخرى ؟

ضحكت و أنا أقول :

- أميرة لا تزال صغيرة يا ولدي ، مما دفعها للتأسي بصديقات سوء ممن تعرفت عليهن في شقة صديقتها غادة ، قررت الهرب معهن من مشاكلها بتعاطي المخدرات ، تستظل معهن بسحابة من الدخان الأزرق ، تمتص من كل واحدة ما يعكر صفوها ، و تمتص كذلك منها أحلامها ، ظلت تجالسهن و تضاحكهن بضعة أشهر ، أصبحت صديقتهن بعد أن كانت تنقم عليهن قلة الحياء ، في البداية أبدت تخوفا من أن يفتضح أمرها ، و لكنهن بخبرتهن العريضة أخبرنها بأنهن سيجدن لها عذرا وربما أعذارا تنتحلها لأمها .

نقص وزنها و شحب وجهها ، و لم تفلح كل محاولات والديها لمعرفة

السر وراء ذلك ، الغريب أن نقصان وزنها و إن كان يبدو لمن لا يعرف أنه نقص مقترن بمرض ، قد ساهم في اعتدال قوامها عن ذي قبل ، فانطلقت تريد أن تثبت للجميع أنني أصبحت أنثى ، و أن عزوف وليد ولؤي و غيرهما عن الاهتمام بي ما هو إلا حماقة منهما و ليس عيبا لدي، أصبحت ترتدي القصير و الضيق من الثياب لتشي ملابسها بحسن جسمها ، و إن كانت لبنطاها النصيب الأكبر من الاهتمام ، حيث أنه مما كان ينغص عليها مزاجها حين تطالع هيئتها في المرآة أنها ذات صدر أمسح ، فلم تكن تمتلك مثل الكثيرات ممن تتباهين بتشبهن بأفروديت ، لم تكن على هذه الدرجة من السوء ، و لكنه يبقى طموح الأنثى .

رسوبها في العام الدراسي الثاني لها بالجامعة كان هو نقطة الانطلاق نحو الإفاقة مما كانت تفعله ، جاءتني بدورها تطلب مشورتي ، فوجهتها بأن تستشير أحد المراكز المتخصصة في التخلص من الإدمان ، فقطعا لديهم ما يقولونه لها لمساعدتها على تجاوز محنتها سريعا ، أفهمتها أن الأمر ليس بالعسير إذا ناشدته صادقة ، خاصة بعد أن أصبح ليس من الضروري أن يقيم المتعاطي في المركز كما كان من قبل ، بل يمكنه متابعة المركز على فترات منتظمة للاستشارة .

أفهمتها أنها لا تزال صغيرة ، و أن شعورها تجاه وليد كان بفعل التوجيه الخاطئ من أمها ، و عليها أن تتجاوز الأمر سريعا ، فهي صغيرة و جميلة و بانتظارها مستقبل واعد مع من يستحق أن يستحوذ على قلبها باقي العمر ، فإن من أسوأ ما قد يصيب الفتاة أن تعتقد أنها

فتاة عاثرة الحظ ، قلت لها نصا :

- لم تستعجلين يا صغيرتي أمور الحب و الزواج ، و لديك وجه طالع الدنيا عشرون عاما فقط ؟

حتى وليد لم يكن ظالما حيالها ، لأنها كما أفهمتها لم تتلمس من أقواله و أفعاله أياً من آي الحب و علاماته .

كان لغادة دور ملموس في إصلاح ما أفسدته بشأن أميرة ، ما إن رأت أميرة تتجه نحو هوة سحيقة لا سبيل للخروج منها البتة حتى حاولت أن تنهاها عن التمادي ، و لكن الأخيرة لم تقتنع بعد بالاستغناء عن الدواء المسكن الجديد الموجود بصحبة الصديقات ، أعطتها غادة بعض الوقت لتستيقظ ذاتيا ، لكنها وجدت أن خطاها تتسارع نحو الهاوية ، وتوجت ذلك برسوبها الذريع ، و بيعها إحدى مقتنياتها الذهبية لتجاري مصاريف عالمها الجديد ، حتى قررت أن تنصحها هذه المرة بشكل مختلف ، و إن كان على حساب إطلاعها على أسرار زميلات السكن ، قالت لها ذات يوم :

- عليكِ أن تعي أمرا هاما يا أميرة قبل الاستمرار فيما أنت فيه .

ردت أميرة باستهتار :

- أي أمر و أي استمرار ؟

فاستوصت غادة بالصبر و قالت برقة :

- كنت أعلم أنك أصبحت لا تدركين أي أمر و أي استمرار فيه ، أميرة يا عزيزتي ، من السهل أن تجدي شبابا تجمعهم صداقة ، ويكون أحدهم على أتقى قلب رجل ، بينما يكون هناك آخر على أفجر قلب رجل ، ربما

جلس أحدهم في غرفة قائما يناجي ربه ، و الآخر في الغرفة المجاورة يناجي زجاجة خمر ، هذا جائز و شائع الحدوث في دنيا الشباب ، إنما في عالم الإناث فإن الطيور تقع حقا على أشكالها، كل ساكنات البيت الذي تجلسين فيه الآن على درجة أو أخرى من الانحراف ، أبسطهن من تتعاطى المخدرات فقط ، أما الباقيات فبين من تحولت بفعل طموحها النهم لفتاة ليل و أحيانا فتاة نهار ، و أخرى تعتقد أن عذريتها فقط هي دليل أخلاقها ، و ثالثة لا تتورع عن تأبط الأذرع شريطة أن يكون الظلام كاسيا ،و رابعة ، و خامسة ..

أدارت أميرة عينيها صوبها ، فقرأت غادة السؤال الذي لم تنطق به لترد مسرعة :

– أعلم أنك تتوقين لمعرفة درجتي في سلم الانحراف ، أنا من النوع الذي أفاق سريعا ، و قرر ألا يفقد بعد خلايا من مخه بفعل التعاطي، على ألا يفقد شيئا دون ذلك ، أخبريني إذن : هل تجدين نفسك بين هؤلاء المنحرفات ؟

تَزامُن كلام غادة مع رسوب أميرة في الدراسة مع نصائحي لها ساعد على الدفع بها ثانية لبر الأمان .

- أخيرا انتهينا يا متر حمدي من العائلة التي كن..

قاطعت الشيخ حمزة لأقول :

- لا ، لم ننته بعد .

سأل حمزة :

- كيف ذلك ؟ أهناك من نسينا ذكره ؟

أجبته :

- أليس من يجلس بجانبك الآن أحد أفراد العائلة ؟

نظر لي حمزة بعمق قبل أن يقول :

- و هل يُنسى من يحمل على كاهله كل تلك الأسرار ؟

تحدثت إليه في وداعة كي لا يُكوِّن عني رأيا سلبيا ، فالمسألة هذه المرة تتعلق بي أنا شخصيا ، و ليس بأحد أقاربي أو معارفي كما كان الأمر سابقا ، فقلت له :

- أما أنا فباختصار كنت أسعد حظا من أخي منصور الذي اضطر لعدم إتمام تعليمه للوقوف إلى جوار والدي ، فما قام به من تضحية كان قد مكنني من أن ألتحق بكلية الحقوق و أمارس بعد ذلك المحاماة ، كنت أمارسها كلاعب كرة موهوب ، يقفز فوق التقاليد المتعارف عليها من أبناء المهنة ، ليدافع عن موكليه بأنماط جديدة مبتكرة ، كل هذا ساعدني في أن أكون أموالا كثيرة من عملي ، لكنه أيضا كان السبب في

الشوكة التي تؤلم ظهري حتى اليوم .

- أتعني أن سقطتك كانت لسبب يتعلق بمهنتك ؟

أجبته و أنا أهز رأسي إيجابا :

- بالفعل هو كذلك ، و لكن سقطتي كانت مركبة ، تحايل مهني لأخذ حق الآخرين ، و قطع صلة الرحم لنفس السبب .

قبل أن ترتسم ملامح التساؤل على وجه حمزة ، استكملت كلامي :

- تعرف يا ولدي أنه من المتعارف عليه بين الكثيرين من أبناء الصعيد ألا ترث الأنثى أرضا و إنما مالا حتى لا تذهب الأرض لعائلة زوجها ، و هو ما قمت باستغلاله على أكمل وجه ، مستغلا خبرتي في الصياغة القانونية التي تُعجز أي أحد يحاول المطالبة بحقه مني ، فعند وفاة والدي لم أعط أخوتي الإناث نصيبهم كما ينبغي في التركة ، فلم أترك لهن إلا الفتات ، لم يؤثر ذلك إلا على علاقتي بالمرحومة صباح التي كان زوجها غير ميسور الحال ، فتأثرت بنقص ميراثها بشكل كبير، على عكس الأخريين اللتين كانتا تعيشان في رغد مع زوجيهما .

عندما مرضت صباح ، لم أهتم بالأمر كما ينبغي ، مجرد مكالمات هاتفية كانت تقابل منها بجفاء ، فكنت لا ألقي بالا للأمر ، ظنا مني أنه مرض عابر ، إنما بعد أن تلقيت خبر وفاتها شعرت بأن روحي قد اختطفت مني لتذهب إلى جوارها في قبرها ، لا أدري تحديدا ما حدث

لي ، و لكن روايات المرافقين لي وقتها كانت تؤكد على أنني كدت أن أصاب بانهيار عصبي .

حاولت فيما بعد أن أعوض أبنائها عما اغتصبته من أمهم ، فأنا أدرى الناس بأني قد غبنت أختي حقها ، حاولت ثم حاولت ، بل جاوزت الحد المطلوب مني في محاولة لإراحة ضميري .

- الآن يا ولدي يمكنني القول بأن الجانب العملي قد انتهى ، هل لا زلت في حاجة لأن أقوم بشرح الجانب النظري ؟

كان هذا آخر سؤال يخرج من المتر عاصم في صورة كلام مسموع، بل آخر كلام بينه و بين حمزة على الإطلاق ، حيث أمضيا الدقائق الثلاثة المتبقية على رفع آذان المغرب في حوار صامت ، فقط نظرات متبادلة من أعينهما ، برغم صمته إلا أنه كان حوارا بليغا لأبعد الحدود.

تعلقت العيون ببعضها طيلة هذا الوقت ، بدأ الحوار البصري بينهما برد من حمزة على سؤال عاصم بشأن الخوض في الجانب النظري :

- لم تترك حكاياتك مجالا لأي نظريات يا متر حمدي .

- هل أحسنت إيصال مغزاي من هذا القصص ؟

- بكل تأكيد .

- هل علمت لماذا كنت ابتسم إبان إلقائك لخطابك المتشدد ؟

- و أي علم .

- هل تغير رأيك بشأن معسكري جهنم و الفردوس بعد سماع الجانب الآخر لكل شخصية منهم ؟

- أجل قد حدث .

- هل ستذكرني أيها الشيخ الشاب ؟

- ربما لن أذكر شخصا سواك يوما .

- هل ستنعتني لنفسك بانطباعات جيدة ؟

- ستعرف و أنا أؤم الصلاة .

انقضت الدقائق الثلاثة على هذا النحو ، عينا عاصم ترسلان

سؤالا لتتلقفه عينا حمزة فتجيبان بما عنَّ لها ، حتى ارتفع صوت الآذان فهم كلاهما لإعادة الوضوء من جديد .

مخالفا لعادته ، لم يطل حمزة قراءة ما تيسر من القرآن بعد أن أنهى قراءة الفاتحة و هو يؤم المصلين ، اكتفى بآية واحدة فقط من سورة الزمر ..

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

صدق اللّٰه العظيم .

فيللا محمود بالتجمع الخامس

أعلنت دقات الساعة عن بلوغها الثامنة ، موعد قدوم المدعوين ، راح جميع من في المنزل يتأهب لاستقبالهم تترا ، فالفيللا على وشك أن يؤمها المدعوون ، مرت ستة دقائق حتى سمعت أمل صوت نفير سيارة ، فأدركت أن أحدهم قد وصل و يضرب نفيره لتنبيه البواب لفتح البوابة حتى يقوم بإيداع سيارته الجراج الموجود أسفل الفيللا .

استغلت أمل انشغال الجميع لتتسلل دون أن يراها أحد لحجرة المكتب ، حيث يمكنها من هناك رؤية البوابة بوضوح ، دلفت للداخل دون أن تضيء الأنوار ، و اكتفت ببقايا ضوء المصابيح الموجودة في الحديقة لتهديها طريقها للنافذة ، جذبت الستارة قليلا و وقفت بجانبها بشكل عمودي عليها لتتمكن من رؤية القادم دون أن يراها هو ، ما إن رأت السيارة حتى تركت الستارة تعود لوضعها الطبيعي ، لتقف أمل و تقول لنفسها بصوت أشبه بالهمس :

– كنت على يقين أنني سأكسب الرهان مع نفسي ، و تكونين أنت أول الحضور يا زينب .

تمــــــت

محمد عطية